

اسكندر دوامس الكبير

ذو القناع الحديدى

(الجزء الثانى)



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

روائع الفصحى العالمى

وآيات الهلال

كلمة التحريم

هذا هو الجزء الثاني من رواية « ذو القناع الحديدى » للروائى الأشهر اسكندر دوماس الكبير . وقد وضعنا فى مقدمة هذا الجزء خلاصة وافية للجزء الاول الذى صدر فى شهر مارس الماضى ، حتى لا تنقطع سلسلة الحوادث التى احتوتها هذه الرواية الشائقة ، وليستطيع القراء - فى يسر - متابعة فصولها وما قام به أبطالها من أعمال ووقائع

وهذه الرواية فى جزءها تصور عصر لويس الرابع عشر بما فيه من أحداث عجيبة ، وشجاعة نادرة ، ومكاييد ودسائس ، وطموح ومغامرات . ولو أنها سميت باسمه ، لما كان فى ذلك تجاوز ولا مفالة ، لأنها تصور حياته وطبيعته وأخلاقه وبخاصة فى هذا الجزء الثانى . فان القارئ سبرى فيه شخصية لويس الرابع عشر فى قوته وعظمته وسلطانه . وكيف تغلب على أخيه التوأم فيليب الذى حل محله ليلة واحدة على سرير الملك ، وكيف قضى على خصومه ووحد السلطة فى يده

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تصور حياة ملك عظيم ، فان المؤلف استطاع بفنه الرائع أن يضمها غراما قويا عنيفا لا يقل عنفا وتضحية عن غرام قيس وليلي ، أو روميو وجوليت . بل لعله أكثر روعة ، وأشد عنفا وأسى ، فان غرام الشاب الفارس راول (الفيكونت دى براجلون) بالفتاة لويز دى لافالير ، قد بلغ الذروة فى اللوعة والتضحية والحمران ، وقد كان غراما يائسا دفع راول المسكين الى أن يلتمس الموت فى الحرب فرارا من بلائه وعذابه



اما الرواية التالية فهى « ابنة البخيل » للروائى العالمى الكبير أونوريه دى بلزاك ، تصدر فى ١٥ مايو القادم . وهى تصور فى أروع صورة جنابة البخل على الانسان وعلى ذريته من بعده ، كما تصور « البخل » فى أعنف مظاهره ، وأبشع أحواله . ثم هى ترينا كيف تنشأ ابنة البخيل موضع ملاحقة ماكرة من المعجبين بمالها ، لا بجمالها . وهى بالاجمال رواية انسانية تحارب قوى الشر فى نفوس الاشرار

شخصيات الرواية

ملخص الجزء الاول

كان الضابط الشاب « راعول » أو « الفيكونت دي براجلون » قد تبادل الحب والتعاهد على الزواج مع الفتاة « لويز » أو « الأنسة دي لافالير » كما كانت تعرف في بلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا حيث تعمل وصيفة للأميرة « هنريتا » قرينة شقيقه الأصغر ، و« خلية » الفيكونت دي جيش ، زميل راعول وصديقه الحميم !

وكان الملك قد شرع في مغازلة الأميرة واجتذاب قلبها ، لكنه ما لبث قليلاً حتى كف عن ذلك إذ جن غراماً بوصيفتها دي لافالير ، وبادلتها هذه غرامه وكثر تلاقيهما بعد أن أبعد الملك خطيبها في مهمة أرسله فيها إلى إنجلترا ، فأثار ذلك حنق الأميرة المهجورة ودفعتهما الغيرة إلى الانتقام لنفسها ، فسعت حتى رجع خطيب الوصيفة فجأة إلى باريس ، وكشفت له خيانة خطيبته ، ثم انتهزت فرصة خروج الملك والحاشية في نزهة قصيرة ، وأطلعت الفتى على آثار تلك الحيانة بالغرفة السرية التي تجتمع فيها مع الملك في المسكن المخصص بالقصر الملكي للتبيل الشاعر « سان اينيان »

وسارع الشاب - بعد أن تحقق خيانة خطيبته - إلى مقابلة المسيو « دارتانيان » قائد فرسان الملك ليشاوره في الأمر بوصفه أحد الفرسان الأربعة المشهورين منذ عهد « لويس الثالث عشر » والذين يعد أبوه وهو « أتوس » أو « الكونت دي لافير » أكبرهم سناً ومقاماً وثروة . فلما نصح له « دارتانيان » بالترث ، لجأ إلى المسيو « بورتوس » أو « الكونت دي فالون » أقوى أولئك الفرسان الأربعة جسماً وأبسطهم عقلاً ، واستطاع أن يقنعه بأن يكون رسوله إلى « سان اينيان » لكي يدعوه إلى مبارزته . وكادت هذه المباراة أن تتم لولا أن علم بها الملك في آخر لحظة فحال دون وقوعها .

وما كاد الكونت دي لافير يعلم بالأمر من صديقه القديم « دارتانيان » حتى اشتد به الغضب من سوء تصرف الملك واعتدائه على كرامة ابنه ، وسرعان ما توجه إلى القصر الملكي حيث جابه الملك بسخطه واستنكاره تصرفه ، ثم لم يسعه حين لج الملك في كبريائه وعناذته وأخذته العزة بالانتم إلا أن جرد سيفه التاريخي المقدس وحطمه أمامه ثملقى به بين يديه وانصرف لا يلوى على شيء !

ولم يشأ لويس الرابع عشر أن يسكت على هذه الإهانة ، فأمر قائد فرسانه بأن يلحق بالكونت دي لافير ليقبض عليه ويزوج به في سجن

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحياناً

الأمير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولاً من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة ، تعاني مرضاً جسدياً وأماً نفسانياً وتحفظ بسر مولده فيليب

الدوقة مدام دي شيفريرز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخفى عليها الدهر ، واطلمت على سر لفوكيه فباعته لكونكولير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

اراميس (الكونت دربلاي) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال في عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفاً وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دي فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخيم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دي لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راعول (دي براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدم ، أحب الأنسة لويز دي لافالير إحدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دي لافالير : إحدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راعول ، وعاهدا على الزواج ولكنها وقعت في غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطيب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير اراميس الذي أقرضه أموالاً ثم تركها له ، وهو عضو في جماعة الجزويت

تولى أمرها الاسقف « دربلاي » الذي هو رابع الفرسان الاربعة وكان يعرف باسم أراميس . وتفصيل ذلك أن هذا الاسقف الفارس القديم كان رئيسا لجماعة « الجزويت » السرية ، التي ينتمى اليها كثيرون من كبار الموظفين وأعداء الملك في الداخل والخارج ، وكان يطمع في منصب « البابا » ورياسة الوزارة في الوقت نفسه . وكان يعلم أن الملكة الوالدة « آن » قد أنجبت مع ابنها « لويس الرابع عشر » توأما سمي بفيليب ، ثم اتفق معها زوجها « لويس الثالث عشر » على اخفاء أمر هذا التوأم تفاديا لما قد يقوم من نزاع على العرش بين التوأمين . وهكذا شب منقيا في جهة ثانية لا يعرف غير مربيته ومعلمه ، ولا يدري شيئا من أمر نسبه . وكانت أمه تزوره متكررة أحيانا دون أن يعرف شخصها . وبقي الأمر كذلك حتى تولى العرش لويس الرابع عشر ، فزج بالأمير المسكين في سجن الباستيل باسم « مارشالي » ، بعد أن اغتال أستاذه ومربيته ليدفن سره معها إلى الأبد . وعلى هذا سعى « أراميس » حتى زار الأمير في سجنه ، وكشف له حقيقة أمره ، ثم احتال حتى أخرجه من السجن حيث ألبسه ملابس كملابس الملك ، ودربه على القيام بدور الملك مستغلا ما بينهما من تشابه تام . واذ كان هو الذي تولى الاشراف على اعداد مهرجان الزيارة الملكية في قصر صديقه فوكيه فقد استطاع بسهولة أن يمضي في تنفيذ مؤامراته الخطيرة ، فاختطف الملك من سريره في غرفة نومه بقصر فوكيه وقاده بمعزفة صديقه « بورتوس » الى سجن الباستيل حيث حل محل السجن « مارشالي » أو أخيه فيليب ، بينما حل هذا محل في السرير ! ولم يستطع المسيو بيزمو محافظ الباستيل أن يعارض الاسقف الداهية في شيء ، لانه كان عضوا في جماعة الجزويت التي يرأسها الاسقف ، ولأن هذا كان يدينه بدين كبير متعذر الأداء !



الباستيل ، وفشلت محاولات دارتانيان لاقناع الملك بالعدول عن هذا الأمر ، كما فشلت محاولاته لحمل الكونت على الفرار إلى خارج الحدود . فلم يسعه إلا أن نفذ الأمر ، ثم رجع إلى الملك وطالبه ملحا بأن يأمر باعتقاله أيضا ، كي يلحق بزميله المجاهد الوطني الكبير ويشاركة مصيره الأليم . وازاء هذا لم يسع الملك إلا أن يأمر بالافراج عن الكونت المعتقل في اليوم نفسه !

وفيما كانت هذه الأحداث تجري داخل القصر وخارجه ، كانت هناك مؤامرتان خطيرتان تدبران في الخفاء : احدهما لاسقاط المسيو فوكيه وزير المالية ، والاخرى لاسقاط الملك نفسه

وقد تزعم المؤامرة الاولى المسيو « كولبير » وكيل وزارة المالية ، واستطاع أن يحصل على مستندات خطيرة تثبت خيانة الوزير للدولة والملك ، ومن بينها خطاب بخط « مازارين » - رئيس الوزارة الراحل - يثبت أن فوكيه استحل لنفسه جانبا كبيرا من مال الدولة ، وخطاب آخر يخطر فوكيه نفسه يثبت محاولته غزو قلب الأنسة « دي لافالير » خليفة الملك ! . وعرف كولبير كيف يهيم الفرصة المناسبة لتنفيذ هذه المؤامرة ، فحصل على المستند الرسمي الذي كان الوزير يحتفظ به دليلا على أنه سدد كل المال الذي أشار إليه مازارين في ذلك الخطاب ، وأعان المسيو « فانيل » زوج خليلته على شراء منصب النائب العام للبرلمان من فوكيه لكي يرفع عنه الحصانة البرلمانية . ثم سعى لدى الملك حتى أعرب للوزير عن رغبته في أن يزوره وحاشيته في قصره الريفي تحقيقا لوعده قديم كان قد وعده اياه . وبذلك يضطر الوزير إلى تبديد جانب آخر من مال الدولة في اقامة المهرجان اللائق بنزول الملك وحاشيته ضيوفا عليه ، لأن ثروته الخاصة كانت قد نفدت وتراكت عليه الديون إلى حد جعل خليلته الحسنة النبيلة « دي بليير » ترهن جواهرها لتقرضه بعض المال ، وجعل خاصته من الشعراء والفنانين وغيرهم يكتبون له بمبلغ آخر من المال ليحولوا دون بيعه منصب النائب العام ، لكنه كان قد باع المنصب واسترد بثمنه جواهر خليلته وحبليها وأهداها اليها من جديد !

وأخيرا ، ضرب كولبير ضربته القاضية ، حينما ألمح على وجه الملك آثار العيرة من فخامة قصر الوزير وفداحة ما أنفقه في تنسيق المهرجان ، فأطلعه على الخطابين السالفي الذكر . وسرعان ما اشتد الغضب بالملك ، فلم يستطع الاستمرار في مشاهدة بقية برنامج المهرجان ، ثم أوى إلى الغرفة التي خصصت لمبئته في قصر الوزير قبل الموعد المحدد لذلك ، بينما عهد إلى دارتانيان قائد فرسانه في ملازمة الوزير المغضوب عليه حتى الصباح تمهيدا لاعتقاله ومحاكمته على التهم المنسوبة إليه !

وفيما كان دارتانيان مرابطا لذلك الغرض في غرفة نوم الوزير ، كانت المؤامرة الأخرى قد أوشكت أن تتم فصولها من حيث لا يشعرون . وقد

ليلة في الباستيل

ما كاد الملك لويس الرابع عشر يجد نفسه وحده في الزنزانة التي اغلقت عليه في سجن الباستيل حتى تضعفت حواسه وتملكه اليأس والقنوط ، ثم خيل اليه انه انما انتقل الى عالم الاموات ، وان السرير الذي هبط به في غرفة نومه بقصر المسيو فوكيه وزير المالية لم يكن الا وسيلة ذلك الانتقال ! وكأنما استراح الملك الى ذلك الخيال ، اذ وجد الموت اكرم له واهون عليه من ان يكون حيا فقد عرشه وسلطانه الذي لا يحد ، وزج به في سجن حقيقي يلقي فيه ما لا عهد له به من المذلة والهوان

وبقى هنيهة معلقا بين الوهم والحقيقة ، ثم اخذ يحدث نفسه قائلا : « أهذا ما يسمونه بالعالم الآخر ؟ أهذه جهنم ؟ ! » . ثم اسند ظهره الى الحائط واغمض عينيه ليوهم نفسه انه مات حقا ، لكنه ما لبث قليلا حتى تساءل في فزع : « لو اتنى مت بسقوط أرض الغرفة بي كنت الآن اشعر برضوض مؤلمة على الاقل . واذن لعل الخونة المجرمين قد دسوا لى السم فى بعض الوان الطعام او مزجوه بالشمع لاستنشقه ! »

ثم اعترته رجفة من برودة الجو في الزنزانة ، فقال لنفسه : « لقد رايت أبى مسجى الجسم على فراش الموت مرتدبا ثيابه الملكية ، وكان وجهه الشاحب ينم عن هدوء وسكينة ، كما كانت يداه ممدودتين الى جنبه بلا حس ولا حركة ، وقد جمدت أعضاؤه جمود الموت . ومع هذا كان يبدو كأنما أكسبه جلال الموت مزيدا من جلال الملك ، وكان يخيل الى انه لا يزال على عرشه ، ولم يفقد مثقال ذرة من مكانته ! .. »

وفى هذه اللحظة شعر الملك السجن بحركة غريبة بالقرب منه ، ففتح عينيه واخذ يتطلع حوله مرتاعا . فاذا به يرى فى أحد أركان الحجره فأرا كبيرا الحجم وقف يقضم قطعة خبز مقدد ، ويبادل نظرات الدهشة والارتياح ! ولم يسعه الا ان يتراجع نحو الباب وهو يصرخ على غير وعى منه ، وكأنما كان يحتاج الى هذه الصيحة ليستوثق من أنه لا يزال على قيد الحياة وأنه سجين حقا ، فعاد يصيح قائلا : « أنا سجين ؟ ! .. أجل أنا سجين ! »

ثم نظر حوله باحثا عن جرس يدقه ليدعو احدا اليه ، وما لبث ان قال : « كلا لا توجد أجراس فى الباستيل ! . ولكن كيف سجت ؟ لا شك ان ذلك نتيجة مؤامرة من المسيو فوكيه . لقد استدرجنى الى قصره فى (فو) لهذا الغرض . ولكن لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك وحده . وانى لاذكر الآن

صوت ذلك الرجل المتنكر الذى جاء بى الى هنا . . انه صوت المسيو دربلاى ! . واذن كان كولبير على صواب . لكن ما هو غرض المسيو فوكيه ؟ ابريد ان يجلس على العرش ؟ . كلا ! . هذا محال ! . ومع ذلك من يدري ؟ » وسكت هنيهة مفكرا فى الأمر ثم قال لنفسه : « ربما قام أخى دوق اورليان بالدور الذى حاول عمى ان يقوم به فى حياة أبى . ولكن هل أمى ايضا تأمرت ضدى ؟ . وما هو موقف دى لافالير الآن . لا شك ان هنريتا انتقمت منها شرانتقام . يا لتلك الفتاة المسكينة ! . أجل لا شك انهم سجنوها كما سجنونى ، وهكذا أفترقنا الى الأبد ! »

واخذ يبكي منتخبا بصوت مرتفع ، ولكنه ما لبث قليلا حتى كفكف دمه وقال منفعلا : « ان لهذا السجن محافظا ، فلماذا لا ادعوه الى وأخاطبه فى الأمر ؟ »

وسرعان ما أخذ يصفق رافعا صوته بالنداء ، فلما لم يجبه أحد تملكه الغيظ واخذ يدق باب الزنزانة بيديه ثم بالكروسي الذى كان يجلس عليه . وكان الصدى يردد الضجة الشديدة التى أحدثها ، دون ان يجيبه أحد أيضا ، فاستدل بذلك على قلة المكانة التى له فى الباستيل . ولما خفت سورة غضبه التفت الى النافذة ذات القضبان المتشابكة وقد اخذ ضوء الفجر يتسلل منها الى الزنزانة ، فعاوده الأمل فى اجابة نداءه ومضى يصيح بكل قوته ولكن بلا جدوى ، فغلا الدم فى عروقه وصار يرتجف من فرط الغيظ والغضب لاهماله الى هذا الحد الشنيع ، وهو الذى تعود ان يأمر فيطاع ! . وأخيرا عاد الى الباب السميك المغلق يضربه بالمقعد الثقيل فى عنف ودون هوادة ، الى ان تصبب العرق من جبينه وتحطم المقعد . وهنا سمع اصواتا شتى فجعل ينصت اليها ، لكنها كانت اصوات السجناء الذين كانوا من قبل ضحاياها ، فأصبحوا الآن رفاقه فى السجن ، وكانت تلك الاصوات ترتفع اليه من خلال السقف والجدران السمكية ، وكلها اعتراض على ما أحدث من الضجة . فاستأنف ضرب الباب بقطع الكروسي المحطم ، ولم يكف عن ذلك برغم تعبته الشديد . وبعد حوالى ساعة سمع وقع أقدام فى الردهة ، ثم صوتا وحشيا يصيح به من خلف الباب قائلا :

— هل جنت ؟ . ماذا دهالك لتصبح هذا الصباح ؟

فصاح الملك من داخل الزنزانة قائلا : « أنت المحافظ ؟ »

ورد عليه صاحب الصوت قائلا : « لا شك أنك فقدت عقلك ، ولكن هذا لا يدعو الى كل هذه الضجة ! »

فكرر الملك سؤاله : « أنت المحافظ ؟ » . ولكنه لم يسمع جوابا ، وما لبث هنيهة حتى سمع باب الردهة يفتح ، فأدرك ان السجن عاد من حيث أتى من دون ان يعبا بالرد عليه !

وهنا بلغ غضب الملك أشده ، فاخذ يقفز كالنمر من المنضدة الى النافذة ، ويضرب القضبان الحديدية بأقصى قوته ، وكسر لوح زجاج فسقطت شظاياها

فهز الرجل رأسه أسفا وقال : « نعم سمعت ، وها أنذا أرى بريق الهياج في عينيك مرة أخرى ، ولهذا سأبعد عنك السكين ! »

ثم أخذ السجنان السكين وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه وأوصده بالفتاح ، وخلف الملك وقد زادت دهشته وتعاسته ، ورأى أن من العيث أن يحدث ضجة من جديد ، فاكتمى بأن قذف بآتية الطعام من النافذة !

وبعد ساعتين كان من الصعب على أى إنسان يراه أن يحسبه ملكا أو سيدا مهذبا أو أى آدمى ، فقد أخذ في فورة غضبه يحاول أن يمزق الباب بأظفاره وأن يحفر أرض زنارته ، وارتفع صوته في صيحات أقرب إلى أصوات الوحوش منها إلى أصوات الأدميين !

ولم يجد السجنان داعيا إلى ازعاج المحافظ بإبلاغه أمر هياج السجنين ، ولكن الأمر بلغ إليه من آخرين ، على أنه لم يعره كبير اهتمام ، لأن جنون أحد السجناء كان أمرا مألوفا في السجن ، ولأن جدران السجن وأبوابه ونوافذه أقوى وأمنع من أن يؤثر فيها أى هياج . هذا إلى أن المحافظ لم ينس كلمة قالها له أراميس بشأن هذا السجنين المجنون ، فبقى في جناحه يواصل الراحة من الإفراط في الطعام والشراب ، وكل ما يتمناه أن ينتهى أمر (مرشياي) أو السجنين المجنون ، بأن يقتل نفسه بقوائم سريره أو بأحد قضبان النافذة ، وبذلك يريح ويستريح ، ولاسيما أنه لم يكن مصدر دخل له ، وكان وجوده يضايقه من جميع الوجوه منذ وقوع ذلك الخلط في أمر الإفراج عنه باسم سلدون ثم أعادته إلى السجن وأطلق سراح الأخير . وهذا عدا أن الشبه الشديد بين مرشياي هذا وبين الملك كان وحده يدعو المسيو بيزمو محافظ السجن إلى أن يتمنى له الموت !

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

في فناء السجن ، ثم جعل يصيح بأعلى صوته قائلا : « المحافظ ! المحافظ ! » وظل على هذه الحال زهاء ساعة حتى نال منه الجهد والفيظ والحنق ، وتدلى شعره فوق جبهته وتمزقت ثيابه ، وخارت قواه ، وعندئذ فقط أدرك مدى سمك جدران السجن وأبوابه ، وأيقن الامندوحة عن الاستسلام . فأسند جيئه إلى الباب وترك أعصابه تهدأ تدريجا وخفقان قلبه يخف رويدا . ثم قال يحدث نفسه : « عما قريب يأتون إلى بالطعام كائى سجين ، وعندئذ سأرى إنسانا ما وأحدثه »

وجعل يسائل نفسه عن الموعد الذى يقدم فيه الطعام إلى السجناء ولكنه كان يجهل ذلك ، فشعر بتأنيب الضمير إذ مضى في الملك خمسا وعشرين سنة من دون أن يفكر لحظة في شقاء أولئك الذين خسروا حريتهم ظلما وعدوانا ، وأحس وجهه يحمر من الخجل ، وأدرك أن الله إنما كتب عليه السجن ليذوق عذابه الذى فرضه على الكثيرين . وغمره شعور دينى لكنه لم يجسر على الركوع والصلاة وحدث نفسه قائلا : « ان الله عادل حكيم ، ومن التذالة أن أسأله لنفسى ما آيبت على كثيرين من عباده ! »

وفيما هو في هذا التفكير سمع صوتا يقترب من الباب ثم صرير مفتاح يوضع في قفله ، فمال إلى الامام ليرى الشخص القادم ، ولكنه عاد فرأى ذلك غير جدير بمقام الملك فوقف مكانه في كبرياء وسكون ، وتطلع إلى النافذة لكي يخفى اثر انفعاله على القادم . ولم يكن هذا سوى سجان جاء بسلة بها مؤونة ، فنظر إليه الملك بقلق وانتظر حتى بدأ السجنان الكلام قائلا : « ما هذا ؟ لقد حطمت كرسيك ! لا بد أنك قد أصابك دخل في عتلك ! »

فقال له الملك : « كن على حذر فيما تقوله فقد تكون عواقبه وخيمة عليك ! »

فوضع السجنان السلة على المنضدة ونظر إلى السجنين مليا ، ثم قال : « ماذا تقول ؟ »

فقال له الملك بلهجة الامر : « قل للمحافظ أن يأتى إلى فوراً ! »

فنظر إليه السجنان مشفقا وقال : « مسكين أنت يا ولدى . لقد كنت دائما هادئا عاقلا ، ولكن يبدو أنك بدأت تعمد إلى الشر ، ولهذا أحذرك عسى أن ينفع الحذر . لقد حطمت كرسيك وأحدثت شغبا شديدا ، وهذه جريمة يعاقب عليها بالسجن في زنزانة بالطابق الأرضى . فعدنى ألا تعود إلى مثل ذلك ولك على ألا أبلغ المحافظ شيئا من هذا الذى فعلت ! »

فقال الملك وهو لا يزال متمالكا أعصابه : « أريد أن أرى المحافظ ! »

فقال السجنان : « ان المحافظ سيأمر بنقلك إلى الطابق الأسفل ! »

فحدجه الملك بنظرة قاسية وقال : « انى أصر على رؤية المحافظ ، اسامع أنت ؟ »

وهنا ازدادت دهشة الوزير ، لكنه تماك نفسه وقال : « شكرا لك يا عزيزى على حسن ميولك وجميل عطفك ! »

ولم يخف على دارتانيان ما وراء عبارة الوزير من دهشة لزيارته له في هذا الوقت لغير سبب ظاهر ، في حين أنه في أشد الحاجة الى الراحة . لكنه تجاهل وقال للوزير : « أتريد أن تنام الآن ؟ حسنا يا سيدى !! انك ولا شك قد أقمت للملك مهرجانا رائعا »

فقال له : « يسرنى أن أسمع هذه الشهادة منك يا عزيزى المسيو دارتانيان . هل عهد الملك اليك فى أن تقول لى ذلك ؟ »

فقال دارتانيان فى تواضع : « انه ما كان يختار رسولا قليل المقدرة مثلى ، يا صاحب الفخامة ! »

فرد عليه الوزير قائلا : « انك لا تقدر نفسك التقدير الذى تستحقه يا مسيو دارتانيان » . وبدأ عليه القلق والتبرم باستمرار الحديث فى غير طائل ، وهنا سأله قائد الفرسان وهو يشير الى السرير الذى بالفرفة : « أهذا سريرك الذى تنام فيه . . يبدو أنه مريح ! »

فقال : « أجمل يا عزيزى انه مريح ، وأكبر ظنى أنك غير راض عن سريرك ؟ ولهذا يسرنى أن تأخذ غرفتى هذه »

فقال دارتانيان : « أنا آخذ غرفتك ؟ هذا محال يا صاحب الفخامة ! »

وهنا وقف الوزير يتأمل قائد الفرسان بنظراته الفاحصة ثم قال له : « ماذا أستطيع اذن أن أصنعه لاجل راحتك ؟ »

فتردد قليلا ثم قال : « هل لى أن أطعم فى أن تسمح لى بمشاركتك هذه الفرفة ؟ »

فبدأ الانزعاج فى وجه الوزير وقال : « انك قادم من عند الملك . اليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة »

فسأله : « وهل كلفك الملك أن تقضى الليلة معى فى غرفتى ؟ حسنا يا مسيو دارتانيان . اننى رهن اشارتك ! »

ثم التفت الى خادمه وأمره بالخروج من الفرفة، فلما خرج قال لدارتانيان : « هل لديك شىء تقوله لى ؟ ان هذا واضح يا عزيزى . . اليس كذلك ؟ ها أنذا كلى آذان لسماع ما تقول ! »

فقال دارتانيان : « ليس عندى ما أقوله لك يا صاحب الفخامة ، وكل ما هناك أنى أريد التمتع برفقتك ! »

ففكر الوزير هنيهة ثم قال : « اذن هيا بنا الى الحديقة يا عزيزى ، فالجو هناك أصلح للسهر والسمر ! »

زيارة غير متتظرة

كان دارتانيان لا يزال مضطرب الفكر على أثر حديثه مع الملك ، حتى لقد جعل يسائل نفسه : « أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ وهل صحيح انى فى قصر (فو) . وأن المسيو فوكيه هو صاحب هذا القصر ؟ ! »

غير أن قائد الفرسان الجاسكونى كان كالمهد به رابط الجأش ، يؤمن بأن سيفه كفيلا بإبلاغه ما يشاء ، وعلى هذا راح يحدث نفسه وهو يغادر الجناح الملكى فى طريقه الى غرفة المسيو فوكيه قائلا لنفسه : « يبدو أنى سأغدو ذا شأن كبير فى المستقبل . وسيدكر التاريخ أنى قبضت على المسيو نيكولا فوكيه وزير مالية فرنسا فى قصره والملك ينزل فيه ضيفا مع كل حاشيته . ولسوف يفخر أحفادى بذلك . . لكن : كيف أستطيع تنفيذ هذا الأمر العجيب ؟ ان من السهل أن أذهب الى المسيو فوكيه وأقول له : (سلمنى سيفك يا سيدى !) . ولكن كيف يستطيع انسان أن يضع المسيو فوكيه تحت الحراسة دون أن يدع أحدا يلحظ ذلك ؟ هذه هى المشكلة »

وزاد فى حيرة قائد الفرسان أن ضميره بقى غير مستريح الى قيامه بتنفيذ ذلك الأمر ، فألقى على المسيو فوكيه انما يعنى هلاكه ، فى حين أنه كان حتى هذه الساعة مضيفا كريما ! . ولاح له أن يصارح المسيو فوكيه بما يضمه له الملك ، لكنه عدل عن ذلك لانه لا يتفق وواجبه العسكرى

وكان القصر فى تلك الساعة قد هجع كل من فيه ، وأخذ المسيو فوكيه فى خلع ملبسه الخارجية بمساعدة خادمه استعدادا للنوم ، وشد ما كانت دهشته حين فوجيء بظهور المسيو دارتانيان بباب الفرفة فى تلك الساعة المتأخرة ، فهتف به قائلا :

— ماذا ؟ المسيو دارتانيان هنا ؟ لعلك جئت لكى تنتقد المهرجان ؟ انى اعرف أنك بارع فى النقد !

فدخل المسيو دارتانيان بعد أن انحنى شاكرا وقال : « ليس لى أى ملاحظة على المهرجان ! »

فقال له الوزير : « هل وجد رجالك العناية الكافية ؟ »

فانحنى مرة أخرى وقال : « لقد كانت العناية بهم تامة من جميع الوجوه فابتسم الوزير وسأله متلظفا : « لعلك غير مرتاح الى الفرفة المعدة لك ؟ » فأجاب بقوله : « بل هى غرفة جد مريحة ! »

فقال : « ان الغد لم يأت بعد يا صاحب الفخامة . ومن الذى يدرى ما يأتى به الغد ؟ »

فسأله : « ألا أستطيع أن أتحدث مع المسيو دربلاي الآن ؟ »
فأجاب بقوله : « وأسفاه يا صاحب الفخامة . ان هذا محال . ان لدى أوامر مشددة بالأأ ادعك تتصل بأحد »

فسأله مستنكرا : « حتى ولا بالمسيو دربلاي ، صديقك ؟ »
فأجاب : « ليس المسيو دربلاي وحده هو الذى تمنع من الاتصال به ! »

فاحمر وجه فوكيه من الفيظ وقال : « انك على صواب يا سيدى . لقد لقتنى درسا كان ينبغي لى ألا أنساه . ان الرجل اذا سقط لم يبق له حق حتى عند من كان سبب سعادتهم ، فما بالك بمن ليس له أى فضل عليهم ! وأيا ما كان الأمر فأنا أعترف بأن مسلكك كان دائما جديرا بالاعجاب، وهو المسلك الذى يليق برجل قدر له أن يقبض على . انك أنت على الأقل لم تطلب الى أى يد أسديها اليك ! »

فتأثر دارتانيان بهذه العبارة التى تتم عن الحزن والنبل وقال له :
« يا صاحب الفخامة : انى أطلب اليك جميلا تسديه الى وهو أن تعدنى وعد رجل شريف بالأأ تغادر هذه الغرفة ! »

فهز الوزير كتفيه وقال : « وما فائدة ذلك يا عزيزى المسيو دارتانيان؟
أتحسبنى سأقاوم أبرع سيف فى المملكة ؟ »

فقال : « انى لا أقصد ذلك يا سيدى ، ولكنى أريد أن أذهب الى المسيو دربلاي ، وأن أتركك وحدك . أين هى غرفته ؟ أليس هى الغرفة الزرقاء؟
أحسب أن الذهاب اليها والعودة منها لن يستغرقا أكثر من عشر دقائق ؟ »
تضاف اليها خمس دقائق لا يقاظ المسيو دربلاي من نومه العميق عادة .
وعلى هذا لن أعيب عنك سوى خمس عشرة دقيقة . والآن عدنى وعدا شريفا بأنى سأجرك هنا حين أعود اليك »

وهنا تنهد الوزير ثم قال : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم لبث واقفا ينظر الى قائد الفرسان حتى غادر الغرفة وأغلق بابها وراءه ، ثم سرعان ما أخرج من جيبه بضعة مفاتيح وفتح بها خزائن صغيرة سرية فى بعض قطع الاثاث ، وأخذ يبحث عن أوراق معينة وما لبث قليلا حتى قال لنفسه :
« لعل تركتها فى (سان - مانديه) ، وهذا من سوء الحظ » . ثم أخرج بضعة خطابات وعقود كانت فى احدى تلك الخزائن . وقذف بها كلها فى النار المشعلة بالمدفأة . وبقي ينظر اليها حتى اطمان الى احتراقها تماما ثم ارتدى على احدى الارائك بالضرفة وراح يفكر الى أن عاد اليه دارتانيان فألقت اليه وسأله : « هل قابلت المسيو دربلاي ؟ »

فقال وهو ينظر الى المدفأة ويستنشق رائحة الورق المحترق : « حقا يا صاحب الفخامة ، لا بد أن يكون المسيو دربلاي شغوقا بالرياضة ليلا ،

فقال قائد الفرسان : « ان الهواء هنا على ما يرام ! »
فقال المسيو فوكيه : « اذن . . . لقد جئت لتقبض على !؟ »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ماذا . . . هذا محال يا صاحب الفخامة !
وأقسم بشرفى ما جئت الا لكى أعنى بأمرك ! »

فقال : « تقسم بشرفك !؟ هذا شئ آخر . اذن سيقبض على تحت سقف بيتى ! »

وهنا اقترب منه دارتانيان وهمس اليه قائلا : « أرجو ألا تقول شيئا من هذا »

فقال الوزير محتدا : « بل سأقوله بأعلى صوتى ! »
فقال دارتانيان فى هدوء : « اذن أضطر فى هذه الحالة الى أن أرجو منك السكوت ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « حسنا ! . أتعنى أنه سيستخدم العنف معى هنا فى بيتى !؟ »

فقال دارتانيان : « يبدو أننا لم يفهم أحدنا الآخر تمام الفهم . انى أرى هناك لوحة شطرنج فيها بنا نلعب الشطرنج اذا لم يكن لك غرض آخر ! »

فنظر اليه الوزير معاتبا وقال : « لا تحاول أن تقنعنى بغير الحقيقة يا مسيو دارتانيان ، ان مسلكك يكاد يسبب لى الجنون ، لقد كدت أقع من شدة حاجتى الى النوم ، ولكنك أطرت النوم من عينى ! »

فقال دارتانيان : « اذن . . . لن أغفر لنفسى ذلك . واذا أردت الراحة لك ولى فهيا اذهب الى سريرك »

فسأله : « أنت تعنى طبعاً انى تحت الحراسة ؟ »
وتظاهر دارتانيان بأنه يهجم بالحروج وقال : « طابت ليلتك يا صاحب الفخامة . ها أنذا أغادر غرفتك ما دمت لا تريد أن تصدقنى ! »

وسارع فوكيه الى اللحاق به ثم أمسكه قائلا : « ما دمت تأبى الا أن تعاملنى كما يعامل للصيدا فريسته فانى سأضعك فى مأزق ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « ماذا تريد أن تصنع يا صاحب الفخامة ؟ »
فقال : « سأمر بأعداد جيادى ، لأعود الآن الى بلديس ! »

وقد أراد فوكيه بذلك أن يسبر غور دارتانيان، فلما قال له هذا : « اذن أذهب معك . . . رد عليه قائلا : « فى هذا الكفاية ! . انك قد استأهلت عن جدارة ما اشتهرت به من الحدق والذكاء ، ولكن لا حاجة لك باستخدامهما معى ، ولنتكلم فى الموضوع : لماذا تقبض على !؟ »

فقال دارتانيان : « انى لا أفهم شيئا مما تقول يا صاحب الفخامة ، ولكنى أعود فأؤكد انى لن أقبض عليك ، ليس فى هذه الليلة على الأقل ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « ليس فى هذه الليلة . . . اذن ستقبض على غدا !؟ »

الأمر ، وصدقني أن الملك لا يزال يحبك ، برغم أن المسيو كولبير يبغضك
ويتمنى لك الحراب ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « الحراب ؟ لقد أصابني الحراب قبل أن
يأتيني به يا سيدي ! »

وبدت الدهشة في وجه دارتانيان ، وأخذ يتأمل فيما حو اليه في الغرفة ،
فأدرك فوكيه ما يدور بخاطره وقال له : « لعلك تقول في نفسك : « ان
قصر (فو) هذا يساوي وحده ثروة كبيرة » ، والواقع أنه كذلك ، ولكني لن
أستطيع بيعه يا عزيزي ، لأنه لا يوجد في فرنسا من يشتريه حتى بعشر
ما كلفني تشييده وتأثيثه . كما أنني لا يمكن أن أبيعته ، ولكني أهبك إياه
إذا شئت ! »

فقال دارتانيان : « تهيب لي أنا ؟ بل قدمه هدية للملك ، فذلك خير لك »
فابتسم الوزير وقال : « ان الملك لن يحتاج إلى أن أهديه اليه ، لأنه
يستطيع أن يستولى عليه متى راقه ذلك ، ولهذا أوتر أن أرى القصريتهدم .
أتدري يا مسيو دارتانيان انه لو لم يكن الملك في بيتي الآن لكنت آخذ هذا
الشمعدان وأشعل به صندوقين مملوءين بالألعاب النارية محفوظة بالمخزن
هناك لكي أحيل هذا القصر إلى رماد !؟ »

فقال دارتانيان في هدوء : « على أي حال ، ما كنت تستطيع أن تحرق
الحدائق وهي أجمل ما في القصر ! »

ثم عاد فوكيه يقول : « ومع هذا ما أظن أنني كنت أستطيع حرق قصر
فو هذا أو تدميره ! انه ليس ملكا لي الا من حيث الاستمتاع به لقاء ما أنفقت
في تشييده . أما من حيث الخلود فهو ملك لمن صنعتته أيديهم من كبار
المهندسين والفنانين أمثال : ليرون ولنوتر وبليسون وليفان ولافونتين
وموليير . ان فو ملك للأجيال القادمة يا مسيو دارتانيان وليس ملكا لي ! »

فقال له دارتانيان : « هذه فكرة جميلة جديدة بالمسيو فوكيه ، ولا شك
أنك أنت أيضا ملك للأجيال القادمة ، وعلى هذا لا حق لك في أن تقلل من
قيمتك ، وعليك أن تتلقى كل ما تجيء به الظروف بما هو جدير بك ، هناك
مثل لاتيني يقول : (ان الحاجة تتوج العمل) . وأنا كجندى يسرني أن
أعمل بهذا المثل ، وأن أحرص حين أسقط على أن أسقط واقفا ! »

وهنا قام فوكيه من مقعده وعانق دارتانيان باحدى ذراعيه وضغط يده
باليد الاخرى ثم قال له : « هذه موعظة حسنة يا مسيو دارتانيان ، ولا بد
ان لي مكانة عندك »

فقال دارتانيان : « انها موعظة جندی ، أما مكانتك عندي فهي فوق كل
ما تظن ! »

ففكر فوكيه هنيهة ثم قال له : « أين يمكن أن يوجد المسيو دربلاي ؟
هل لي أن أرجو منك أن تبعث في طلبه ؟ »

فقال : « انك لن ترجو مني ذلك لأنني لن أفعله حتى لا يعلم به أحد ،

فأنا لم أجده في غرفته . ولعله ينظم الأشعار الآن في ضوء القمر بالحديقة
مع بعض شعرائك الاعزاء ! »

فصاح فوكيه مندهشا : « ماذا تقول ؟ أليس أراميس في غرفته ؟ »
فقال دارتانيان : « اذا كان فيها فلا شك أن عنده من الاسباب ما جعله
لا يجيب ندائي ! »

فقال له الوزير : « لعلك لم تتاده بصوت مرتفع »

فابتسم وقال : « أكنت تتوقع يا صاحب الفخامة أنني سأناديه بصوت
يوقظ جميع من في القصر ، فأعطي بذلك فرصة للمسيو كولبير لكي يقول
اني تركت لك وقتا تحرق فيه أوراقك !؟ »

وغمغم فوكيه وهو يحملق فيه بدهشة : « ماذا ؟ أبة أوراق تعني
يا سيدي ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « هذا على الأقل ما كنت أفعله لو أنني كنت في
مكانك ! »

فأيقن الوزير أن قائد الفرسان تركه عامدا ليتيح له تلك الفرصة ،
ونظر اليه شاكرا وقال : « حسنا يا مسيو دارتانيان . أظن أن أراميس
لم يسمع نداءك ؟ »

فقال : « الواقع أن أراميس اما أن يكون قد غادر غرفته ، واما أنه تعمد
ألا يجيب ندائي لسبب أجهله ، ولعلك تجهله أنت أيضا برغم كون أسقف
فان من أتباعك ! »

فتنهذ فوكيه وقام من مقعده ومشى بالغرفة بضع خطوات ، ثم عاد فجلس
مكتئبا ، وهنا قال له دارتانيان وهو يرقبه في أسف وعطف : « لقد رأيت
في حياتي كثيرين يقبض عليهم ، وأرى ألا تكتئب هكذا . تصور أن أصدقاءك
يروذك على هذه الحال فماذا يقولون ؟ »

فأجاب فوكيه وهو يبتسم ابتسامة حزينة : « يا مسيو دارتانيان . .
انك لا تفهمني . اني أبدو حزينا لان أصدقائي لا يرونني . انني لا أستطيع
أن أعيش بمنأى عن أصدقائي ، وقد مضيت حياتي في اصطناع الاصدقاء
ومساعدتهم ورفعهم . وفي وقت الرخاء كانت أصواتهم بمثابة موسيقى
تمتدحني أنغامها . وكلما مسنى ضر كانت تلك الاصوات تنسجم مع
خفقات قلبي ، بل طالما سخروا من شبح الفقر الذي يتهددني وداعبوه في
أشعارهم . وهذا ما جذبني اليهم . اني أرضى الفقر وأقبله لأنه غير العزلة
وغير النفي أو السجن . وهل تراني أعد فقيرا ولي من الاصدقاء أمثال
الشعراء : بليسون ، ولافونتين ، وموليير ؟ ولي صديقة وفية مثل . . .
آه لو علمت ما أشعر به من الوحدة والعزلة في هذه الساعة ! »

فتأثر دارتانيان وقال له : « لقد قلت لك من قبل : انك تعالي في تقدير

وقد يكون في ذلك احراج لاراميس ، ان لم يدخله في نكبتك مع انه لا شأن له بها !

فقال فوكيه : « اذن أنتظر حتى يطلع النهار ؟ »
قاوماً موافقا وقال : « هذا هو الافضل ، واني على استعداد لتنفيذ كل ما تأمر به »

فقال الوزير : « شكرا لك يامسيو دارتانيان ، اننى لا أريد الا أن تكون صريحا معي ، فتخبرني بما أمر به الملك في شأنى »

فتردد قائد الفرسان قليلا ثم قال : « ان موقفك صعب يا سيدي ، من حيث انك تحت سقف بيتك . وثق على كل حال بأني لا أكن لك الا كل الاحترام والتقدير . ولولا هذا ما كان أسهل على من أن أتى الى غرفتك هذه بعد انصراف أصدقائك ، أو بعد القبض عليهم حين يخرجون واحدا اثر واحد ، ثم أفاجئك وأضع يدي عليك وأججرك حتى يتناول الملك طعام فظوره في الصباح ، وفي هذه الحالة أكون أيضا قد تفاديت كل ضجة ممكنة . ولكن في هذه الحالة لا يكون هناك تحذير للمسيو فوكيه ولا مراعاة لشعوره . وما أحسب أنك ترضى عن مثل هذه الحطة »

فقال له الوزير : « حقا . . انها تجعلنى أرتجف ! . ولو أن ذلك حدث لكان فيه الموت المحقق لى تأثرا بالحزى والعار ، ولهذا أكرر لك شكرى »
فقال دارتانيان : « انك نبيل حتى فى عرفانك بالجميل ، على أنى فى الواقع لم أفعل ما يستحق . . . »

فقطع كلامه قائلا : « بل الشكر كله لا يفي بحقك يا مسيو دارتانيان ! »
فقال : « حسنا يا صاحب الفخامة . . وما دمت راضيا عن موقفى ، وقد استعدت رباطة جأشك بعد الصدمة التى هبأتك لها قدر امكاني ، فلنمض الساعات القليلة الباقية فى هدوء . انك متعب وتحتاج الى ترتيب أفكارك ، ولهذا أرجو منك أن تأوى الى سريرك لكى تنام أو تتظاهر بالنوم . أما أنا فسأنام على هذا الكرسي ذى الذراعين ، ومتى نمت فلن يوقظنى قصف المدافع ! »

فابتسم فوكيه ، بينما استطرد دارتانيان قائلا : « على أننى يوقظنى مثلا فتح باب سرى ، أو خروج أحد من الغرفة أو دخول أحد فيها . . واذن تستطيع يا سيدي أن تتحرك فى الغرفة كما تشاء ، وأن تكتب أو تحو ما هو مكتوب »

فقال الوزير : « انك ولا ريب أكثر الناس ذكاء ومعاملة . ولست أسفا على شيء الا على أنى لم أعرفك على حقيقتك الا بعد فوات الوقت ! »
فتنهذ دارتانيان أسفا ثم جلس على كرسيه بينما تمدد فوكيه على سريره وأخذ يفكر فى حالته . وبقي هكذا حتى طلع الفجر . ولم يكن هناك أى صوت يعكر سكون القصر ، أما فى خارجه فكان حراس الشرف والديديانات يؤدون واجبهم راثنين غادين !

وفاء وزير

بينما كان الملك لويس الرابع عشر يحاول أن يحطم قضبان النافذة فى زنايته فى سجن الباستيل ، كان فيليب شقيقه التوأم الذى غادر هذه الزناينة نفسها منذ أيام قد استقر على السرير الوثير الذى أعد لنوم الملك فى قصر المسيو فوكيه ، وما لبث قليلا حتى هبط منه ووقف بجانبه يتأمل فى غبطة ما يحيط به من مظاهر البذخ والترف ، وأخذ يفكر فى الدور الذى عليه أن يمثله

وامتقع وجهه حين وقعت عينه فوق السرير على منديل كان أخوه الملك السجين قد تركه فوقه حين هبط به الى القبو ، وقال فيليب يحدث نفسه : « اننى الآن أواجه المستقبل المقدر لى . وشدما أخشى أن يكون شرا من الأسر الذى كنت فيه ، لأن هذه السلطة التى اغتصبتها بدأت ترعج ضميرى »

وتردد حينما فى أن يعود الى السرير ، أو يمسك بالمنديل الذى عليه شعار أخيه ، لكنه ما لبث أن قال لنفسه : « لماذا لا أقتدى بالمسيو دربلاي الذى لا يفكر الا فى نفسه ولنفسه ويحسب نفسه رجلا شريفا ما دام لا يضر غير أعدائه وحدهم ؟ . ان هذه السلطة التى آلت الى كان ينبغي أن تكون لى منذ سنين لولا أن وقف أخى فى طريقى وساعدته أُمى بلا شفقة ولا رحمة ، وهذا المنديل الموشى بشعار فرنسا ما كان لويس يستأثر به لو اننى تركت بالهدى ولم أذهب ضحية تلك المؤامرة الدنيئة ! »

وهكذا عاد فيليب الى السرير فتمدد فيه ، متأملا فى اعجاب تاج فرنسا المعلق فوقه تحمله ملائكة بأجنحة من ذهب . على أن الانسان الذى يتوق الى أن ينام فى عرين الاسد ، لا يكون فى مقدوره غالبا أن ينام فيه نوما هادئا . . وهكذا بقى فيليب يقظان يصفى الى كل صوت ، وقلبه يخفق من توقع أى خطر . غير أنه كان واثقا من قوة ارادته التى تؤيدها عزيمة أقوى ، ولما اقترب الصبح ، لم يدهشه أن ظهر اراميس فجأة أمامه فى الغرفة فقد كان يرتقب حضوره ، وسرعان ما هتف قائلا : « عم صباحا يا مسيو دربلاي »

فقال اراميس : « عم صباحا يا مولاي ، لقد تم كل شيء كما نريد ! »
فسأله : « ألم يبد أية مقاومة ؟ » . فأجاب بقوله : « لم يقاوم الا بالدموع والتوسلات ثم استسلم فى ذهول ! »

فقال الأمير : « ومحافظ الباستيل ؟ .. ألم بيد أي ارتياب ؟ » . فقال
أراميس : « كلا ! وقد اتخذت الأهبة لكل أمر . وبعد بضعة أيام ، أو ربما
أقرب من ذلك ، سنخرج السجن من سجنه ونرسله الى مكان منعزل في
الريف ، لن يعود منه مدى الحياة ! »

وعندئذ نظر كل منهما الى الآخر نظرات ذات معنى ، ثم أراد فيليب أن
يغير موضوع الحديث فقال : « والمسيو دى فالون ؟ »

فقال أراميس : « سينشرف اليوم بمقابلة جلاتك ليهنك على نجاتك
من الخطر الذي واجهك به ذلك المتآمر ! .. وحينئذ تمنحه جلاتك الدوقية
التي يحلم بها ، وبذلك لا يلبث قليلا حتى يقتله فرط الفرح ، فأفقد بذلك
زميلا قديما وصديقا حميما ، وفي الوقت نفسه يدفن معه السر الذي
وقف عليه ! »

وكان الفجر قد انبثق فقال أراميس : « ان جلاتك قبل ان تأوى الى
فراشك قررت ان تفعل شيئا عند طلوع الفجر »

فقال فيليب : « نعم يا عزيزي ، لقد أمرت قائد الفرسان أن يوافيني
عند طلوع الفجر . وها أنذا أسمع وقع خطاه في الردهة . انه محافظ على
المواعيد حقا ، وسنبدا العمل الآن »

فقال له أراميس : « ان دارتانيان لا يعرف شيئا ولم ير شيئا ، ولذلك
لا يداخله أي ارتياب فيما حدث . ولكنه اذا كان أول انسان يدخل هذه
الغرفة في هذا الصباح فانه لا بد سيشتبه في شيء ما فيشغل نفسه به .
وقبل ان نسمح لدارتانيان بدخول هذه الغرفة يجب ان نجدد هواءها تماما
أو نسمح بدخول عدة اشخاص فيها حتى تختلط الرائحة على ادق أنف
في المملكة ! »

فسأله فيليب : « لكن كيف أبعده مع أنى أمرته بالمجيء عند الفجر ؟ »
فقال أراميس : « سأتولى هذا الأمر وسأبدا بضربة تذهله ! »

وكان دارتانيان قد وصل الى الباب ونقر عليه معلنا قدمه ، بعد أن
ترك المسيو فوكيه في غرفته ينتظر عودته اليه بما يأمر الملك في شأنه ، كما
ينتظر أن يبعث اليه بأراميس اذا وجده في طريقه الى جناح الملك ، بعد أن
تعهد الوزير بالا يحاول الفرار

ولم يدهش دارتانيان حين فتح باب غرفة الملك عقب نقراته الخفيفة ،
فقد كان على يقين من أن الملك لن يستطيع النوم نظرا الى حالة الهياج التي
تركه فيها أمس . ولكنه ما كاد يهم بالتحية العسكرية للملك عقب فتح
الباب ، حتى فوجيء بأن الذي فتحه ليس هو الملك ، ولكنه أراميس بقامته
المديدة وملامحه الهادئة . فصاح قائلا : « أراميس ؟ ! .. أكنت هنا اذن ؟ »
فرد عليه الأسقف قائلا في برود : « عم صباحا يا عزيزي دارتانيان . ان

صاحب الجلالة يرغب اليك ان تعلن انه لا يزال نائما بعد ان تعب الليلة
الماضية »

ولم يستطع قائد الفرسان أن يفهم سر وجود أراميس في غرفة الملك ،
ولاسيما انه لم يكن من المقربين اليه

واستطرد أراميس فقال : « أرجو يا كابتن ألا تدع أحدا يدخل عند
الملك في هذا اليوم ، الا من حدد له موعد للمقابلة »

فقال دارتانيان : « يا سيدي الأسقف ، ان جلالة الملك حدد لي موعدا
هذا الصباح »

وفي هذه اللحظة نفسها سمع دارتانيان صوتا ينبعث من داخل الغرفة
قائلا : « فيما بعد يا مسيو دارتانيان ! » . فلم يشك في أنه صوت الملك
لشدة التشابه بين صوت الملك وصوت شقيقه التوأم . وهكذا لم يسع
دارتانيان الا أن انحنى وهم بالانصراف وهو ما زال في دهشة . ثم قال له
أراميس وهو يتسهم : « أما جواب ما جئت تسأل الملك عنه فاليك يا عزيزي
دارتانيان أمرا من صاحب الجلالة أرجو العناية بتنفيذه لانه يتعلق بالمسيو
فوكيه ! »

فتناول دارتانيان الأمر وقراه وما لبث أن تعتم قائلا : « يفرج عنه ؟ ! »

وحدث دارتانيان نفسه قائلا : « هذا هو سبب وجود أراميس عند
الملك ، ترى كيف اكتسب هذه الحظوة الكبيرة عنده ، حتى أغراه بالافراج
عن المسيو فوكيه ، بل حتى صار واسطة لابلاغ أوامر الملك ؟ »

وانحنى دارتانيان تحية لأراميس ، ثم هم بالانصراف ولكن أراميس
قال له :

— انتظر يا عزيزي ، سأتى معك الى المسيو فوكيه ، فاني أريد أن أكون
شاهدا على سروره !

وهنا قال له دارتانيان : « آه يا أراميس ! شدما حيرتني ! »
فابتسم هذا وقال له : « والآن أحسبك تفهمنى ؟ .. »

فقال : « بالطبع أفهمك كل الفهم ! » . ثم قال لنفسه : « كلا ! لم أفهم
شيئا بعد ، ولكن على أي حال ها هو ذا أمر الافراج عن المسيو فوكيه .
ثم سار مع أراميس الى الغرفة التي حجز بها الوزير . وكان هذا ينتظر
في قلق ، وقد تخلص من خدمه وأصدقائه الذين كانوا يعرفون ساعة
الاستقبال عنده فجاءوا لتحيته والاطمئنان على صحته . وقد كتم عنهم
المركز الذي هو فيه والخطر الذي يهدده ، وانما صار يسأل كل واحد منهم
من خلف الباب : « أين أراميس ؟ » . ولما رأى دارتانيان يعود اليه ، ومن
ورائه أراميس ، لم يستطع أن يخفي سروره برؤية صديقه الأسقف ،
وكانما وجد فيها عوضا عما قاساه منذ الليلة الماضية . وكان أراميس ساكنا

جاد الهيئة فقال فوكيه لدارتانيان : « ها قد أحضرت معك المسيو
دربلاى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحضرت معى شيئا ادعى الى السرور يا صاحب
الفخامة ! »

فسأله فى لهفة : « ماذا أحضرت ؟ » . فأجاب : « الحرية ، وبأمر من
الملك ! »

فاستعاد فوكيه سمت الرزانة ، ونظر الى اراميس نظرة تساؤل فقال
له دارتانيان : « أجل يا صاحب الفخامة ، ان الفضل فى ذلك لاسقف فان ،
فهو الذى استطاع أن يغير رأى الملك ! »

فشعر فوكيه بالمهانة لهذا الفضل اكثر من شعوره بعرفان الجميل ،
ولم يقل شيئا

ثم قال دارتانيان لاراميس : « ألا تودى لى خدمة يا صديقى القديم ؟ »
فقال اراميس : « أى شىء تريده يا صديقى ؟ »

قال : « أريد شيئا واحدا فقط ، هو أن تخبرنى كيف استطعت أن
تكسب الخطوة عند الملك ، أنت الذى لم تحدته طول حياتك سوى مرتين ؟ »

فابتسم اراميس وقال : « لست أستطيع أن أخفى شيئا على صديق
منلك . انك تظن أنى لم أقابل الملك الا مرتين ، ولكن الحقيقة أنى قابلته
اكثر من مائة مرة غير أننا كنمنا نأ هذه المقابلات عن الجميع ، وهذا كل
ما فى الأمر ! »

ثم التفت اراميس الى فوكيه ، وكان لا يقل دهشة عن دارتانيان ، وقال
له : « يا صاحب الفخامة . . ان الملك طلب الى أن أخبرك أن مودته لك أشد
منها فى أى وقت مضى ، وان المهرجان الجميل الذى أعدته له بهذا السخاء
قد اثر فى نفسه تأثيرا عميقا »

وشعر دارتانيان بأن الوزير والأسقف يريدان أن يتحدثا على انفراد ، فهم
بالانصراف غير أن فضوله تغلب على أدبه ولطفه فظل فى مكانه ، وعندئذ
التفت إليه اراميس وقال له بصوت هادىء : « أرجو يا صديقى ألا تنسى أمر
الملك بشأن من يريد استقبالهم صباح اليوم حين يصحو من نومه »

وكانت هذه الكلمات واضحة المعنى فانحنى دارتانيان محييا المسيو فوكيه
ثم اراميس وخرج من الغرفة وحينئذ أسرع فوكيه فأوصد الباب ، ثم عاد
الى الأسقف وقال له : « يا عزيزى دربلاى ، أحسب أنه قد حان الوقت
لكى تشرح لى ما حدث ، لأنى فى الحق لم أفهم شيئا »

فجلس اراميس وقال له : « سأوضح لك كل شىء . لكن ألا تخبرنى
اولا : لماذا أمر الملك بالقبض عليك ؟ »

فقال الوزير : « اعتقد أن الغيرة هى السبب ، فان نجاح المهرجان أفقد

كولبير عقله فيما يظهر ، فامعن فى الدس والوشاية ، ولعله استغل (بيل -
ايل) ليغضب على الملك »

فابتسم اراميس وقال : « ان (بيل - ايل) لا شأن لها بهذا الموضوع ،
هل تذكر الأوراق التى فقدتها وكانت خاصة بالملايين الثلاثة عشر التى
سددها لرئيس الوزراء الراحل مازارين ؟ . ان كولبير أتهمك باختلاس هذه
الملايين من أموال الدولة ! »

فتمتم الوزير قائلا : « رياه ! » . بينما واصل اراميس كلامه قائلا :
« ليس هذا كل ما فى الأمر ! . هل تذكر أيضا الخطاب الذى كتبتة الى
الآنسة دى لافالير ؟ »

فقال الوزير متزعجا : « ماذا ؟ . هل وقع هذا الخطاب فى يد كولبير ؟ »
فقال اراميس : « واعطاه للملك أمس ليثبت له أنك خنته هو نفسه
بمحاولة اغواء خليلته ! »

فعض فوكيه على شفثيه من الغيظ وقال : « أذن كيف عفا الملك عنى بعد
هذا كله ؟ ! »

قال : « لم نصل بعد الى هذه النقطة . . ان الملك قد علم أنك اختلست
أموالا عامة . ولم ير المستندات التى تنفى وقوع هذا الاختلاس . كما أنه
قرأ الخطاب الذى كتبتة الى دى لافالير فلم يبق له شك فى صحة كل
ما بلغه عنك ، وهكذا ترى الى أى حد بلغ غضبه عليك ! »

فقال فوكيه : « هذا مفهوم ، ولكن ما الذى جعل الملك يحجم عن البطش
بى برغم ذلك كله ؟ »

فقال اراميس فى هدوء : « ان الملك لم يحجم عن البطش بك ! »
فسأله متعجبا : « كيف ؟ . . اليس قد صفح عنى ؟ وهو الذى كلّفك أن
تقول لى ما قلته ؟ »

فسكت اراميس قليلا ثم قال : « الواقع يا عزيزى ان الملك لم يكلفنى
أن أقول لك أى شىء ! »

فبدأ الانزعاج فى وجه الوزير وقال له : « انك تقتلنى بهذه الألفاظ
يا دربلاى . . وانى استحلفك بصدقتنا وبالخلف الذى بيننا ، وبكل ما هو
عزيز عليك فى العالم ، أن تخبرنى فى صراحة كيف استطعت أن تجعل لويس
الرابع عشر يصفح عنى ؟ . انى أعرف أن الملك لم يكن يميل اليك ، وصحيح
أنك رجل ذو ذكاء خارق ، ولكن هناك سرا ولا شك فى هذه المسألة ، فهل
لك أن توضح لى هذا السر ؟ »

فسكت اراميس لحظة ليجمع شتات فكره ثم قال : « أتذكر ميلاد لويس
الرابع عشر ؟ أعنى ألم تسمع بشىء معين عن ميلاده ؟ »

فقال فوكيه : « أتقصد أنه لم يكن حقا ابن لويس الثالث عشر ؟ »
فقال اراميس : « هذا لا يهمنا ولا يهم المملّكة . انه ابن أبيه كما يقول

القانون الفرنسي ، ولكنى أقصد هل سمعت شيئاً غريباً بشأن ميلاده ؟
فسكت الوزير وبقي ينظر حائثاً الى أراميس ، وواصل هذا كلامه فقال :
فقال :

— من هنا يبدأ السر الذى آتته . ان الملكة لم تلد طفلاً واحداً بل وضعت
توأمين !

فقال فوكيه : « اعرف هذا ، وقد مات التوأم الثانى »

فقال أراميس : « كلا ! كل ما هناك ان لويس الثالث عشر خشى لضعفه
وتعلقه بالخرافات ان يقوم نزاع بين الأخوين التوأمين لتساوى حقهما في
وراثة العرش ، ولذا أزاح أحد التوأمين من الطريق وألغى وجوده ، فجلس
أخوه على العرش وحده وكنت أنت وزيره بينما بقى الآخر — وهو صديقى —
مغموراً في عزلة عن العالم ، اذ نشأ في الريف ثم زج به في قلعة الباستيل ! »
فصاح الوزير قائلاً : « أهذا ممكن ؟ » . ومضى أراميس في كلامه قائلاً :
« نعم يا عزيزى فوكيه . ان أحد التوأمين كان أسعد الناس ، وكان الآخر
اشقاهم وأتسهم ، ولكن العناية الإلهية تداركته أخيراً ! »

فاشتد اهتمام فوكيه وسأله : « كيف كان ذلك ؟ ان هذا الامر عجيب
حقاً ايها العزيز ! »

فقال أراميس : « أنت توافقنى طبعاً على ان وراثة العرش كانت حقاً ثابتاً
للتوأمين معاً لأنهما بمثابة شخص واحد في جسدين ، وقد حرم أحدهما
من حقه هذا ظلماً وعدواناً ، ثم شاء الله فبعث لهذا المظلوم نصيراً يرد إليه
حقه المغتصب . واحسبك تقرنى على ان من الإغتصاب ان يستحوذ انسان
على حق كامل في الميراث مع ان له نصف هذا الحق فقط ؟ »

فقال فوكيه : « أجل انه اغتصاب لا شك فيه ، فامض في حديثك »

فقال أراميس : « في هذه الحالة أستمر في كلامى . لقد شاءت ارادة الله
ان يكون لذلك الغاصب وزير أول ذو كفاية عالية وطبيعة سمحة »

فقال فوكيه : « حسناً ! . لقد اعتمدت على اذن لكى أصلح الظلم الذى
وقع على ذلك الأمير البائس الشقيق التوأم للملك لويس الرابع عشر ؟ »

فقال له أراميس : « كلا . ليس الأمر كما تظن : ان الملك الغاصب
غضب على وزيره الأول فحاجه فصار هذا مهدداً بالخراب وبفقد حريته وربما
بفقد حياته نفسها ، كل ذلك من جراء دسائس ووشايات استمع لها
الملك . ولكن شاء الله ان يكون للمسيو فوكيه صديق مطلع على ذلك السر
الخطير ، وأن يكون لذلك الصديق من القوة والشجاعة ما جعله يبوح بذلك
السر بعد ان كتبه في مكنون صدره عشرين عاماً ! »

فقال فوكيه : « أنتى أفهمك الآن . لقد ذهبت الى المليك حين علمت بنياً
القبض على ، فلما رفض الإفراج عنى هددته بذلك السر وأندرته بأن تفضيه ،
وبذلك قبل تحت تأثير الخوف ما أباه بدافع المروءة . اليس الامر كذلك ؟ ! »

فقال أراميس : « انك لم تفهم شيئاً بعد ، لأنك تغفل أهم نقطة ارتكزت
عليها في بدء حديثى ! . . ولو أنك كنت منطقياً في تفكيرك الآن لأدرت ان
افشاء هذا السر للملك لا يمكن ان تكون نتيجة أقل من قتل مفشيه أو
الزج به في السجن الى الأبد ! »

وكان الأسقف يتكلم بمثل الحماسة التى كانت له حين كان أحد الفرسان
الأربعة المشهورين ، فأحس فوكيه رعدة بالرغم منه . ثم استطرد أراميس
فقال : « ما كان لى ان أعرض نفسى لهذه النتيجة ، وهل تظن ان الملك الذى
انفضك وقرر الانتقام منك لأنك فيما يعتقد اختلست أمواله او كتبت الى
المرأة التى يحبها ، لن يكون أقل غضباً وانتقاماً ممن يهدد تاجه وشرفه ! »
فقال له فوكيه : « اذن أنت لم تكشف للملك عن ذلك السر ؟ . . ماذا
فعلت اذن ؟ »

فقال أراميس : « حسناً ! . . لقد وصلنا الى بيت القصيد يا صاحب
الفخامة » . ثم ادار عينيه في الغرفة ليستوثق من أنه وحده مع الوزير فلما
اطمأن الى ذلك جلس بجانبه واستأنف كلامه قائلاً :

— نسيت ان أخبرك بشيء عجيب عن لويس الرابع عشر وأخيه التوأم . .
ان الخالق جعلهما متشابهين الى حد يعجز معه أى انسان عن تمييز أحدهما
من الآخر . ولعل أهمهما نفسها لا تستطيع ذلك ! أجل يا عزيزى فوكيه .
ان لكل منهما مثل ملامح وجه الآخر وقامته وصوته !

فتتمم فوكيه قائلاً : « ولكن أفكارهما وحظ كل منهما من الذكاء ؟
ومعرفتهما بالحياة البشرية ؟ »

فقال أراميس : « اعتقد يا صاحب الفخامة ان سجين الباستيل البائس
المظلوم يكون أبل وأذكى من تولوا ملك فرنسا منذ بدء تاريخها ! »

فاخفى فوكيه وجهه براحتيه ، بينما اقترب منه أراميس وقال له :
« هناك شيء آخر لم يتشابه فيها . شيء يخصك أنت يا عزيزى فوكيه ! . .
ان ذلك الآخر السجين لا يعرف المسيو كولبير ! »

فرفع فوكيه رأسه بفتة وقال له : « انى أفهم ما ترمى اليه . انك تعرض
أحدى تلك المحاولات التى قد تغير مصائر الممالك ؟ ! »

فاوماً أراميس موافقاً وقال : « ومصير وزير المالية كذلك يا صاحب
الفخامة ! »

فقال فوكيه : « فلنختصر يا أراميس . . انك تعرض على الموافقة على
استبدال ابن لويس الثالث عشر الذى هو الآن سجين الباستيل بانه الآخر
الذى ينام الآن في غرفة مورفيوس اله النوم والأحلام . فهل فكرت في أننا
للوصول الى هذه الغاية ينبغي لنا ان نجتمع النبلاء والقساوسة وممثلى
الشعب ، وفي أننا اذ نخلع الملك الحاكم نثير فضيحة تزجج الملك الراقد في

قبره ونضحى حياة الملكة آن وشرفها ، وحياة امرأة أخرى هي ماريما تيريزا ؟ »

فقال أراميس بتؤدة : « لست أجد في كل ما قلته كلمة واحدة ذات فائدة »

فدهش الوزير وقال : « ماذا تقول ؟ . أرجل مثلك يابى أن يرى النواحي العملية في هذا الأمر الجليل ؟ . أنتحصر تفكيرك في سرور كسرور الاطفال يبعثه في نفسك وهم سياسي ، وتفغل عن التفكير في امكان تنفيذه أو استحالته ؟ . اتفغل عن الحقيقة والواقع ؟ »

فقال له أراميس : « يا صديقى العزيز .. ماذا تفعل العناية الالهية لاببدال ملك بأخر ؟ »

قال : « انها تبعث اداتها لقبض روح فريستها ثم تجلس الملك الآخر على العرش الذى خلا من صاحبه . اليس الأمر كذلك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا مجال لذلك يا صاحب الفخامة . انك تخرج عن الموضوع . من ذا الذى ذكر موت لويس الرابع عشر ؟ أو تحدث عن الاقتداء بالعناية الالهية في تنفيذ أوامرها ؟ . كلا ! . انى أريد منك ان تفهم أن الله يحقق مشيئته دون خلل أو اضطراب ، ودون اثاره أى تعليق أو اية ملاحظة ودون مشقة أو اجهاد ، وأن تدرك أيضا ان الناس الذين أوتوا الهاما ربانيا ينجحون كما تنجح العناية الالهية في كل ما يحاولونه وما يباشرونه ! »

فسأله فوكيه : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « اعنى يا صديقى انه اذا كان هناك أى خلل أو اضطراب أو فضيحة بل أى مجهود فى استبدال السجين بالملك فإنى أتحداك أن تبرهن عليه ! »

فشحب وجه فوكيه حتى صار كوجوه الأموات وصاح فى دهشة : « ماذا تقول ؟ ! »

فقال له أراميس فى هدوء : « اذهب الى جناح الملك - أنت الذى تعرف السر الآن - واتحداك أن تلاحظ أن سجين الباستيل هو النائبم الآن فى سرير اخيه ! »

فتمتم فوكيه وقد تولاه الغزع الأكبر : « ماذا ؟ . وأين الملك ؟ ! »

فأجاب أراميس بأرق لهجة : « أى ملك ؟ . الملك الذى ييفضك أم الملك الذى يحبك ؟ . ان ملك الأمس قد ذهب ليحتل مكان اخيه بالباستيل ! »

فصاح فوكيه فى جزع : « رباه ! . ومن الذى أخذه الى هناك ؟ »

فقال أراميس هادئا : « أنا الذى توليت هذه المهمة ، وقد نقلته بأسطر طريقة الى الباستيل ليلة أمس ، وبينما كان يهبط الى الظلام كان الآخر يرتفع الى النور . وما أحسب أنه حدث أى اضطراب من جراء هذه الطريقة . ان وميض البرق الذى لا يصحبه رعد لا يوقظ أحدا ! »

فصاح فوكيه كأنما تلقى ضربة قاتلة وقال : « أنت فعلت هذا ؟ ! »

- أجل وببراعة تامة . ما رأيك فى ذلك ؟

- أنت أنزلت الملك عن عرشه ؟ وسجنته أيضا ؟

- أجل لقد تم ذلك !

- ومثل هذا العمل قد ارتكب هنا فى فو ؟ فى بيتى ؟

- أجل هنا فى فو . فى غرفة مورفيوس اله النوم ، لكأنما شيدت خصيصا توقعا لهذا العمل !

- ومتى حدث ذلك ؟

- بين الساعة الثانية عشرة والساعة الاولى صباحا !

فأثنى فوكيه بحركة كأنه يريد أن ينقض على أراميس ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت مخنوق : « هنا فى فو ؟ وتحت سقف بيتى ؟ ! »

- أعتقد ذلك ، لأنه لا يزال بيتك وأحسبه سيظل بيتك أيضا . لان المسيو كولبير لن يستطيع أن يسلبك اياه الآن !

فصاح فوكيه : « أتحت سقف بيتى ارتكبت هذه الجريمة ؟ »

فقال أراميس بدهول : « الجريمة ؟ . أتسمى ذلك جريمة ؟ »

فاستمر الوزير فى كلامه قائلا : « أجل هذه الجريمة الشنعاء ! . هذه الجريمة المقفوتة التى تجاوز الاغتتيال فى بشاعتها . هذه الجريمة التى تصم اسمى بالعار الى الأبد وتجر على لعنة الاجيال القادمة ! »

فقال له أراميس مترددا : « انك لست فى وعيك يا سيدى . انك تتكلم بصوت مرتفع . احذر ! »

فقال فوكيه : « بل سأصيح بأعلى صوتى حتى يسمعنى العالم كله ! . لقد لوثت شرفى اذ ارتكبت هذه الحيانة الدنيئة ، وأثيت هذا الجرم الشائن ، نحو ضيف كان ينام هادئا مطمئا فى بيتى . آه . الويل لى ! »

- بل الويل للرجل الذى أراد لك الحراب وربما الموت نفسه وهو تحت سقف بيتك . هل نسيت ذلك ؟

- لقد كان ضيفى . وكان ملكى !

فقام أراميس وقد احمرت عيناه وارتعشت شفاته وقال له : « هل أنا أحدث رجلا مالكا قواه العقلية ؟ »

فقال له فوكيه : « انك تحدث رجلا شريفا . رجلا لا يمكن الا أن يحول بينك وبين الاستمرار فى هذه الجريمة ! »

وحاول أراميس أن يسبكته قائلا : « انك مجنون اذ ترفع صوتك هكذا ! . ولكن الوزير استمر قائلا وقد اشتدت حدته : « نعم انك تحدث رجلا يؤثر أن يموت أو يقتلك على أن يدعك تكمل هذا العار الذى جلبته عليه ! »

فأخرج أراميس يده التي كان قد أخفاها ، فإذا هي ملوثة بالدم إذ كان قد غرس أظافرها في لحمه كأنها يعاقب نفسه على أن فكر في مشروع لا يقل عبثاً وزوالاً عن حياة الانسان نفسه ، ففزع فوكيه حين رأى تلك اليد وامتلاً قلبه شفقة وفتح ذراعيه يريد أن يعانقه ، وعندئذ تتم أراميس قائلاً : « ليس معي سلاح » . ولم يلمس يد فوكيه وإنما أدار رأسه وتراجع خطوة أو خطوتين وكانت أخرى كلماته لعنة وجهها الى فوكيه . وسرعان ما صب على وجهه بضع نقط من الدم الذي يسيل من صدره . ثم خرج كلاهما من الغرفة من طريق السلم الخفي الذي يقود الى فناء الدار . وأمر فوكيه بإعداد أحسن جواده بينما وقف أراميس عند أسفل السلم المؤدى الى غرفة بورتوس . وجعل يفكر تفكيراً عميقاً على حين كانت عربة فوكيه تخرج من الدار بأقصى سرعتها !

وقال أراميس يحدث نفسه : « أذهب وحدي ؟ أم أحذر الأمير ؟ يا للجنون ! .. أحذر الأمير ثم ماذا ؟ آخذه معي ؟ أأصحب معي هذا الشاهد على في كل مكان ؟ ان الحرب لا بد أن تتبع ذلك ، الحرب الداخلية التي لا يخمد لها أوار ؟ ودون أي مورد أنقذ به نفسي ؟ ان هذا محال ! وماذا يستطيع أن يفعل هو ؟ انه سيهلك ولا ريب . ومع هذا من يدرى ؟ ليجز القدر مجراه . لقد حكم عليه بالسجن فليبق كذلك . أيها الروح الطيب أو السيء ، أيتها القوة القاتمة المزدهرة التي يسمونها العبقرية : انك قوة أكثر قلماً وأقل ثباتاً وأعطل نفعا من الريح السائبة في الجبال ! انك تلهين كل شيء بأنفاسك ، وتسحقين الجبال بقربك ، ولكنك لا تلبثين قليلاً حتى تقضى على نفسك أمام صليب من الخشب الميت ، تقف وراءه قوة غير مرئية مثلك ، وربما تنكرينها ولكن يدها الناقمة مبسوطة فوقك ، تطوح بك في الرغام موصومة بالعار والشنار ! لقد ضمت ! نعم لقد ضمت ! .. ما الذي يمكن عمله ؟ أفر الى (بل - أيل) وأترك بورتوس خلفي يتحدث عن المغامرة مع كل انسان ؟ ان بورتوس أيضاً سيقاسى من جراء ما عمله ولن أدع بورتوس المسكين يتألم ، انه يبدو كعضو من أعضاء جسمي . ان بورتوس سيذهب معي الى حيث نتبع ما قدر لنا . يجب أن يكون الأمر كذلك ! »

وخاف أراميس أن يصادف أحداً فيرتاب في سرعة حركاته ، وصعد الدرج دون أن يراه أحد . وكان بورتوس في سبات عميق وقد نسي جسمه الضخم تبعه كما نسي ذهنه أفكاره

ودخل أراميس غرفته خفيف الخطى كالظل ووضع يدا مرتعشة على كتفه وأخذ يوقظه ، ففتح المارد عينيه وقام من سريره تلبية لطلب صاحبه دون أن يفقه شيئاً . وقال له أراميس : « قم اننا ذاهبان من هنا ! سنركب جوادين بسرعة لم نركب بها قبلاً في حياتنا ! فهيا ارتد ثيابك يا صديقي ! » ثم ساعده في ارتداء ملابسه ، ووضع ذهبه وجواهره في جيبه . وفيما

واستل فوكيه سيفه الذي كان دارثانيان قد وضعه عند رأس سريره وأمسكه بيده في حزم . فقطب أراميس ومد يده الى صدره كأنها يبحث عن سلاح . ولم تفت فوكيه هذه الحركة وهو الذي يفيض نبلاً وكبرياءً فقدف بسيفه بعيداً واقترب من أراميس حتى لمس كتفه وقال له : « يا سيدي .. اني أفضل الموت على الحياة بعد هذا العار ، واذا كانت لديك بقية من الشفقة على فأرجو أن تنهي حياتي ! »

وبقى أراميس ساكناً بلا حراك ، فعاد فوكيه يقول : « مالك لا تجيب ؟ تكلم يا سيدي .. تكلم يا دربلاي »

فرفع أراميس رأسه برفق وبدأ في عينيه شعاع من الأمل وقال : « فكر يا صاحب الفخامة في كل ما ينتظرنا .. ان الملك لا يزال حياً وزجه في السجن قد أنقذ حياتك ! »

فقال فوكيه : « أجل .. أنا أعلم أنك فعلت ذلك من أجلي ، ولكني لا أقبل خدمايك هذه ! على أني قبل كل شيء لا أريد التلف والدمار لك . فلتغادر هذه الدار الآن ! »

فاختنقت صيحة دهشة في حنجرة أراميس ، بينما استطرد فوكيه قائلاً : « انني مضياف لكل من يكون تحت سقف بيتي . ولن تكون أضيع ممن جئت به بالحراب ! »

فقال له أراميس في صوت حزين : « سيكون هذا مالك وصدقتي يا فوكيه ! »

فقال : « فليكن ! .. اني أقبل هذا النذير يا دربلاي ، ولكن لا شيء يمنعني أو يقف في طريقي . والآن .. عليك أن تغادر (فو) بل تغادر فرنسا كلها فوراً ! .. اني أترك لك أربع ساعات لتكون بعيداً عن قبضة الملك ! »

فقال أراميس بازدياء غير مصدق ما يسمع : « أربع ساعات ؟ ! »

ولكن فوكيه وأصل كلامه جادا فقال : « خذها كلمة من فوكيه .. لن يتبعك أحد قبل انتهاء تلك المهلة . وبدا تسبق بأربع ساعات أي أحد يسره الملك في أترك للقبض عليك . ان أربع ساعات أكثر من الوقت اللازم لكي تترك سفينة تفر عليها الى (بل - أيل) التي أهبك اياها لتكون مرفأً آمناً لك ! .. ان (بل - أيل) التي أملكها هي بالنسبة لك مثل (فو) بالنسبة للملك اذهب اذن يا دربلاي .. اذهب ! .. ما دمت حياً فلن يمس أحد شعرة من رأسك ! »

فقال له أراميس في لهجة ساخرة حزينة : « شكراً لك ! » . بينما واصل الوزير كلامه فقال :

« اذهب فوراً وامدد الى يدك قبل أن يذهب كلانا بعيداً ، أنت لانقاذ حياتك وأنا لانقاذ شرفي ! »

كان مشغولا بذلك استرعى التفاته صوت فنظر واذا بدارتانيان يرقبه من خلال الباب نصف المفتوح فانزعج أراميس . وقال له قائد الفرسان : « بالله ما معنى هذا الاضطراب ؟ »

فصاح به بورتوس قائلا : « صه يا دارتانيان ! » . بينما قال له أراميس : « اننا ذاهبان في مهمة خطيرة »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ما أسعدك ! »

وقال بورتوس : « اني لا أزال متعبا ، وكنت أوتر أن أظل في نومي ولكن خدمة الملك . . . »

وقطع أراميس كلامه سائلا دارتانيان : « هل رأيت المسيو فوكيه ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل ! رأيت منذ لحظة وكان راكبا عربته ! »

فسأله : « ماذا قال لك ؟ ألم يقل لك شيئا ؟ »

فقال دارتانيان : « قال لي : (وداعا) ، ولم يزد على ذلك . وماذا كان يمكنه أن يقول لي ؟ هل أنا الآن شيء يذكر بعد أن صرتم جميعا ذوى حظوة ؟ ! »

فقال له أراميس وهو يعانقه : « استمع الي . . ان أيامك الجميلة الماضية قد بدأت تعود . ولن تجد سببا للغيرة من أحد ! »

فغمغم قائلا : « هذا لا يهمني ! »

فقال له أراميس : « اني أتنبأ بأن شيئا ما سيقع لك اليوم فيزيد كثيرا في أهميتك . . انك تعرف صدق أنبائي ! » . ثم التفت الى بورتوس وقال له :

« تعال يا بورتوس . هل أنت مستعد الآن للذهاب . . . اذن فلنعانق دارتانيان أولا »

وقال لهما دارتانيان وهما يعانقانه : « ولكن الجياد ؟ أين هي ؟ هل تأخذ جوادى يا أراميس ؟ »

فقال له هذا : « لدينا جوادان . . فوداعا ! وداعا يا دارتانيان ! »

وركب الهاربان جواديهما تحت بصر قائد الفرسان الذى أمسك الركاب لبورتوس ثم نظر وراءهما حتى غابا عن بصره ، وقال دارتانيان يحدث نفسه : « فى أى ظرف آخر كنت أظن أن هذين الرجلين يفران ! . أما فى هذه الايام التى تغيرت السياسة فيها ، فان مثل هذا الرحيل يسمى ذهابا فى مهمة خطيرة ! » . ثم دخل غرفته مطمئنا الى هذه الفلسفة !

ارادة القدر

مصت العربة بفوكيه بأسرع ما استطاعت الجياد ، وكان طول الطريق يرتجف فرقا من التفكير فيما حدث ويسائل نفسه : « كيف كان هؤلاء الفرسان فى شبابهم اذا كانت هذه جراتهم وقد هرموا وشاخوا ؟ ! » . وكان أحيانا يخيل اليه أن ما قصه عليه أراميس لم يكن الا حلما من الاحلام ، أو لعله شراك نصب له حتى اذا وصل الى الباستيل ألقى أمرا بالقبض عليه ليشارك الملك المخلوع فى سجنه . وقد مال الى تصديق هذه الفكرة حتى انه فى أثناء الطريق أصدر أوامر مختومة معينة بينما كانت جياد العربة تستبدل . وكانت تلك الاوامر موجهة الى المسيو دارتانيان ولاآخرين يعتقد أن اخلاصهم للملك فوق كل شك . وقال يحدث نفسه : « بهذه الطريقة سواء أكنت سجيننا أم لا ، أكون قد أدبت واجبى نحو الشرف . ان هذه الاوامر لن تصل اليهم الا بعد عودتي ، اذا عدت طليق السراح ، وعندئذ أستردها . أما اذا لم أعد فان ذلك يكون لسوء وقع بى وحينئذ سأتلقى المعاونة كما يتلقاها الملك ! »

ووصل الوزير الى الباستيل بعد أن اتخذ تلك الالهبة ، وقد سافر بسرعة خمسة فراسخ فى الساعة . وهناك فى الباستيل صادفته كل الصعاب التى ذلت أمام أراميس حين زار السجن من قبل . ولم يجده شيئا ذكر اسمه ولا معرفة الحراس لشخصه ، فلم يسمح له بالدخول فورا . وبعد الحاج فى الرجاء قبل أحد الحراس أن ينبئ بمجيئه أحد رؤسائه ، وهذا ذهب بدوره الى ضابط فأخبره . أما المحافظ فان أحدا لم يجرؤ أن يزعجه . . وهكذا جلس فوكيه فى عربته عند الباب الخارجى للقلعة ، وهو يتميز من الغيظ منتظرا عودة الضابط ، حتى اذا رآه قادما سأله بلهفة : « ماذا وراءك ؟ »

فقال الضابط : « ان رئيس الحراس سخر منى وقال لي : (ان المسيو فوكيه فى قفو ولو أنه كان فى باريس ما كان ليستيقظ من نومه فى مثل هذه الساعة المبكرة !) . واذن لا فائدة يا سيدى من الحاحك فى . . . »

فصاح فوكيه مقاطعا : « انكم جماعة من الحمقى ! » . ثم نزل من عربته ، وقفز الى داخل البوابة قبل أن يتاح للضابط منعه ، فأخذ يصيح طالباً النجدة ، ولكن فوكيه كان قد دخل فأدركه الجندي وجعل يصيح منها الديديبان الآخر الذى عند الباب الثانى ، فشهر الديديبان رمعه فى وجه



شورف

« ونزل فوكيه من عربته وقفز الى داخل البوابة »

الوزير ، ولكن هذا كان قد كسب من الغضب قوة فتزع الرمح من يد الجندي وضربه به ضربة قوية على كتفه ، ثم ثنى بضربة مثلها على الضابط الذي كان قد لحق به ، فأخذ الاثنان يصيحان صيحات مزعجة ، وسرعان ما خفت إليهما قوة الحراس كلها ، واتفق أن كان بين رجالها ضابط عرف الوزير حين رآه فصاح برجالها قائلا : « قفوا أيها الرفاق ! » . وحال دون انتقامهم من الوزير . على أنه اعتذر من عدم استطاعته فتح الباب له الا اذا كان معه أمر مكتوب ! . فطلب أن ينبأ المحافظ بحضوره ، وكان هذا قد سمع الضجة التي عند الباب فجاء مهرولا يتبعه وكيله وحوالي عشرين رجلا فقد ظن أن هناك هجوما على الباستيل . فلما رأى المسيو فوكيه عرفه من أول نظرة فأرخی سيفه الذي كان قد جرده وأمسك به ، ثم تمتم قائلا :

« صاحب الفخامة ؟ كيف اعتذر ؟ ! »

فقال له المسيو فوكيه وهو في شدة الغضب : « يا سيدي . اني اهنتك على همة حراسك هؤلاء ! »

فشحب وجه المسيو بيزمو اذ ظن أن الوزير يسخر منه . ولكن فوكيه كان قد استعاد هدوءه فأشار الى الديدبان والملازم ، وقال لهما : « ستصرف عشرون بستولا للديدبان وخمسون للضابط . اهنتكما . ولن يفوتني أن أحدث صاحب الجلالة عنكما . والآن يا مسيو بيزمو : لي كلمة معك ! »

وتبع المحافظ الى مسكنه الرسمي مصحوبا بهمة الرضا من الجميع . وكان بيزمو يرتعد خجلا وخوفا . فانه منذ زيارة أراميس الاولى صار يخشى سوء العاقبة . وما لبث المسيو فوكيه أن قال له بحدة : « هل زارك المسيو دربلاي صباح اليوم ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة »

وواصل الوزير كلامه قائلا : « ألم تر وعك الجريمة التي اشتركت فيها ؟ » وتساءل المحافظ : « أية جريمة يا صاحب الفخامة ؟ » . بينما قال فوكيه : « الجريمة التي تستحق من أجلها أن يمثل بك ! » ولكن الوقت لا يتسع للغضب . قدني فورا الى السجن »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « أي سجين يا صاحب الفخامة ؟ » فصرخ فيه في حدة قائلا : « أنت جاهل ؟ ! حسنا ! . قد يكون هذا خير ما تفعل ! »

وعاد بيزمو يقول : « أتوسل اليك يا صاحب الفخامة أن . . . فقطع الوزير كلامه قائلا : « كفي ! . قدني الى السجن ! »

وتساءل بيزمو في استكائة : « الى مارشيلالي يا صاحب الفخامة ؟ »

فنظر اليه متفحصا وسأله : « من هو مارشيلالي ؟ »

فقال المحافظ : « السجن الذي أعاده المسيو دربلاي للسجن صباح

اليوم »

فبدأ يقينه يتزعزع قليلا حيال هدوء بيزمو وقال : « أيسمى مارشيبالي
اذن ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة . انه الاسم المثبت في سجل
السجن »

فنظر فوكيه الى بيزمو نظرة يريد بها أن يسبر غوره . على أنه لما رأى
ملامح وجهه أدرك أن أراميس ما كان ليختار مثل هذا الرجل شريكا له في
المؤامرة . وعندئذ قال له : « أليس هو السجن الذي أخذه المسيو دربلاي
من هنا أول من أمس ثم أعاده الى السجن صباح اليوم ؟ »

وكان قد أدرك الحطة التي اتبعها أراميس . فأجاب المحافظ : « أجل
يا صاحب الفخامة . واذا كنت قد جئت لأخذه فان هذا يسرني لأنني كنت
سأكتب تقريرا في شأنه ! »

فسأله الوزير : « ماذا فعل اذن ؟ »

فأجاب بقوله : « انه منذ عاد للسجن صباح اليوم قد أزعجني أيما ازعاج
وقد اعترته نوبات من الهياج جعلتني أحسبه سيدمر الباستيل ! »

فقال فوكيه : « سأريحك توا من وجوده هنا . هيا قدني الى غرفته .
فتردد بيزمو وسأل متلجلجا : « هل يتفضل صاحب الفخامة باعطائي
الأمر الخاص بذلك ؟ »

فسأله : « أي أمر ؟ » . فأجاب : « أمر من الملك ! »

فقال المسيو فوكيه : « حسنا ! . انتظر حتى أكتب لك أمرا . ولكن
المحافظ أردف يقول : « ان هذا لا يكفي يا صاحب الفخامة . بل يجب أن
ألقى أمرا من الملك ! »

فاغتاط فوكيه وقال له : « هل كنت تتبع مثل هذه الدقة حين سمحت
للسجين بالخروج ؟ . أرني الأمر الذي أفرج به عن هذا السجن من قبل »

وأطلعه بيزمو على الأمر الخاص بالافراج عن السجن سلدون . فقرأه
فوكيه وقال له : « هذا أمر بالافراج عن سجين آخر اسمه سلدون »

فقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن مارشيبالي ليس طليقا ياسيدي .
بل هو هنا ! »

فقال له الوزير : « انك ذكرت الآن أن المسيو دربلاي أخذه معه ثم
أعاده ! »

فوجه بيزمو قليلا ثم قال : « أحسب اني لم أقل ذلك يا صاحب الفخامة ،
فقال له محتدا : « بل قلته بالتأكيد حتى لكأنني أسمع الآن ! »

فقال المحافظ : « هي اذن فلتة من لساني يا صاحب الفخامة ! »
فنظر اليه المسيو فوكيه شزرا وقال له : « كن على حذر يا مسيو بيزمو ! »

فقال هذا : « ليس هناك ما أخشاه يا صاحب الفخامة . اني أعمل طبقا

لأدق الانظمة . وقد أحضر لي المسيو دربلاي أمرا باطلاق سراح سلدون ،
وسلدون طليق الآن ! »

فقال له الوزير : « ان مارشيبالي قد غادر الباستيل . هذا ما لا شك
فيه ! »

فقال : « عليك أن تبرهن على ذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال له : « اذن دعني أقابله قبل كل شيء » . ثم أشار اليه أن يتقدمه
الى غرفة السجن ولكن بيزمو بقي واقفا وقال له : « ان صاحب الفخامة
يعلم تمام العلم أنه لا يجوز لأحد أن يرى أي سجين هنا الا بأمر صريح من
الملك نفسه ! »

فبدأ الغيظ واضحا في وجه الوزير وقال له : « ولكن دربلاي قد دخل
برغم ذلك ! »

فقال بيزمو : « هذا ايضاح يحتاج الى دليل يا صاحب الفخامة ! »

فصاح به الوزير محتدا : « يا مسيو دي بيزمو . اني أحذر مرة
أخرى . ان المسيو دربلاي قد ضاع ! »

فبدأ الفزع في وجه بيزمو وقال : « ضاع ؟ . هذا مستحيل يا سيدي ! .
بينما واصل الوزير كلامه فقال : « أرى أنك كنت واقعا تحت نفوذه ؟ »

فقال بيزمو : « يا صاحب الفخامة . اني هنا لأنفذ أوامر الملك . وأنا
أؤدى واجبي حق أدائه . فأعطني أمرا من الملك أدخلك عند السجن ! »

فقطب فوكيه متأففا ثم قال : « حسنا ! . اتركني أدخل عند السجن ،
وسأعطيك فوراً أمرا من الملك »

فقال بيزمو : « بل أعطني الأمر الملكي قبل ذلك يا صاحب الفخامة ! »

وهنا اشتد غضب الوزير وقال له : « اني أندرك يا مسيو بيزمو . اذا
أبيت على ذلك فسيقبض عليك وعلى جميع ضباطك فوراً ! »

فقال بيزمو : « قبل أن تأتي عملا من أعمال العنف مثل هذا يا صاحب
الفخامة ، تذكر أننا هنا لا نطيع الا أوامر الملك ، وانه يسهل عليك أن
تحصل على أمر من الملك بزيارة مارشيبالي بقدر ما يسهل عليك أن تحصل
على أمر بالاضرار بي برغم براءتي ! »

فقال فوكيه بغيظ : « صدقت يا مسيو دي بيزمو . صدقت ! »

ثم جذبه اليه وقال له بصوت منخفض : « أتدري لماذا أحرص على
التحدث الى السجن ؟ »

فأجاب بيزمو : « لست أدري ! . على أنك تخيفتي حتى لقد سرت في
جسمي رعدة وكأني مهدد بالاغماء ! »

فقال له الوزير : « ستجد فوضة للاغماء بعد عشر دقائق حين أعود الى
هنا على رأس عشرة آلاف جندي مزودين بثلاثين مدفعا ! »

فصاح المحافظ في فزع : « رباه . انك لست في وعيك يا صاحب الفخامة ! »

وعاد الوزير يقول في صرامة : « انى أهلك عشر دقائق تحزم فيها أمرك ، وسأجلس هنا على هذا الكرسي حتى اذا انتهت الدقائق العشر وكننت لا تزال على عنادك فسأغادر هذا المكان وستحسبني مخبولا كما تشاء ولكنك سترى العقاب ! »

فضرب بيزمو الارض بقدمه ولكنه لم ينطق ببنت شفة ، وعندئذ أمسك فوكيه بقلم ورقة ورق وكتب ما يأتي : « أمر الى رئيس البلدية بحشد الحراس ومهاجمة الباستيل » . و « أمر الى قائد الحرس السويسرى والى قائد حرس الملك باقتحام الباستيل خدمة للملك »

وكان بيزمو يقرأ ما يكتبه الوزير دون أن ينبس ببنت شفة ، فلما وجده مستمرا في الكتابة وقرأ أمره الجديد وفيه (الى كل جندى وكل مواطن وكل سيد ، بالقبض على المسيو دربلای أسقف فان حيثما يجده ، وكذلك على كل شركائه وفي مقدمتهم المسيو دى بيزمو محافظ الباستيل المتهم بالخيانة العظمى والتمرد) . لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « كفى يا صاحب الفخامة ! انى لا أفهم شيئا من الموضوع كله ، ولكنى أخشى أن تقع فى ساعتين اثنتين فواجع مروعة وكان مبعثها الجنون . ولا ريب أن الملك حين يحاكمنى سيرى عذرى اذ أخالف النظم . تعال معى يا صاحب الفخامة الى ززانة مارشبال ! »

فنهض فوكيه واندفخ خارجا من الغرفة يتبعه بيزمو وهو يمسخ العرق الذى يتصبب من جبينه ويقول : « ما أفضله صباحا ! يا للعار ! » . بينما فوكيه يستحله وقد لحظ أنه ما زال خائفا منه فقال له : « دع عنك لعب الاطفال هذا وخذ المفاتيح من السجن فانه لا يجوز لأى انسان أن يرى أو يسمع ما سيحدث ! »

ولما وجده مترددا فى تنفيذ ذلك ، هدده قائلا : « حذار يا مسيو دى بيزمو ، والا غادرت الباستيل توا لكى أنفذ أوامرى بنفسى »

فأطرق بيزمو ، ثم تناول المفاتيح من يد السجن ووضفه ، ومضى يصعد الدرج فى صحبة الوزير وحده ، وسمع هذا ضجة فى أعلى السلم يتخللها السخط والسياب فسأل المحافظ : « ما هذا ؟ » . فأجاب وهو يغمز بعينه : « هذا صاحبك مارشبال . وهكذا يصبح السجناء المجانين ! »

فارتجف الوزير فرقا اذ تبين صوت الملك ووقف لحظة على الدرج ، ثم أخذ المفاتيح من بيزمو اذ كان هذا يخشى أن ينقض عليهما السجن المخبول . وصاح به : « أى مفتاح هو الخاص بهذا الباب ؟ » . وفيما هو يريه المفتاح سمعت صيحة رهيبية يصحبها ضرب شديد على الباب فتردد لهما صدى ملاء السلم . فقال فوكيه لبيزمو بصوت قاصف : « اذهب من هنا ! »

فتمتم بيزمو قائلا : « هذا يسرنى . سيتقابل الآن اثنان من المجانين وانى موقن أن أحدهما سيقتل الآخر ! »

فصاح به الوزير فى حدة قائلا : « اذا وضعت قدمك على هذا السلم قبل أن أناديك فستحتل مكان أحقر سجين فى هذا السجن ! »

فتمتم بيزمو وهو ينسحب بخطى متثاقلة : « ان هذه الوظيفة ستقضى على ! »

وكانت صيحات السجن تزداد شدة ، بينما انتظر فوكيه حتى استوثق من أن بيزمو وصل الى أسفل الدرج ثم وضع المفتاح فى قفل الباب وأداره ، وعندئذ سمع صوت الملك الأجنش وهو يصيح قائلا : « النجدة ، النجدة ! .. أنا الملك ! » . وكان مفتاح الباب الثانى غير مفتاح الباب الاول فاضطر فوكيه أن يبحث عنه فى حزمة المفاتيح ، على حين كان الملك يصيح فى شدة غضبه قائلا : « لقد زج بى فوكيه فى السجن ! النجدة ضد فوكيه ! أنا الملك . ساعدوا الملك على فوكيه ! »

فمزقت هذه الصيحات قلب الوزير ، وتلتها ضربات شديدا على الباب بجزء من الكرسي الذى تسلح به الملك . وأخيرا وجد فوكيه المفتاح ففتحه فى الوقت الذى خارت فيه قوى الملك فكانت كلماته غير واضحة وهو يقول : « الموت لفوكيه ! الموت للخائن فوكيه ! »



كاد فوكيه يرتطم بالملك الذى كان واقفا وراء باب الززانة ، ومضت لحظة رهيبية صمت فيها كل منهما وقد عرف صاحبه ، ثم صاح الملك صيحة فزع قائلا : « فوكيه .. هل جئت لكى تقتلنى ؟ ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « رباه . الملك على هذه الهيئة ! »

والواقع أن منظر الملك كان يبعث الفزع ، فقد كانت ثيابه ممزقة ، وكان قميصه ملوثا بالتراب والعرق ، والدم يسيل من صدره وذراعيه ، وكان شاحب الوجه أشعث الشعر أعير السحنة ، يبدو عليه اليأس والجوع والخوف معا . وتأثر فوكيه بمראה وقال له بصوت مختنق : « مولاي .. ألا تعرف أخلص أصدقاؤك ؟ »

فنظر اليه الملك ثمزرا وقال : « أنت ؟ أنت صديق لى ؟ ! » فركع الوزير بين يدى الملك وقال له فى هدوء حزين : « بل أكثر خدامك اجلا لا لك ! » . ثم أعقب ذلك بأن نهض واقترب منه ثم احتضنه فى عطف وحنان قائلا له والدمع ينهمل من عينيه : « يا مليكى ! يا ولدى ! ما أشد ما قاسيته ! »

وكان لويس قد استعاد سكينته فشمع بالحجل من مظهره ومن مسلكه

بهذا الجيش لنحاصر أولئك الثوار الذين أحسبهم قد تحصنوا الآن ،
فقال فوكيه : « لو أن هذا حدث لدهشت له ، لأن زعيمهم الذى هو
روح تلك المؤامرة قد كشفته فسقط المشروع كله ! »
فقال الملك : « وهل كشفت ذلك الأمير الزائف ؟ »
فقال : « انى لم أره بعد يا مولاي ! »

فسأله متعجبا : « من الذى رأيته اذن ؟ »
فأجاب قائلا : « زعيم تلك المغامرة ، وهو غير ذلك الشاب البائس الذى
لم يكن إلا أداة فى يده ، وقد حكم عليه بالشقاء طول حياته كما يبدو . أما
زعيم المؤامرة ومنفذها فهو المسيو دربلاى أسقف فان ! »

فغمغم الملك قائلا : « صديقك ؟ » فنظر الوزير الى الملك فى نيل
واخلاص ظاهرين وأجاب : « لقد كان صديقى يا مولاي ! »

فقال الملك بلهجة أقل ودا من قبل : « هذا ظرف سىء بالنسبة لك ! »
فقال فوكيه : « ان الصداقة التى من هذا القبيل يا مولاي لا شئ فيها
يؤاخذ عليه ما دمت جاهلا بالجريمة ! »

فقال الملك : « كان ينبغى لك أن تتوقعها ! »
فأطرق الوزير وقال : « انى على كل حال أضع نفسى فى يدى جلالتك
حتى تتحقق أنى لست مذنباً ! »

فقال الملك متداركا : « انى ما قصدت ذلك يا مسيو فوكيه . كلا . . . لم
أقصد ذلك قط ، وأؤكد لك أنه برغم القناع الذى كان على وجه ذلك الشرير
فقد خيل الى أنه هو . وقد كان معه رجل ضخم الجسم هائل القوة كان
يتوعدنى بقوته ولست أدرى من هو »

فقال فوكيه : « لا بد أنه صديقه البارون دى فالون أحد الفرسان
الاربعة »

فقال الملك : « صديق دارتانيان والكونت دى لافير ؟ يجب ألا ننسى
العلاقة التى بين المتآمرين وبين المسيو دى براجلون ! »

فقال فوكيه : « لا يذهبن بك الفكر بعيدا يا مولاي . . . ان دى لافير هو
أشرف رجل فى فرنسا . فافنع بأولئك الذين سأسلمهم الى جلالتك ! »

فعض الملك على شفتيه وقال : « حسنا ! . . اذن أنت ستقدم الى المجرمين
الاوغاد عقب وصولنا الى فو على رأس الجيش ، وانى لأرجو ألا ينجو أى
واحد منهم حتى لا يفلت عنقه من الجزاء الذى استحقه ! »

فقال الوزير : « هل جلالتك ستأمر بقتلهم ؟ »
فقال الملك فى كبرياء : « ليفهم كل منا الآخر يا مسيو فوكيه . . . اننا
لا نعيش الآن فى تلك العصور التى كان الاغتيال فيها وحده وسيلة الملوك

ومن الشفقة التى أبدتها وزيره نحوه ، وتراجع الى الوراء ، فلم يفهم فوكيه
كنه هذه الحركة ، ولم يدرك أن الملك فى كبريائه لن يغفر له رؤيته اياه فى
تلك الحالة المزرية . ثم قال له فى خشوع : « تعال يا مولاي . . . انك حر
طليق ! »

فقال الملك متعجبا : « طليق ؟! . . . أنت تطلق سراحى بعد أن تجرأت
على رفع يدك ضدى ؟! »
فقال فوكيه فى استياء : « لا تصدق يا مولاي انى يمكن أن أرتكب مثل
هذا الوزر ! »

ثم أخذ يقص على الملك تفصيل ما حدث ، وكان لويس الرابع عشر يستمع
له وهو يشعر بأنم نفسانى شديد ، حتى اذا انتهى فوكيه من كلامه، تغلب
عظم الخطر الذى استهدف له الملك على هول السر الذى وقف عليه بشأن
وجود أخ توأم له ، ثم قال لفوكيه بغتة : « ان مسألة التوأم هذه أكذوبة . . .
انها أمر مستحيل . لا يمكن أن تكون قد خدعت بها ! . . . أجل انه لمستحيل
أن ترتاب فى شرف أمى وفضيلتها . ووزيرى الاول لم ينتقم لى بعد من
الجناة ! »

فأجاب فوكيه : « فكر يا مولاي قبل أن يدفعك الغضب . ان ميلاد
أخيك . . . »

فقطع الملك كلامه قائلا : « ليس لى سوى أخ واحد ، وأنت تعرف ذلك
كما أعرفه ! . . . هناك مؤامرة تبدأ من محافظ الباستيل ! »

فقال له فوكيه : « كن حذرا يا مولاي . . . ان ذلك الرجل قد خدع مثل
غيره بالتشابه الشديد الذى بينك وبين ذلك السجين . . . ولا شك فى أن
الذين أعدوا كل شئ ليخدعوا الملكة الوالدة وأعضاء الأسرة المالكة ووزراءك
وضباطك ، قد اطمأنوا كل الاطمئنان الى تمام التشابه بين جلالتك وبينه ! »
فتمتم الملك قائلا : « ولكن . . . ان كل هؤلاء الآن فى (فو) . فكيف
تركتهم هناك ؟ »

فقال فوكيه : « كان واجبى العاجل هو اطلاق سراح جلالتك ، وقد
أديت هذا الواجب . والآن سأنفذ كل ما تأمر به . وأنا فى انتظار أمر
جلالتك ! »

ففكر لويس هنيهة ثم قال : « أجمع كل الجيوش التى فى باريس »
فقال الوزير : « لقد صدرت الأوامر الخاصة بذلك يا مولاي »

فصاح الملك : « أنت أصدرت هذه الأوامر ؟ »
فقال : « أجل يا مولاي . . . أصدرتها لهذا الغرض ، وبعد أقل من ساعة

تكون جلالتك على رأس عشرة آلاف جندى ! »
فكان جواب الملك أن تناول يد فوكيه وضغطها بما يدل على أنه قد تبدد
من ذهنه أخيرا كل سوء ظن بوزيره . ثم قال له : « سنذهب توالى فو

الى الانتقام من أعدائهم ! ان عندى برلمانا يجتمع ويقضى باسمى ، وعندى
مشائق تنفذ عليها سلطتى لإلعيا ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « اسمح لى يا صاحب الجلالة أن أعارضك ،
فان أى إجراء يتخذ فى هذا الشأن سيجر الفضيحة على العرش ، ولا يجوز
أن يذكر اسم الملكة أن مصحوبا بالابتسام ! »

فغضب الملك على ذلك قائلا : « ومع هذا يجب أن يأخذ العدل مجراه ! »
فقال فوكيه : « حسنا يا مولاي ! ولكن الدم الملكى لا يصح أن يسفك
على المشنقة ! »

فصاح الملك غاضبا : « الدم الملكى ؟ اذن أنت تصدق تلك القصة ؟
ان قصة التوأمن هذه مخترعة ، وانى أرى فى اختراعها نفسه أكبر جرم
اقترفه دربلاى . انى أريد أن أعاقب على الجريمة ذاتها قبل عقابهم على
اتخاذهم العنف معى أو اهانتهم اياى ! »

فقال الوزير فى حزم : « مولاي . ان جلالتك تستطيع أن تقضى على
حياة أخيك فيليب اذا شئت فان هذا أمر يعنىك وحدك ، وأحسب أن
جلالتك ستستشير الملكة الوالدة ، وفى هذا ما يكفى . ولست أحب أن
أندخل فى هذا الأمر ، على أن لى رجاء واحدا أحب أن تحققه جلالتك »

فقال الملك : « أى رجاء لك يا مسيو فوكيه ؟ ثق بأننى لن أتوانى لحظة
عن تحقيقه جزاء اخلاصك ! »

فقال : « شكرا لك يا مولاي ! ان رجائى أن تغفو عن دربلاى ودى
فالون ! »

فنظر اليه الملك متعجبا وقال : « أعفو عن ارادا اغتيالى ! ؟ »

فقال فوكيه : « أنهما نائران لا أكثر من ذلك يا مولاي ! »

فقال الملك : « لقد فهمت . انك تطلب العفو عن صديقك ؟ »

فأحس الوزير أن هذه العبارة جرحت احساسه وغمغم مرددا :
« صديقى ؟ » . بينما قال الملك : « نعم أنهما صديقاك . ولكن سلامة الدولة
تتطلب عقابا رادعا للمجرمين ! »

فقال فوكيه : « مولاي . انى لا أسمح لنفسى بأن أذكر جلالتك بأنى
أعدت اليك حريتك وأنقذت حياتك ! بل لست أسمح لنفسى بأن أقول
لجلالتك ان المسيو دربلاى لو أراد حقا أن يفتالك لكان من السهل عليه أن
يقتلك فى هذا الصباح بغابة سينار فينتهى الأمر ! »

فبدا الفزع فى وجه الملك ، واستطرد فوكيه فقال : « كان دربلاى
يستطيع أن يطلق رصاصة على رأس لويس الرابع عشر فتشوه وجهه حتى
لا يعرفه أحد حين تكتشف جثته وبذا كان مشروع دربلاى يبلغ نهايته ! »
فامتقع وجه الملك اذ لاح له عظم الخطر الذى كان يواجهه . واستمر

فوكيه يقول : « لو كان المسيو دربلاى قاتلا مغتالا ما كان ليخبرنى بخطته ،
لقد كان على يقين من أن مؤامرتة لن تكتشف ، وكان يرى أن ذلك العاصب
فى نظرنا ليس الا ملكا حقا ما دام ابنا اللويس الثالث عشر . ولو أن الملكة
أن عرفته فانه على أى حال ابنها ! »

وبدل أن يتأثر الملك بهذه الصورة التى رسمها له فوكيه عن سماحة
أراميس ، شعر بالزيد من المهانة ، ولم يطق أن يتصور أن حياته الملكية
كانت بيد ذلك الرجل حينما من الزمن . وما لبث أن قال لفوكيه : « انى
لا أدرى حقا لماذا تطلب العفو عن هؤلاء المجرمين ؟ ما جدوى المطالبة بشيء
يمكن أن يتم دون رجاء ؟ »

فقال فوكيه : « لست أفهم ما تعنيه يا مولاي ! »

فقال : « ان ما أقوله واضح مفهوم . فانا الآن فى الباستيل ، والحراس
يحبسوننى مخبولا . ولا أحد هنا يعرف انى لست مارشيوالى السجين
العادى . وعلى هذا تستطيعون أن تتركوا هذا السجين المجنون حيث هو
حتى ينتهى ، فلا يحتاج المسيو دربلاى ولا المسيو دى فالون الى عفو لأن
ملكهما الجديد سيعدهما بريئين ، بل سيكافئهما على أنهما جاءا به من السجن
الى العرش ! »

فامتقع وجه فوكيه تأثرا وقال : « ان جلالتك تسمى الى بغير حق يا مولاي !
انى لست طفلا كما أن المسيو دربلاى ليس أبله . ولو أنى أردت تنصيب
ملك جديد على العرش كما تقول لما جئت الى هنا لأقتحم الابواب وأطلق
سراحك بل ان ذلك كان ينبىء عن نقص فى الذكاء . ان الغضب وحده هو
الذى جعلك تكافى خدمتى بهذه الاساءة ! »

فأدرك الملك ما كان من شططه وتذكر أن ابواب الباستيل ما زالت مغلقة
عليه . ونفذت كلمات فوكيه الخالصة الى قلبه فرق قليلا وقال له : « انى
لم أقصد أن أسىء اليك ، والله يعلم ذلك . ولكنك طلبت الى العفو فأجبتك
بما أملاه ضميرى . وعلى ذلك ما دمت أحكم ضميرى فان المجرمين اللذين
تتحدث عنهما لا يستحقان عندى أدنى شفقة ! »

وبقى فوكيه ساكتا بينما استطرد الملك فقال : « اننى أقول لك هذا
وأنا أعلم أنى لا أزال فى قبضة يدك ، وأن حريتى بل حياتى نفسها قد
تتوقف على قبول ما تطلبه منى ! »

فقال فوكيه : « لا شك انى أخطأت اذ قدمت ملتصقا بهذا الى مولاي فى
صورة توحى بأنى أفرض قبوله فرضا ! وأنا أسف على ذلك وأرجو صفح
جلالتك ! »

فابتسم الملك وقال : « لقد صفحت عنك يا عزيزى فوكيه »

فسكت فوكيه قليلا ثم قال : « لقد نلت الصفح عن نفسى ولكن المسيو
دربلاى والمسيو دى فالون . . . »

فقطع الملك كلامه قائلا : « انهما لن ينالا منى عفوا ما دمت حيا ، وأرجو
ألا تحدثنى عنهما مرة أخرى ! »

فقال فوكيه : « سمعا وطاعة يا مولاي ! » . ونظر اليه الملك متفحصا ثم
قال له : « وأرجو أيضا ألا يترك هذا أثرا فى نفسك ! »

فقال الوزير : « فليطمئن مولاي ! انى فى الواقع فكرت فى هذا من
قبل ، وقد اتخذت اجراءاتى على أساس أن جلالتك قد لا تغفو عنهما ! »

فسأله الملك فى دهشة : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب بقوله : « لقد
قدرت للمسيو دربلای أنه باقضاء سره الخطير لى قد هيا لى فرصة انقاذ
الملك والدولة . وعلى هذا لم أستطع أن أبعث به الى الموت ، ولم أستطع أن
أعرضه لمثل غضبك هذا لانه يوازى قتله بيدي ! »

فقال له الملك : « حسنا ! وماذا فعلت اذن ؟ » . فقال : « لقد أعطيت
المسيو دربلای أحسن جياى ، وتركت له أربع ساعات يسبق بها من يمكن
أن تبعثهم جلالتك لادراكه ! »

فتمتم الملك قائلا : « فليكن ذلك ! ان القبض عليه بعد هذه الساعات
الأربع ليس من المحال ! »

فقال فوكيه : « الواقع يا مولاي انى ما سمحت له بذلك السبق الا لى
أنقذ حياته، ومن أجل ذلك وهبته جزيرة (بل - ايل) لتكون مرفأ أمان له،»
فقال له الملك : « ولكنك أهديت الى (بل - ايل) هذه من قبل ؟ »

فقال : « عفوا يا مولاي ! اننى لم أهدها اليك لى تقبض فيها على
أصدقائى ! »

فبدا الاهتمام فى وجه الملك ، ونظر الى فوكيه بعينين تفقدان شررا، ولكن
هذا كان مطمئنا الى أنه ادى واجبه طبقا لما أملاه عليه ضميره فقابل نظرة
الملك بانتسامة هادئة ، واضطر الملك الى أن يهدىء من غضبه وقال بعد أن
سكت هنيهة : « أعائد أنت الى فو ؟ »

فأجاب فوكيه : « انى أنتظر أمر جلالتك . ولكنى أحسبك محتاجا الى
تغيير ملابسك قبل الظهور أمام الحاشية »

فقال الملك : « سنمر على اللوفر . هيا بنا ! »

وخرجا من السجن مارين ببيزمو ، فنظر هذا الى الملك فى دهشة وهو
يحسبه مارشيوالى يخرج من السجن مرة ثانية ، وفيما كان واقفا يعض على
شفتيه من الغيظ لمدم استطاعته شيئا حياى ذلك ، ناداه فوكيه وأعطاه
أمرا بالافراج عن السجن موقعا عليه باسم الملك ، فتسلم الأمر وارتسمت
على شفثيه ابتسامة ساخرة حزينة، اذ حسب أن السجنى الراحل (مارشيوالى)
هو الذى كتب ذلك الأمر فى نوبة من نوبات الجنون !

فليب الملك

استطاع فيليب توام لويس الرابع عشر أن يقوم بدوره الملكى خير قيام
بعد أن حل محل الملك فى غرفة نومه بقصر (فو) بأن أصدر أمره بأعداد
استقبال حافل عند قيامه من النوم ، وقد اتخذ هذا القرار برغم أن المسيو
دربلای لم يعد اليه فى الموعد المنتظر ، ولعله اعتقد أن غيبته لن تطول فأراد
أن يجرب مقدرته وحظه دون أى سند أو ارشاد ! . على أن سببا آخر
حفزه الى ذلك هو أن أمه الملكة آن النمسوية التى ضحت به فيما يعتقد
ستكون بين يديه عما قليل !

وفتح فيليب أبواب الجناح الملكى فدخل كثيرون فى سكون . ولم يتحرك
حين أخذ خادمه يلبسه ثيابه ، وكان قد درس فى الليلة السابقة عادات
أخيه ليمثل دوره بصورة لا تثير أية شبهة . فلما أتم ارتداء ثياب الصيد
الكاملة سمح باستقبال زائريه . وبفضل ذاكرته ومذكرات اراميس عرف
كل واحد منهم ، وأولهم الملكة آن والدته التى كانت مستندة الى ذراع
ابنها الأصغر ، ثم قرينة هذا الأمير مع المسيو دى سان اينيان . وقد اختفت
ابتسامته حين رأى أمه وبدا كأنه يرتعد ، وحدث نفسه قائلا : « أهذه
الملكة النبيلة المظهر البادية الالم هى التى ضحت ابنا لها فى سبيل سياسة
الدولة ؟ » . ولحظ أنها ما زالت تبدو جميلة برغم تقدم السن بها ، وكان
يعرف أن لويس الرابع عشر يحبها ، فألى على نفسه أن يحبها كذلك والا
يعاقبها على فعلتها وقد بلغت الكبر . ونظر الى أخيه الأصغر نظرة عطف
وحنان ، فان هذا لم يقتصب منه شيئا ولم يسبب له شقاء . وعاهد نفسه
على أن يلبى كل مطالبه . ثم انحنى انحناء ودية لسان اينيان الذى كان
يتشم ويبدى كل ما يستطيع من اجلال . ومد يدا مرتعشة الى الأميرة
هنريتا زوجة أخيه الأصغر التى بهره جمالها لأول وهلة ، ولكنه رأى فى
نظرتها جفاء فقال يحدث نفسه : « انه لا يسر لى أن أكون بمثابة الأخ لزوجة
أخى هذه من أن أكون عشيقا لها »

والواقع أنه لم يكن يخشى سوى استقبال الملكة زوجة لويس الرابع
عشر ، ولكنها لحسن حظه لم تات الى حفلة الاستقبال . ثم بدأت الملكة
الوالدة خطابا سياسيا علققت به على ترحيب المسيو فوكيه بالبيت الملك
ومزجت فيه عداوتها لفوكيه بمدحها للملك وسؤالها عن صحته قائلة :
« والآن يا بنى لعلك اقتنعت بما هناك عن المسيو فوكيه ؟ »

وهنا التفت فيليب الى سان اينيان وقال له : « ياسان اينيان أرجو أن تذهب وتسال عن صحة الملكة ! »

وكانت هذه الكلمات أول ما نطق به بصوت مرتفع ، فاسترعى الاختلاف الزهيد الذي بين صوته وصوت لويس انتباه الملكة آن ، فنظرت اليه مليا ، بينما خرج سان اينيان من الغرفة لتنفيذ الأمر الصادر اليه

ثم قال فيليب لوالدته : « سيدتي .. انى لا أحب أن أسمع ذما فى المسيو فوكيه ، وأنت تعلمين ذلك ، ولقد أطريته أنت نفسك ! »

فقالت : « هذا صحيح ولذا أسألك عن شعورك نحوه ! »

وقالت هنريتا : « مولاي ، انى من جانبي أميل دائما الى المسيو فوكيه . انه رجل ذو ذوق رفيع فهو اذن رجل ممتاز ! »

وقال الأمير : « انه وزير مالية غير ضنين ولا شحيح . ويدفع بالذهب كل ما أحيله اليه من المطالب ! »

فقالت الملكة الوالدة : « ان كل انسان فى هذا الأمر يفكر فى صالحه لا فى صالح الدولة ! . ان المسيو فوكيه فى الواقع يخرّب مالية الدولة ! »

فقال فيليب بصوت أقل ارتفاعا : « حسنا يا أماه ! . أنت أيضا تجعلين من نفسك درعا للمسيو كولبير ؟ »

فدهشت الملكة العجوز وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

فأجاب فيليب : « لانك فى الحقيقة تتكلمين كما لو كانت صديقتك القديمة مدام دى شيفريز تتكلم ! »

فتساءلت الملكة آن متعجبة : « مدام دى شيفريز ؟ » بينما استطرد فيليب فقال :

« أليست مدام دى شيفريز دائما فى حلف ضد اى انسان ؟ .. وهل لم تزرك أخيرا يا أماه ؟ »

فقالت : « سيدى .. انك تحدثنى الآن بلهجة تجعلنى أتصور انى أستمع الى ابيك ! »

فقال لها : « ان ابي لم يكن يميل الى مدام دى شيفريز ، وكان له الحق فى ذلك ! .. اما أنا فانى لا أحبها أكثر مما كان يحبها .. . واذا كانت تحسب أنها ستعود الينا لتبذر بذور الفرقة والبغضاء تحت ستار استجداء المال ، فانى سأنفىها خارج الملكة وأنفى معها كل من يتدخل فيما لا يعنيه من الأسرار ! »

ولم يكن قد قدر اثر هذه الكلمات الرهيبة ، أو لعله أراد أن يرى أثرها ، والواقع أن الملكة آن أوشكت أن يفشى عليها فمدت يديها صوب ابنها الأصغر فسندها وأحاطها بذراعه . وتمتمت هى قائلة : « مولاي . انك تقسو على والدتك ! »

فأجاب قائلا : « كيف ذلك ؟ . انما تكلمت عن مدام دى شيفريز . فتؤثر والدتى مدام دى شيفريز على سلامة الدولة وسلامة شخصى ؟ . حسنا اذن يا سيدتى ! . انى أقول لك أن مدام دى شيفريز انما عادت الى فرنسا لكى تقترض مالا ، وانها لجأت الى المسيو فوكيه لكى تبيعه سرا معيناً ! »

فصاحت الملكة آن : « سرا معيناً ؟ ! »

فقال : « أجل ! . لقد زعمت أن هناك اختلاسات اقترفها وزير المالية . وقد ردها المسيو فوكيه ردا غير كريم ، مؤثرا تقدير الملك له على كل صلة بالدساسين . وهنا باعت مدام دى شيفريز ذلك السر المزعوم الى المسيو كولبير . ولما كانت لا تشبع ، ولم تقنع بمائة الف كرون ابتزتها من ذلك الموظف ، فقد صعدت الى أعلى وحاولت أن تجد ينابيع أعماق غورا .. اليس هذا صحيحا يا سيدتى ؟ »

فقالت الملكة الوالدة بقلق : « انك لا يفوتك شيء يا مولاي ! »

فاستمر فيليب قائلا : « والآن لى الحق فى أن أبغض هذه السيدة التى تدبر الفضيحة لانسان وأخراب لآخر . واذا كان الله قد شاء أن ترتكب بعض الجرائم وأخفاها فى ظل رحمته ، فانى لا أسمح لمدام دى شيفريز أن تكون لها قوة تعارض بها مشيئة الله ! »

وقد تأثرت الملكة آن بهذا الشطر الأخير من عبارة ابنها ، حتى لقد شعر بالشفقة عليها ، فأمسك بيدها وقبلها بحنو ، ولم تدر أنه بهذه القبلة قد غفر لها ما سببته له من آلام طول السنوات الأخيرة . ثم ترك فيليب فترة من الصمت تمحو الانفعالات الأخيرة ، وعاد يقول وعلى فمه ابتسامة مشرقة :

« اننا لن نخرج اليوم فان عندى خطة ! »

والتفت نحو الباب وقد بدأ يشعر بالقلق لغياب أراميس ، وأرادت الملكة الوالدة أن تغادر الغرفة فقال لها : « ابقى هنا يا أماه فانى أريد أن أعقد صلحا بينك وبين المسيو فوكيه ! »

فقالت له : « انى لا أكن ضغنا للمسيو فوكيه وانما يزعجنى اسرافه » فقال لها : « ستعالج ذلك ، ولن نأخذ من وزير المالية سوى صفاته الحسنة ! »

ولحظت الأميرة هنريتا انه ينظر كل لحظة الى الباب ، وحسبته ينتظر دى لافالير فأرادت أن تسدد نحوه سهما صغيرا مسما وقالت له : « ماذا ينتظر مولاي ؟ »

فأدرك فيليب ما يدور بخلفها وقال لها : « أخطاه .. انى أنتظر رجلا ممتازا وناصحا عظيم المقدرة وأريد أن أقدمه اليكم جميعا وأن ينال عطفكم وتقديركم ! »

ورأى دارتانيان بالباب فقال له : « أدخل يا دارتانيان »

فجاء دارتانيان وقال له : « ماذا تريد يا صاحب الجلالة ؟ » . فسأله :
« ابن أسقف فان صديقك ؟ . انى أنتظره ولكنه لم يات بعد .. دع أحدا
يبحث عنه »

فوقف دارتانيان هنيهة ذاهلا ثم حسب ان أراميس غادر (فو) فى مهمة
سرية كلمة الملك أياها وأن الملك يريد كتمان أمرها عن الجميع ، فأنحنى أمامه
وقال :

— مولاي .. اتريد جلالتك احضار المسيو دربلای اليك حتما ؟

فقال : « ليس حتما . ولكن اذا وجدتموه ! »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا ما حسبته » . ثم سألت الملكة
آن : « هل المسيو دربلای هذا هو أسقف فان ؟ »

فاجابها فيليب : « أجل يا سيدتى .. انه فارس قديم ! »

فاحمر وجه الملكة واستطرد فيليب فقال : « أحد الفرسان الأربعة
المشهورين الذين أتوا من ضروب البسالة ما يدعو الى العجب ! »

وهنا ندمت الملكة آن على ملاحظتها وأرادت ان تغير مجرى الحديث فقالت :
« على أية حال .. أنا موقنة بانك تحسن الاختيار يا مولاي ! »

فأنحنى الجميع تأييدا لهذا القول .. ثم قال فيليب : « ستجدين فيه
فطنة المسيو دى ريشيليو وسعة حيلته ، دون شح المسيو دى مازارين ! »

وهنا سأل الأمير الشاب : « هل سيكون رئيسا للوزراء يا مولاي ؟ »

فقال فيليب : « سأخبرك عن ذلك فيما بعد أيها العزيز »

ثم صاح قائلا : « لينبأ المسيو فوكيه بانى أريد ان اكلمه امامكم
لا تنسحبا »

وهنا عاد المسيو دى سان اينيان وقال : « ان الملكة بخير ، وقد لزمتم
فراشها من باب الحيلة لتقوى على تحقيق جميع رغبات الملك »

وبينما كان البحث جاريا عن فوكيه وأراميس ، مضى الملك الجديد فى
أحاديثه هادئا دون ان يرتاب فى أمره أحد من أفراد الأسرة المالكة أو
الضباط ورجال البلاط والخدم . ولم يسعه أراء هذا الا أن يحمد الله وأن
يعجب بنفسه اذ أتقن تمثيل دوره ! .. غير انه مع هذا شعر بان ظلا يقف
بينه وبين مجده الجديد ، وذلك لأن أراميس لم يات ! .. ونسى فيليب فى
غفلته أن يصرف أخاه وقربنته هنريتا ، وقد دهش هذان وبدأ يفقدان
صبرهما .. وأنحنت الملكة آن على أذن ولدها وكلمته باللغة الأسبانية ،
وكان يجهل هذه اللغة جهلا تاما فامتقع وجهه أزاء هذه العقبة غير المتوقعة ،
ولكنه تجلد فلم يبد عليه اضطراب ، واكتفى بان نهض واقفا فقالت له
الملكة آن : « ماذا تريد ؟ »

فالتفت الى باب السلم الثانى وقال : « ما هذه الضجة ؟ »

وفى الوقت نفسه سمع صوت يقول : « من هنا .. من هنا ! .. بضع
خطوات أخرى يا مولاي ! »

فقال دارتانيان : « هذا صوت المسيو فوكيه »

وهنا قال فيليب : « اذن لا يمكن أن يكون المسيو دربلای بعيدا ! »

وما كاد يتم عبارته حتى ظهر القادمون ، واتجهت الأنظار كلها الى الباب
الذى كان ينتظر أن يلجئه المسيو فوكيه ، ولكن لم يكن فوكيه هو الذى
دخل .. بل ترددت فى القاعة صيحة رهيبة اشترك فيها فيليب وكل
الحاضرين ، فقد بدا امامهم فى الضوء الخافت منظر لم يكن أحد منهم يتوقع
ان يراه حتى فى الأحلام !

كان القادم هو الملك لويس الرابع عشر نفسه ، وقد وقف شاحب الوجه
مقطب الجبين بباب السلم السرى ، بينما ظهر وجه فوكيه ورائه !

وكانت الملكة الوالدة حين رأت هذا المنظر لا تزال ممسكة بيد فيليب ،
فصاحت مرتاعة كأنها أبصرت شبحا أمامها ! .. وذهل الأمير الأصغر وأخذ
يردد بصره بين أخيه لويس الرابع عشر الواقف بجانبه وبين هذا الآخر
الواقف بالباب وكأنه خيال فى المرآة ، وخطت الأميرة هنريتا خطوة الى
الأمام وهى تفرك عينيها غير مصدقة أن ما تراه حقيقة !

والواقع أن لويس وفيليب كان كلاهما شاحب الوجه يرتجف جسمه
وتنتقبض يداه وقد أخذ كل منهما يفحص الآخر بنظرانه وكان أعينهما
تتبادل السهام !

وكان لويس قد مر باللوفر وبدل ملابسه فبدا هو وفيليب كأنهما
شخص واحد !

ولم يكن فوكيه أقل دهشة وذهولا حين رأى فى فيليب تلك الصورة
الحية للملك لويس الرابع عشر وقال لنفسه : « ان أراميس معذور حقا فى
اختياره هذا الأسير ليحل محل شقيقه التوام وشبيهه الى هذا الحد ! »

ومضت دقائق ساد خلالها سكون رهيب ، وكان دارتانيان مستندا الى
الحائط امام فوكيه ، وقد وضع يده على جبينه يسائل نفسه : كيف حدثت
هذه المعجزة ؟ .. ثم اتضح له ما كان فى مسلك أراميس طول الأيام الأخيرة
من خفاء يرتاب فيه ! .. ثم بدا كأن الحاضرين جميعا يستيقظون بجهد من
نوم مضطرب . غير أن لويس كان أقلهم صبرا وأكثرهم اعتيادا للسلطان ،
فجرى الى إحدى التوافذ وفتحها على مصراعها فى عنف مزق ستائرهما ! ..
وما غمر الضوء المكان حتى تراجع فيليب الى الوراء فى حركة آلية ، وانتهز
لويس هذه الفرصة فخطب الملكة الوالدة قائلا : « أماه . ألا تعرفين ولدك
ما دام الجميع هنا لا يعرفون ملكهم ؟ »

فارتاعت الملكة آن ورفعت بصرها الى السماء دون أن تنطق ببنت شفة !
وعلى اثر ذلك التفت إليها فيليب بدوره وقال لها : « أماه .. ألا تعرفين

الوداع الاخير

افاد اراميس ويورتوس من الهلة التي اتاحها لهما فوكيه ، فاطلقا لجواديهما العنان ، ومضيا يطويان بهما المسافات الشاسعة بما عهد فيهما من براعة في الفروسية ، ولم يكن يورتوس يدري تماما نوع المهمة التي اشتركا في اداها ، ولكنه رأى اراميس يعدو به جواده ففعل مثله . فلما بدأ من (فو) بمقدار اثني عشر فرسخا ، وقفا لأول مرة لابدال الجوادين . وفي خلال ذلك سأل يورتوس اراميس همسا عما هما بسبيله فأجابه قائلا : « صه . يكفي أن تعلم أن حظنا يتوقف على سرعة جيادنا ! »

وكانما عاد يورتوس فارسا شابا كما كان في سنة ١٦٢٦ فاستحث جواده وقد فعلت فيه كلمة أرس عن الحظ والسرعة فعل السحر ثم حدث نفسه قائلا : « ترى أي حظ بجري وراءه الآن ؟ . ان الحظ عادة يعنى الكفاية لمن لا مال له ، ويعنى الكثير الوفير لمن عنده ما يكفيه . ولا شك أن اراميس يعنى أن الملك سيجعلني دوقا ! »

ولم يطق صبورا على الانتظار فصاح بأراميس قائلا : « اتعنى ان الملك سيجعلني دوقا ؟ . فلم يسع هذا الا أن ابتسم لسداحة زميله القديم وقال له : « ربما ! » . على أنه برغم ابتسامه وجلده كان يكاد ينفجر لشدة الخلق والغيظ ، فزاد في ركض جواده وحثه على ذلك بسببه تارة وضره تارة اخرى حتى سال الدم من جنبه واضطر يورتوس برغم جمود احساسه الي أن يزجر حانقا . وبقي الفارسان هكذا زهاء ثماني ساعات حتى وصلا الي (أورليانز) في الساعة الرابعة بعد الظهر . وأدرك اراميس أن اللحاق بهما فوق الاستطاعة ، وعلى هذا قرر الاستراحة حتى الساعة السابعة مساء ، على أن يستأنفا الرحلة لقطع الفراسخ العشرين الباقية امامهما بالسرعة نفسها ، وبعد ذلك لا يمكن لأحد - حتى دارتانيان نفسه - أن يدركهما !

وقبل أن يصلوا الي (بلوا) بيضعة فراسخ ، صادفتهما عقبة كاداء ، لم تكن في حساب اراميس ، فقد سقط جوادهما لفرط الاجهاد ولم تكن هناك جياد اخرى ليستأجرا اثنين منها بدلا من الجوادين المتعبين . وكاد اليأس يتملكه ، ولكنه تذكر فجأة أن الكونت دي لافير يقيم على مقربة من المنطقة التي بلغاها ، فقال للمشرف على محطة البريد :

- اننا لا نطلب جيادا لمسافات بعيدة ، بل يكفي أن تأتينا بعربة نصل بها الي رجل من النبلاء يقيم على مقربة من هنا !

« ابنك ؟ » . ولم يسع لويس الا أن يتراجع بدوره ! . أما الملكة الوالدة ، فقد اشتد بها اضطراب الذهن وقلق الضمير ففقدت توازنها ولم يهرع أحد لعونها فسقطت على كرسي وهي تنهد في ألم واعياء . ولم يقدر لويس أن يصبر على هذا المنظر وتلك المهانة فاندفع نحو دارتانيان وكان هذا قد بدأ يحس دوارا فاستند الي الباب وقال له الملك : « ياكابتن . انظر الي وجهينا وقل اينما أكثر شحوبا ، أنا أم هو ؟ »

فأبقت هذه الصيحة دارتانيان من ذهوله وحركت في نفسه عوامل الطاعة وهز رأسه ، ومضى بدون تردد صوب فيليب فوضع يده على كتفه قائلا : « سيدى . . أنك سجينى ! »

فلم يتحرك فيليب من مكانه ، وبقي واقفا كأنه سمر به واخذ يحدق في وجه أخيه الملك ، ولم يسع هذا ازاء نظراته الصامتة البليغة الا أن يطرق متأثرا ، ثم رفع رأسه بغتة وسحب أخاه الآخر وقرينته هنريتا ، خلفا وراءه امه الملكة جالسة بلا حراك ، وعلى مسافة ثلاث خطوات ولدها التمس الذي حكم عليه بالموت مرة أخرى !

وهنا اقترب فيليب منها وقال لها بصوت رقيق تغلبه العاطفة : « لو لم اكن ابنك لعنتك يا أماه اذ جعلتني بهذا الشقاء ! »

واحس دارتانيان رعدة تسرى في جسده وانحنى باحترام للأمر وقال له : « معذرة يا صاحب السمو . . انى لست الا جنديا وقد اقسمت بيمين الطاعة والولاء لذلك الذى غادر الفرقة توا ! »

فقال له فيليب : « شكرا لك . ولكن ماذا حدث للمسيو دربلاي ؟ » فأجاب صوت وراءهما : « ان المسيو دربلاي في امان يا صاحب السمو ، ولن يمس أحد شعرة في رأسه ما دمت حيا ! » . وكان فوكيه هو المتكلم ، فالتفت فيليب اليه وقال له بابتسامة حزينة : « شكرا لك يا مسيو فوكيه ! » وهنا ركع فوكيه امامه وقال : « معذرة يا صاحب السمو ! . ولكن ذلك الذى خرج الآن من هنا كان ضيفي ! »

فتمتم فيليب قائلا : « هاهنا اتاس شجعان دوو نفوس عالية . انكم تجعلوننى آسف على العالم . هيا بنا يا مسيو دارتانيان . . انى أتبعك ! » وفي اللحظة التي هم فيها قائد الفرسان بالخروج من الفرقة مع أسيره ، جاء المسيو كولير فسلم المسيو دارتانيان ورقة بها أمر من الملك ثم خرج ، وما ان قرأ دارتانيان هذا الأمر حتى سحق الورقة في يده ، فسأله فيليب : « ماذا فيها ؟ » . فلم يجب دارتانيان ، واكفى بان أعطاه الورقة

فقرا فيليب الاسطر الآتية وقد كتبها الملك بسرعة بخط يده : « على المسيو دارتانيان أن يذهب بالسجين الي جزيرة سانت مرجريت بعد أن يغطى وجهه بخوذة حديدية لا يستطيع رفعها الا بخطر على حياته »

فسأله رجل البريد عن النبيل الذي يقصدانه ، ولما علم أنه الكونت دي لافير خلع قبعته أجلا وقال : « انه نبيل عظيم حقا »

ثم سارع الى اعداد عربة ذات جواد واحد ، بينما كان بورتوس مسرورا معجبا بنفسه ، اذ حسب أنه أدرك أخيرا سر هذه الرحلة الغريبة ، وارتاح الى فكرة زيارة آتوس ، لشوقه الى لقاء هذا الصديق القديم ، ولحاجته الى التماس الراحة عنده في فراش وثير بعدما لقيه من جهد وارهاق ولما أعدت العربة أمر رجل البريد تابعا له بأن يسوقها براكبيها الى مزرعة الكونت دي لافير ، وجلس بورتوس الى جانب أراميس ثم همس في أذنه قائلا : « لقد فهمت ! »

فقال له أراميس : « وماذا فهمت يا صديقي ؟ »

فقال : « اننا قادمان من قبل الملك لتعرض على آتوس امرا عظيما ! . ليس كذلك ؟ »

وسكت أراميس مكتفيا بإبتسامة غامضة ، فواصل بورتوس كلامه قائلا : - لست في حاجة الى أن تخبرني عن ذلك الأمر ، ان في استطاعتى أن أدركه من تلقاء نفسى !

فقال أراميس : « حسنا ! » . ولم يزد على ذلك

ووصلا الى دار آتوس في الساعة التاسعة مساء ، وكانت الليلة مقمرة فزاد ضوء القمر من سرور بورتوس وتفاؤله ، ولما لاحظ على أراميس أنه ما زال ساهما ، قال له هامسا وهو يهم بالتزول من العربة :

- لا شك ان المهمة سرية يا أراميس ، على انى فهمت على كل حال !

ولم يجب أراميس ، بل نزل من العربة أمام القصر الصغير ، وذهنه مشغول بما هو فيه !



كان راعول قد غادر باريس بعد أن وقف على خيانة لافالير له . وراح يعزى نفسه بأن الجرح الذى أصاب قلبه كان له الفضل في أن يقربه من أبيه ، والواقع أن ذلك الجرح لم يكن قد اندمل ، ولكن أحاديث أبيه معه كانت تنزل على قلبه بردا وسلاما ، اذ أخذ هذا يعزيه ويرفه عنه بما يقص عليه من ذكريات شبابه ، محاولا أن يدخل في روعه أن الألم الذى يحسه ازاء خيانة حبيبته يكاد يكون لازمة من لوازم الحياة . على أن راعول كان كثيرا ما يصفى الى حديث والده بانتباه دون أن يفقه شيئا منه ، لعجزه عن تناسى ذكرى الحبيبة التى هجرته . وكان أحيانا يرد على حجج أبيه قائلا :

- أن كل ما تقوله حق ، ولعل أحدا لم يتألم من جراء عاطفته كما تألمت

انت ، ولكنك رجل خارق الذكاء حنكتك المآسى ، ولذا أرجو أن تغفو عن ضعف جندي شاب مثلى يتألم لأول مرة ، انى أذفج جزية لن أدفعها مرة أخرى . فاسمح لى أن أغوص في قرارة حزنى حتى أنسى نفسى !

وكان الكونت أول الامر يحاول أن يقنع ولده بأن خطيته لا تستحق منه الا الإهمال ، لتعمدها خيانه والاساءة الى كرامته . ولكن راعول قال له يوما وهو يحاوره : « يا سيدى : انى لا أقدر أبدا أن أعتقد أن لويز الطاهرة البريئة خدعت محبا صادق الحب مثلى ، أو أن وجهها العذب الجميل كان يخفى وراءه تلك الدعارة والدناءة ! آه يا سيدى ، ان هذه الفكرة أفسى على من الموت ! »

ومنذ ذلك اليوم لم يسع آتوس الا أن يعدل خطته ، فعمد الى وسائل جديدة لمواساة ولده وشفائه من ذلك الغرام المكين ، ومن ثم أخذ يدافع عن لويز قائلا له : « ان المرأة التى تستسلم للملك لا لشيء سوى أنه ملك تستحق أن توصف حقا بالفجور ، ولكن لويز تحب لويس لشخصه ، وهما فى غرامهما وشبابهما قد نسيا مركزيهما ، فهو قد نسى أنه الملك وهى قد نسيت يمين الاخلاص لك ، ان الحب يحرر الانسان من روابطه يا بنى ! »

وكان راعول حين يسمع مثل ذلك من أبيه يهرع الى الغابة أو يعتكف في غرفته ، ثم يعود اليه بعد ساعة فيقبل يده ويجلس بين يديه مستأنفا سماع نصائحه وارشاداته !

وهكذا مضت الأيام منذ ذلك الموقف الذى اختلف فيه آتوس مع الملك . غير أنه لم يشر الى ذلك الموقف اية اشارة وهو يحدث ولده ، ولم يذكر له قط تفصيل ما قاله للملك . حتى اذا لج راعول في سخطه وغضبه ، لم يسع والده أن يعارضه ، بل قال له بصوته الرزين : « انك على حق يا راعول . ولكن يجب على الناس جميعا ، رجالا ونساء ، حكاما ورعية ، أن يعيشوا في الحاضر لأن المستقبل بيد الله وحده ! »

وقد جرى هذا الحديث الاخير بينهما وهما يسيران معا في الطريق الذى تظلل اشجار الليمون في حديقة الدار ، وانهما لتلكاذ اذ وصل الى سمعهما زنين الجرس الذى يدق عادة عند اعداد المائدة أو قدوم زائر ، فاتجها صوب الدار ، وهناك عند نهاية الدرب وجدا نفسيهما وجها لوجه أمام أراميس وبورتوس !

ولما فرغوا من العناق والتحيات قال أراميس لصديقه القديم آتوس : « اننا لن نمكث معك طويلا يا صديقي »

فسأله الكونت : « ولم لا ؟ » . وكذلك التفت اليه راعول وفي نظراته مثل هذا التساؤل . وهم أراميس بأن يجيب ، ولكن بورتوس سبقه قائلا : « لن نمكث سوى الوقت الذى نحدثكما فيه عن الحظ السعيد الذى واتانى ! »

فاشدد عجب راعول ، بينما نظر أبوه فى صمت الى أراميس وكأنه لا يرى في الجدل البادى عليه ما يتفق مع ما قاله بورتوس . وبعد هنيهة قال راعول

لبورتوس وهو يتنسم : « ما هو ذلك الحظ السعيد الذي أتيتك ؟ »
فهمس بورتوس في أذن الشاب قائلاً : « ان الملك جعلني دوقاً ! »
وكان همس بورتوس كما هو شأنه دائماً من الارتفاع بحيث سمعه جميع
الحاضرين ، فبدت الدهشة في وجه آتوس وهم بالكلام ولكن أراميس أمسك
يده وانتحى به جانبا حيث قال له : « يا عزيزي آتوس .. انك تراني في
أشد حزن »

فقال الكونت : « في أشد حزن ؟ لماذا يا صديقي العزيز ؟ »
فقال أراميس : « لقد تأمرت على الملك وفشلت المؤامرة ، وأنا في هذه
اللحظة مطارداً بلا ريب ! »
فازدادت دهشة آتوس وقال : « مؤامرة على الملك ومطاردة ؟ ! ما هذا
الذي تقوله يا صديقي ؟ ! »

فتنهذ أراميس وقال : « هذه هي الحقيقة المؤلمة مع الأسف الشديد ! »
فسأله آتوس : « اذن ما معنى قول بورتوس ان الملك جعله دوقاً ؟ »
فاجاب بقوله : « ان هذا أشد ما يؤلمني يا صديقي . فانا قد أشركت
بورتوس في المؤامرة لشدة إيماني بنجاحها ، وسرعان ما اندفع اليها على
عادته بكل قوته ، دون أن يدري شيئاً من أمرها ، وهو الآن منهم مثلي وقد
ضاع كما ضعت ! »

وهنا التفت آتوس الى بورتوس ، فوجده يتحدث مسروراً مع راعول ،
بينما استطرده أراميس فقال : « يجب أن أطلعك على الأمر بحذافيره
يا آتوس »

ثم أخذ يقص عليه ما حدث . وكان آتوس يستمع له والعرق يتصبب
من جبينه ، وأخيراً قال له : « لقد كانت فكرة عظيمة . ولكنها كانت أيضاً
غلطة جسيمة ! »

فقال أراميس : « وأنا الآن ألقى جزائي عليها ! »

فسكت آتوس هنيهة ثم قال : « اذا شئت أن تسمع رأيي صريحاً
يا صديقي ، فانت قد جنيت على نفسك وعلى بورتوس المسكين أكبر
جناية . وكان عليك الا تنسى ان فوكيه رجل شريف لا يمكن أن يفرك على
تلك المؤامرة الخطيرة ، ولا سيما انك اخترت قصره لتنفيذها »

فقال أراميس : « لا شك أنني كنت أحمق اذ لم أعرفه على حقيقته ، على
ان الحرص والحذر لا يفنيان شيئاً عن المرء ازاء مشيئة الأقدار »
ثم سأله آتوس : « ماذا تعتزمه الآن وقد انتهى الأمر ؟ »

فاجاب قائلاً : « سأخذ بورتوس معي ، لأن الملك لن يصدق أبداً انه
اشترك معي في المؤامرة بحسن نية . ولا انه كان طول الوقت يعتقد انه
يخدم الملك . انه سيدفع رأسه تمناً لقلطتي وهذا لا يصح أن يكون »

فعاد آتوس يسأله : « الى أين تذهبان ؟ »

فقال : « سنذهب اولاً الى (بل - ايل) فهي مرفأ منيع ، ثم هناك البحر
وفي الامكان ركوب سفينة تصل بنا الى انجلترا حيث لي أصدقاء كثيرون ! »
وغمغم آتوس متعجباً : « أنت لك أصدقاء في انجلترا ؟ ! » . بينما واصل
أراميس كلامه فقال :

- وفي الامكان أيضاً أن نذهب الى أسبانيا حيث لي أصدقاء أكثر عدداً ،
وهناك أستطيع أن أحصل على عفو من لويس الرابع عشر ، وأن أعيد
بورتوس الى حظوته لديه !

فابتسم آتوس وقال : « انك تستمتع بنفوذ كبير يا أراميس »

فقال أراميس : « وسأكون في خدمة أصدقائي دائماً . انني لست وحدي
الساخط على لويس الرابع عشر ، ولينك وراعول تلحقان بنا الى (بل -
ايل) حيث أنه لن يمضي شهر واحد حتى يقوم النزاع بين أسبانيا وفرنسا
من أجل جيس فيليب ابن لويس الثالث عشر وهو أمير أسباني بتلك الطريقة
المنافية للانسانية ، ولما كان لويس الرابع عشر لا يعيل الى نشوب حرب
بشأن هذا الموضوع ، فانا كفيل بالوصول الى تسوية تأتي بالمجد لبورتوس
ولي ، وبدوقية في فرنسا لك أنت الذي صرت نبيلاً أسبانياً من قبل ! »

فقال آتوس : « شكراً لك يا صديقي العزيز ، ولكنني أوثر أن أبقى على
ما أنا عليه ، فهذا يتيح لي أن أشبع رغبتني في السمو على الملك ولومه كما
تعلم ، اما اذا نفذت اقتراحك فان ما أربحه من وراء هذا مهما يكن جزيلاً
لا يرازي تأنيب ضميري على اذلال كبرياء سلالتنا والنزول الى صفوف
اذناب الملك ! »

وهنا قال له أراميس : « اذن أعطني جوادين من عندك لتركبهما الى
المحلة الاخرى ، فقد رفض رجل البريد أن يعطيني جياداً بحجة أن دوق
بوفور اخذ جياده كلها ! »

فقال له آتوس : « سيكون لك أحسن جيادى يا أراميس . ومرة اخرى
أوصيك خيراً ببورتوس »

فابتسم أراميس وقال : « لك أن تظمئن عليه كل الاطمئنان »

فقال آتوس : « ان الملك لا يمكن أن يعفو عنه ، اما انت فان المسيو فوكيه
لن يتخلى عنك وان كان هو نفسه في موقف شديد الحرج برغم عمل البطولة
الذي قام به »

فاوماً أراميس موافقاً وقال : « أنت على حق . ولهذا أثرت أن أبقى على
أرض فرنسية بدل أن أجا الى البحر مباشرة ، هذا الى أن جزيرة (بل -
ايل) ستكون لي كما أريد ، سواء أحسبتها انجليزية أم أسبانية أم رومانية .
لأنني توليت تحصينها بنفسى ، وما دمت أتولى الدفاع عنها فلن يستولى
عليها أحد ، ثم ان المسيو فوكيه هناك كما قلت انت منذ لحظة . ولن تهاجم
الجزيرة الا باذنه وتوقيعه »

فقال آتوس موافقا: « هذا صحيح يا أراميس ، ولكن لا تنس أن الملك يجمع بين القوة والدهاء ، فكن دائما على حذر »

فابتسم أراميس وعاد آتوس يقول : « مرة أخرى أوصيك خيرا بيورتوس » . ثم شد على يديه مشجعا ومودعا ، وعادا الى حيث كان بيورتوس ما يزال منهما في الحديث مع راءول عن الدوقية التي ينتظرها ، فتعانقوا جميعا ، ثم خرج راءول ليأمر باعداد الجوادين طوعا لاشارة أبيه ، وقال بيورتوس في سداخته المحببة :

— حقا لقد ولدت تحت كوكب سعد . أليس كذلك يا آتوس ؟

فأوما آتوس موافقا ، وما كاد يرى صديقيه القديمين يهمان بالرحيل حتى أحس غشاوة على عينيه وضيقا في صدره ، وقال لنفسه : « لا أدري لماذا أميل الى أن أعانق بيورتوس مرة أخرى ؟ » . وكان الجوادان قد أعدا ، فنهض بيورتوس وعانق آتوس وراءول ثم ركب جواده ، وكذلك فعل أراميس . وبقي آتوس يرقبهما وهما يتعدان في الطريق برداءيهما الأبيضين ، وكانا أشبه بشبحين يكبران وهما يبعدان عن الأرض ، لكنهما لم يخفيا في الضباب مثل الأشباح ، بل اختفيا عند منحدر الطريق . وهنا عاد صوب الدار وهو يقول لابنه في صوت حزين :

— لست أدري ماذا دهاني ؟ أن قلبي يحدثني بأنى لن أرى هذين الصديقين مرة أخرى !

فقال راءول : « ان ذلك لا يدهشنى لأنى أنا أيضا شعرت بهذا الشعور ! » فقال أبوه : « انك يا عزيزى حزين لسبب آخر يجعلك ترى الأشياء كلها سوداء . على أنك ما زلت شابا فاذا قدر ألا ترى هذين الصديقين الشيخين مرة أخرى لأنهما لن يكونا في هذا العالم ، فان أمامك سنوات كثيرة تحياها ، أما أنا ... »

وسكت الكونت دون أن يتم عبارته ، فهز راءول رأسه أسفا ، ومال على كتف الكونت دون أن يجد أحدهما كلمة يقولها ليفرج عن قلبه المكروب وانهما كذلك اذا بأصوات تاتى من نهاية الطريق المؤدية الى (بلوا) وجياد ترمح بفرسانها وحملة مشاعل يجرون متفادين الجياد ، وكان هذا المنظر وسط الليل على طرفي نقيض من منظر أراميس وبيورتوس وهما يخفیان وسط الظلام !

بين الحب والحرب

ما كاد آتوس وراءول يعودان الى المنزل حتى رأيا ضوء المشاعل يغمر مدخله وسمعا صائحا يقول : « سمو دوق بوفور ! » . فجرى آتوس الى الباب ليستقبل الدوق القادم ، وكان هذا قد ترجل عن جواده ووقف ينظر حوله . فهتف به آتوس قائلا :

— انى هنا يا صاحب السمو

فقال الدوق : « عم مساء يا عزيزى الكونت . لعل الوقت ليس وقت زيارة . ولكن هذا لا يهم كثيرا بين الاصدقاء »

فاقترب منه آتوس مرحبا ، وصافحه الأمير بحرارة ، ثم دخل معه المنزل مستندا الى ذراعه ، وتبعهما راءول ومعه ضباط الأمير ، وكان يعرف كثيرا منهم . ولما وصلا الى غرفة الجلوس أراد أن يتركهما وحدهما فيها ليلحق بأولئك الضباط فى الغرفة الاخرى التى نزلوا فيها ، ولكن الدوق لمحّه فقال لبوالده :

— دعه يبق معنا . انه جندى من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وقد سمعت عنه نناء كثيرا من المسيو (لى برانس)

فصاح آتوس بولده : « ابق معنا يا راءول ما دامت هذه ارادة الدوق » وقال الدوق وهو ينظر الى الفتى مليا : « انه طويل القامة وسيم الوجه . ألا تعطينى اياه يا كونت ؟ »

فقال له آتوس متعجبا : « أعطيك اياه ؟! ماذا تقصد يا صاحب السمو ؟ »

فقال الدوق : « لقد جئت اليك لكى أودعك ، ولعلك لا تدري أى مصير اخترته لنفسى أو اختاره لى الملك ! »

فقال آتوس : « أنا أعرف أنك أمير باسل وسيد كامل »

وواصل الدوق كلامه قائلا : « سأصير أميرا افريقيا وسيدا من أسيايد البدو ! ان الملك عهد الى فى القيام بفتوحات فى افريقية »

فازداد تعجب آتوس وقال : « ما هذا الذى تقوله يا صاحب السمو ؟ »

وقال الدوق وهو يبتسم : « انه لأمر عجيب حقا أن أنتقل الى هناك أنا الباريسى حاكم الضواحي الذى لقبه الناس بملك الاسواق ، وأحد قواد



الحرب الداخلية . ولكن هذه هي الحقيقة يا صديقي ، وعمما قريب يتم اعداد الحملة وابحارها الى تلك الاصقاع »
فقال الكونت : « حقا ؟ لولا أنك قلت لي ذلك بنفسك ما كنت لأصدق حرفا منه ! »

فقال الدوق : « هذه عاقبة العودة الى المحطة عند الملك يا صديقي ، ولكنك لم تعلم بعد يا عزيزي الكونت لماذا قبلت هذه المهمة ؟ »
فقال الكونت : « أنا أعلم أن سموك تبحث عن المجد قبل كل شيء »

فابتسم الدوق وقال : « أكبر الظن أنني سألقى هناك شيئا غير المجد ! لقد أردت يا صديقي أن تكون لحياتي هذه الخاتمة بعد كل الأهواء التي اتبعتها خمسين سنة . وأية خاتمة أروع من هذه ، لحياة انسان مثلي ولد حفيدا لملك واشترك في حروب ضد ملوك ، واستطاع أن يحتفظ برتبته وأن يكون قائد البحرية الفرنسية ؟ » اني ذاهب الى (جيغلي) بأفريقية يا عزيزي الكونت لكي أقتل هناك بين الأتراك والمغاربة ! »
فقال آتوس : « كيف تقول ذلك يا صاحب السموم ؟ كيف تتصور أن حياة مجيدة كحياتك يمكن أن تنطفئ هكذا في عتمة وشقاء ؟ ! »

فنظر اليه الدوق متعجبا وقال : « لا تظن يا عزيزي أنني بانهاه حياتي على هذا النحو في افريقية سأكون مقبونا ؟ ! ولا تنس أنني سأجعل الناس يتحدثون عن فعالى هناك ويدكرون اسمي بجانب (لي برانس) و (دي تورين) وغيرهما من الأبطال المعاصرين . وهكذا تجد أنني لم يبق أمامي سوى أن أرحل الى ميدان القتال لأظفر بتلك الخاتمة الرائعة ان لم يكن في شمال افريقية ففي بقعة أخرى من الارض ! »
وهنا قال له آتوس : « انك تغالي يا صاحب السموم ، وما عهدتك قبل الآن مغاليا الا في اظهار الشجاعة ! »

فابتسم الدوق ساخرا وقال : « يا صديقي العزيز . ان الشجاعة الآن هي مواجهة داء الاستقربوط ومرض الدوسانتاريا والجراد والسهام السامة كما فعل سلفي (سان - لويس) . نعم ان القوم هناك لا يزالون يستخدمون السهام السامة في حروبهم ، وأنت تعرفني حق المعرفة ، وتعرف أنني اذا عزمتم على أمر فاني أبذل فيه قصارى ما أمك من جهد ونشاط »
فقال آتوس مبتسما : « أجل يا صاحب السموم ، أنا أعرفك حق المعرفة ، ولم أنس بعد تصميمك على الفرار من (فينسين) منذ سنين »
فقال له الدوق : « وأنا لم أنس مساعدتك لي في ذلك . ولهذا المناسبة أين المسيو (فوجريمو) ؟ ألم يأت معك الى هنا ؟ »

فقال آتوس : « ان جريمو لا يزال خادما المخلص ، وستراه الآن »
فقال الدوق : « حسنا ! ان معي مائة يستول أحضرتها معي تنفيذا لوصيتي التي أعدتها ! »

وهنا ضحك الدوق ثم التفت الى راعول وقال له : « اني أعلم أن عندكم هنا مقدارا من نبيذ فوفراي وأحسب . . . »

فخرج راعول من الغرفة فورا لكي يأمر باحضار النبيذ ، وعندئذ أمسك الدوق بوفور بيد آتوس وسأله : « ماذا اعترمت أن تصنع بهذا الشاب ؟ »
فقال آتوس : « لا شيء في الوقت الحاضر يا صاحب السموم »

فقال الدوق : « اذن فالأمر صحيح ! عجيب حقا أن يقع الملك في غرام تلك الفتاة ، وأظن أنني رأيت لافالير هذه . . . انها ليست فائقة الجمال ! على أنها تذكرني بسيدة لطيفة كانت أمها تقيم في هالي ، ألا تذكر يا كونت ؟ »

فابتسم آتوس وزفر زفرة حري ، بينما استطرده الدوق فقال : « ما كان أجمل الايام الماضية ! أجل ان لافالير تذكرني بابنة تلك السيدة »
فقال آتوس : « لقد كان لها ابن أيضا ! . . . اليس كذلك ؟ »

فقال الدوق : « نعم ، أظن أنها كان لها ابن . . . لكن خبرني أولا يا كونت : هل راعول غاضب لأن الملك أخذ منه فتاته ؟ »
فاجاب آتوس قائلا : « انه فعل ما هو خير من ذلك . . . لقد اعتزل القصر الملكي ! »

فقال الدوق متعجبا : « اذن . . . لماذا تدعه للصدأ يعلوه هنا ؟ انك مخطيء يا كونت . أعطني اياه ! »
فقال آتوس : « الواقع أنني أحب أن أبقيه معي ما دام يقبل هذا ، وبخاصة أنني ليس لي ابن سواه ! »

فقال الدوق : « اني أتبين فيه معدن الرجولة الذي خلق منه قواد فرنسا العظام . وتظري لا يخطيء ! »
فهز الكونت رأسه أسفا وقال : « ماذا نصنع يا صاحب السموم ؟ ان الملك وحده هو الذي يرفع الضباط الى مرتبة القواد . وراعول لن يقبل أي شيء من الملك ! »

وقطع حديثهما أن عاد راعول للمغرفة ، وخلفه جريمو يحمل صينية عليها زجاجة من النبيذ الذي يؤثره الدوق ، ولما رأى هذا محسوبة القديم صاح صيحة فرح وقال : « جريمو ؟ عم مساء يا جريمو . . . كيف حالك ؟ »

فانحنى الخادم بين يديه في اجلال ووجهه يفيض بالسرور ، بينما ربت الدوق كتفه ملاطفا وقال للكونت : « اننا صديقان قديمان ! » ثم نظر الى الصينية وقال : « ما هذا يا كونت ؟ كاس واحدة ؟ »

فقال الكونت : « انه ليس لي أن أجرؤ على الشرب مع سموك الا اذا أذنت لي في ذلك ! »
فقال الدوق : « أهكذا . . . اذن قد أصاب جريمو اذ جاء بكاس واحدة لآتنا سنشرب منها معا ! »

فالتفت إليه الدوق وقال له : « ماذا تقول يا صنديقي ؟! ومن الذي تخدمه إذن ؟! » لقد مضى العهد الذي كان يمكنك أن تقول فيه : اني من جيش دوق بوفور ! اننا الآن كلنا في خدمة الملك كبارا وصغارا . فأنت اذ تصبح من رجال اسطولي يا عزيزي الفيكونت ، ستكون في خدمة الملك ولا شك ! »

ونظر آتوس الى راعول منتظرا ما يجب به وقد أمل أن يكون فيما ذكره الدوق عقبة في سبيل ذهابه معه ، ولكن هذا أجاب قائلا : « يا سيدي الدوق .. لقد فكرت في الأمر . وسأخدم على ظهر سفنك لان هذا يشرفني ، ولائتي في الوقت نفسه سأكون في خدمة سيد أعظم سلطانا من الملك . سأكون في خدمة الله ! »

وتبادل الدوق والكونت نظرة متسائلة . فمضى يوضح الأمر قائلا :

– الواقع أنني اعتزمت أن أصبح فارسا من فرسان مالطة ! أن أهب حياتي كلها خالصة لله !

فترجع آتوس من هذه الصدمة الجديدة وغلب التأثير الدوق ، وسقطت من يد جريمو زجاجة النبيذ وتحطمت دون أن ينتبه اليها أحد . ثم نظر الدوق الى راعول مليا فلما تبين صدق العزم في ملامحه سكنت ولم يقل شيئا . أما آتوس فكان يعرف قوة ارادة ولده ، ولهذا لم يجد فائدة من محاولة ارجاعه عن عزمه . فضغط يد الدوق الممدودة اليه ساكتا ، وقال هذا وهو يودعه : « سأسافر بعد يومين الى طولون ، فهل تقابلني في باريس لأعرف ما عولت عليه ؟ »

فأجابه الكونت : « سيكون لي شرف مقابلتك في باريس لكي أقدم لك شكري على عطفك الجم ! »

فقال الدوق : « إذن .. لا تنس أن تحضر الفيكونت معك ، سواء أكان سيذهب معي أم لا . لقد أعطيته كلمتي ولكن بقي أن أعرف كلمتك أنت ! » ثم جذب الدوق أذن جريمو ملاطفا ، ومضى الثلاثة يودعونه حتى ركب جواده وانطلق به ومن خلفه ضباطه على جيادهم ، وسرعان ما انطلقت بهم الجياد مسرعة بعد أن أخذت كفايتها من الراحة !

وحينما خلا آتوس الى راعول قال له : « أبعد يومين تكون قد تركتني الى الأبد يا راعول !؟ »

فأجابه بقوله : « انني يا سيدي كنت قد اعتزمت أن أظن قلبي بسيفي ولكنني عدلت مخافة أن تعد هذا جينا من ولدك . وهذه هي فرصة طيبة قد لاحت لانقاذي من ذلك المصير المهين ، ومن ميتة أحقر وأمر اذا أنا بقيت هنا فريسة للحزن أو الحب الخائب ! »

وأوى آتوس الى فراشه بعد ذلك . أما راعول فذهب الى الحديقة ومضى بقية الليل تحت أشجار الليمون هناك !

فقال آتوس : « ان هذا شرف كبير لي يا صاحب السمو » وملا الدوق الكأس وشرب بعضها ثم ملاها وناولها لآتوس فشربها وأعادها أمام الدوق ، فأخذ يملؤها قائلا : « اني لا أزال ظمآن ! » ثم التفت الى راعول وواصل كلامه قائلا : « ثم اني أريد أن أشرب نخب هذا الشاب الوسيم . اني أحمل معي حسن الحظ يا فيكونت ! وفي استطاعتك أن تمنني أي شيء يخطر ببالك وأنت تشرب من كأس هذه فتتحقق أمنيتك ! » ومد الى راعول يده بالكأس ، فتناولها وتجرعها مرة واحدة ، ثم انحنى للدوق قائلا : « لقد تمنيت شيئا يا صاحب السمو ! وأرجو أن تنجز وعدك بتحقيق أمنيتي ! »

فقال له الدوق مبتسما : « لك هذا يا فيكونت ! ماذا تمنيت ؟ »

فقال راعول : « تمنيت أن أصبح سيدي الدوق الى جيغلي ! »

فامتقع وجه آتوس ولم يستطع أن يخفي تأثره ، ونظر الى الدوق كأنه يريد أن يعاونه على تحمل هذه الصدمة . ثم قال لراعول : « حسنا جدا يا عزيزي الفيكونت . ولكن والدك يجب ألا تتركه . على أنك على صواب . فليس هنا ما تستطيع عمله ، وليس هنا ما ينسبك ما تحاول نسيانه ! » فاحمر وجه راعول ، بينما استطرد الدوق فقال : « ان في القتال تسلية عظيمة ولا شك ! ونحن نكسب به كل شيء ، ولا نخسر سوى شيء واحد هو الحياة ! »

فقال راعول : « حتى في هذه الحالة يكون هناك كسب عظيم ! »

وقد ندم على هذه الكلمة ، لأن أباه قام على أثرها وتظاهر بفتح النافذة لكي يخفي تأثره ، وهم راعول أن يلحق به ، ولكن آتوس كان قد تمالك جأشه فعاد الى مجلسه باذى الهدوء والسكينة ، ثم قال الدوق : « اذا ذهب معي راعول فسيكون أركان حربي ، بل سيكون ولدي ! » فجننا راعول على احدي ركبتيه بين يدي الدوق وقال : « شكرا كثيرا يا صاحب السمو ! »

وقال آتوس وهو يمسك بيد الدوق : « ان راعول سيفعل ما يعجبه ! »

فقال راعول : « لا .. بل سأفعل ما يعجبك أنت يا أبتاه ! »

فصاح بهما الدوق قائلا : « سيكون ما يعجبني أنا ! وقد قررت أخذك معي يا عزيزي راعول .. ان البحرية تهى لك مستقبلا باهرا ! »

فابتسم راعول ابتسامة حزينة كان لها في نفس أبيه أثر شديد فنظر اليه نظرة صارمة . ثم قام الدوق وقد لحظ أن الوقت تأخر به وقال : « اني على عجل ! ولكن اذا كنت قد ضيعت وقتنا في التحدث الى صديق قديم فقد كسبت جنديا بارعا ! »

فقال له راعول : « معذرة يا صاحب السمو ، أرجو ألا تخبر الملك بذهابي

معك لاني لا أقصد أن أخدمه ! »



١٩٧٦

« وإذا بالصندوق يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة »

ذو القناع الحديدي

مضت الرحلة في سبيلها ، وكان آتوس وولده يقطعان أرض فرنسا من الشمال الى الجنوب بمعدل خمسة عشر فرسخا في اليوم . ووصلا أخيرا الى طولون بعد سفر أسبوعين وقد فقدوا كل أثر لدارتانيان في الاثني عشر . وأدركا أن قائد الفرسان قد حرص في طريقه على اخفاء شخصيته . وقد أسف راعول إذ لم يقابل دارتانيان فقد ود لو يودعه ويلتصم العزاء من صلاته . وكان آتوس يعلم أن دارتانيان يصيبه اليكف كلما أراد القيام بمهمة في خدمة الملك !

ولما بدأ راعول يجمع عمارته البحرية ليرسلها الى طولون ، علم الكونت من أحد صيادي السمك أن سفينهته يجري إصلاحها بعد رحلة قامت بها لحساب سيد استأجرها منذ ستة أيام للتوجه الى جزيرة (سان - أونورا) وكان مع ذلك السيد صندوق كبير وعربة أصر على أخذهما معه . ولما عارض الصياد كان جوابه أن ضربه بعصاه ضربات موجعة على كتفيه ، فشكاه الصياد الى رئيس نقابته في الاثني عشر ، وما كاد هذا يطلع على ورقة أبرزها له ذلك السيد حتى انحنى اجلالا له وأمر بوجوب الامتثال لمشيئته دون أية معارضة .

فقال له آتوس : « كيف أصيبت سفينتك ؟ »

فأجاب الصياد : « ان ذلك السيد غير رأيه في الطريق الى (سان أونورا) وطلب التوجه الى جزيرة سان مرجريت ، وقد حاولت أن أعصى أمره ولكنه أمسكني من عنقي وهددني بأن يخنقني ! ثم حدث أن هجمت عليه بمساعدة زميلي ومع كل منا بلطة لكي ننتقم منه ، ولكنه سرعان ما جرد سيفه وأخذ يعمل بطريقة عجيبة حالت دون اقتربنا منه ، وهنا هممت بأن أرميه بالبلطة التي معي ، وإذا بالصندوق الذي معه يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة وعلى وجهه قناع أسود جعل منظره بشعا مخيفا ، ثم اقترب الشبح مني مهددا بقبضة يده ! »

فسأله آتوس : « من كان ذلك الشخص أو الشبح كما تسميه ؟ »

فقال الصياد : « لقد كان الشيطان نفسه ، ولكن السيد خاطبه عندئذ قائلا : (شكرا لك يا صاحب السمو) .. »

فتمتم الكونت وهو ينظر الى راعول قائلا : « انها لقصة عجيبة ! »

وسأل راعول الصياد : « ماذا فعلت أنت بعد ذلك ؟ »

هنا ! » . ثم وجه كلامه الى مصدر الطلقات قائلا : « اهبطوا الينا ايها الجناء ! »

وهز راعول قبضة يده صائحا : « أجل اهبطوا الينا ! »

وهم أحد المهاجمين أن يطلق الرصاص ، ولكنه لما سمع صيحة آتوس وراعول رد بصيحة دهشة ، ودفع بندقية زميل له ، فانطلقت رصاصتها في الهواء . ثم اختفيا من الشرفة ، فانتظر آتوس وراعول أن يأتيا اليهما ، ووقفا ينتظران في ثبات وعزم . وبعد خمس دقائق قرع طبل لدعوة الجنود الثمانية الذين بالحصن الى التاهب ، فظهروا على الجانب الآخر من الحفرة وبنادقهم في أيديهم . وكان على رأسهم ذلك الضابط الذي كان أطلق الرصاص ، ورآه راعول يأمر جنوده بأن يستعدوا فصاح بأبيه قائلا : « انهم سيطلقون علينا الرصاص ، فلنجرد السيف ولنقفز الى الحفرة . وسنقتل اثنين على الأقل من هؤلاء الاوغاد حين تفرغ بنادقهم ! »

وقرن القول بالفعل وهم بالقفز وأبوه من ورائه ، واذا بهما يسمعان صوتا مألوفاً يصيح بهما قائلا : « آتوس ! راعول ! » - فصاحا معا : « دارتانيان ! »

ثم سمعاه يأمر الجنود بانزال بنادقهم ، وبعد دقيقة كان بجانبهما فسأله آتوس : « ما معنى هذا كله ؟ لقد أوشكنا أن نقتل دون تحذير ! »

فقال دارتانيان : « لقد كنت أنا الذي سأطلق عليكما الرصاص ، ولو أخطأ الحاكم المرهبي لما أخطأته أنا يا صديقي العزيزين . ولكن من حسن الحظ اني اعتدت أن أمضي وقتا في تصويب البندقية بدلا من أن أطلقها فور رفعها ، ولقد حسبت اني عرفتكما . أه يا صديقي العزيزين : ما أسعدني ! »

ومسح العرق الذي كان يتصبب من جبينه اذ كان قد أتى يجرى . فقال له آتوس : « كيف ذلك ؟ ولماذا يطلق الحاكم علينا الرصاص ؟ »

فقال : « لانكما التقطتما الطبق الذي رماه السجنين لكما ، وقد كتب بأسفله شيئا . أليس كذلك ؟ »

ولما أجابا موافقين ، تناول الطبق منهما في فزع شديد ثم قال : « ها قد جاء الحاكم فاسكتا ! آه لو علم انكما استطعتما الاطلاع على السر الذي كتبته السجنين ! اني أحبكما أيها الصديقان العزيزان ولا أتردد في أن أقديكما بنفسى ولكن ما كنت لانتقدكما من السجن المؤبد ان أنقذتكما من الموت . فاسكتا الآن ! »

وجاء الحاكم بعد أن بسطت له قنطرة مر عليها فوق الحفرة ، ونظر الى دارتانيان وقال له : « والآن ماذا يمتعنا ؟ »

فهمس دارتانيان لصديقيه : « انكما اسبانيان ولا تعرفان كلمة فرنسية ! » ثم قال للحاكم : « لقد كتبت على صواب . ان هذين السيدين ضابطان

فأجاب : « انك تعرف يا سيدي أن رجلين مثلي وزميلي لا يستطيعان أن يواجهوا خصمين عنيدين أحدهما شيطان ، وعلى هذا قفزنا الى الماء نطلب النجدة ، بينما مضت السفينة الى سانت مرجريت تساعدها ريح غربية . ولما استعدناها بعد ذلك لم نجد بها أحدا ، وقدمت شكوى الى حاكم الجزيرة فأنذرتني بالجلد اذا ضايقته مرة أخرى بمثل هذه القصة مؤكدا سخافتها ، برغم التلف الذي أصاب السفينة وطلب النجار لاصلاحه مائة وعشرين ليفر ! »

وهنا قال الكونت للصيد : « سننصفك من الخدمة » . ثم صرفه وقال لراعول : « سنذهب الى سانت مرجريت . أليس كذلك ؟ »

فقال راعول : « أجل يا سيدي ، ويخيل الى أن ذلك الصيد لم يصدقنا القول »

فقال الكونت : « هذا ما أرجحه أنا أيضا . ولعل ذلك الصندوق كان يحتوي على مؤونة مهربة . غير أني أخشى أن يكون ذلك السيد هو دارتانيان ، وأن يكون ذلك الصيد وزميله قد نالا منه ما عجزت عنه السيوف والرصاص خلال أربعين سنة ! »

وفى اليوم نفسه أبحرا قاصدين الى سانت مرجريت على ظهر زورق جنيء به من طولون . ولما هبط أرض الجزيرة سرا بمنظرها اذ كانت أرضها مملوءة بالازهار والفاكهة . وكان الجزء المزروع بها بستانا للحاكم ، به أشجار البرتقال والليمون والتين ، وكانت العصافير الملونة تنتقل بين الأشجار والغصون . وكلما سار آتوس وراعول صادفهما أرنب برى روع من مرأهما . وكانت هذه الجزيرة غير مسكونة وأرضها مبسوطة وبشاطئها خليج صغير يصلح لرسو السفن وابعارها . وكان مهربو البضائع يستخدمونها مرقاً لهم تحت حماية الحاكم الذي يشاركهم أرباحهم ، ويقطن قلعة تحيط بها بركة عميقة تحميها ولها ثلاثة أبراج

وطاف آتوس وراعول حول سباح الحديقة دون أن يلحقا أحدا يقدمهما الى الحاكم . وأخيرا دخلا الى الحديقة - وكان ذلك في أشد ساعات القيلولة - فلم يريا أحدا فيها أول الأمر ، ثم وجدا جنديا يحمل بسلة مملوءة بالمؤونة فوق رأسه ، ولكنه سرعان ما اختفى خلف كشك الديدبان ، ثم سمعا بقتة صوتا يصيح بهما من خلال قضبان نافذة ، وأبصرا يدا تلوح بشيء أبيض لامع سقط على الارض ، فجرى راعول نحوه والتقطه فوجده طبقا فضيا كتب عليه بحافة سكين ما يأتي : « اني أخو ملك فرنسا . اني سجين اليوم وقد آكون مخبول العقل غدا . أيها السادة الفرنسيون المسيحيون : صلوا لله من أجلى ! »

وسقط الطبق من يد آتوس بينما كان راعول يحاول أن يفهم معنى لهذه الكلمات ، وفى اللحظة نفسها سمعا طلقة من البرج الاوسط، ومرت فوقهما رصاصة أطلقت من البرج . فصاح آتوس قائلا : « رياه ! ان الناس يقتلون

فأجاب الكونت : « بل أعتقد أنه لم يكتب الا الحقيقة » . وأضاف راعول الى ذلك قوله :

« لو أنه كان غير صادق ما أمرك الملك بأن تقتل كل من يسمع قصته ! فقال له قائد الفريسيان : « لا تنس أن كل فرية مهما يكن من سخافتها يسهل رواجها بين الشعب ! »

فقال آتوس : « كلا يا دارتانيان ! بل قل أن الملك لا يريد أن يشيع سر أسرته بين الناس فيوصم بالعار ! »

فقال له دارتانيان : « لا تتكلم هكذا كالاطفال يا آتوس ، انك لم تفقد عقلك لكي تصدق خرافة ان لويس الثالث عشر له ابن هنا في جزيرة سانت مارجريت ! »

فقال الكونت في هدوء : « ولم لا أصدق هذا وأنت قد جئت به الى هنا في سفينة صيد ؟ »

فسأله دارتانيان متعجبا : « من أين علمت أنني جئت في سفينة صيد ؟ »

فأجاب : « انني أعلم كل شيء يا صديقي ، ألم يكن معك في السفينة صندوق به هذا السجين ، وكنت تخاطبه بلقب صاحب السم ؟ »

فغض دارتانيان على طرف شاربه من الغيظ وقال له : « على كل حال اذا صح اني جئت الى هنا في سفينة ومعى سجين في صندوق فليس في ذلك ما يدل على أن هذا السجين أمير من البيت المالكي في فرنسا ! »

فأجاب آتوس في برود : « انك لا تعلم أنني قابلت أراميس بعد حبوط مشروعة في فو ! وقد قصص على ما يكفي لأن أصدق الشكوى التي كتبها ذلك الشاب البائس ! »

فارتسم الحزن على وجه دارتانيان وقال : « هكذا تتبدد ارادة الانسان سماعاً أمام ازادة الله ! انني يا آتوس لا لعن الظروف التي جعلتك تقف على هذا الذي وقفت عليه ، لانني الآن ... »

فقطع آتوس كلامه قائلاً بصلابته المعتادة : « هل ذاع سرك لانني وقفت عليه ؟ سل ذاكرتك يا عزيزي : ألم تكن في صدري أسرار لا تقل شأناً عن هذا السر ؟ »

فقال دارتانيان في أسف : « لكن هذا السر أخطر كثيراً ، انه مشنوم يجلب النحس ، ويخيل الى أن كل من وقف عليه سيموت ميتة غير سعيدة ! »

فقال آتوس : « لمن يكون الا ما يريده الله ! » ثم بدا الحاكم قادماً ، فعاد دارتانيان وصديقه يمثلون دورهم . وكان الحاكم سيء الظن قاسي القلب لكنه كان يعامل دارتانيان باجلال كبير ، وعلى هذا حرص طول وقت تناول الطعام على احترام ضيفيه ، ولكنه في الوقت نفسه لم يحد عنهما بصره . وحاول أكثر من مرة ارباكهما بهجوم مفاجيء في الحديث ، ولكنهما لزمنا جانب الحذر ، فلم يبد منهما ما يجعله يشك في أنهما اسبانيان لا يعرفان

اسبانيان عرفتهما السنة الماضية في (ايبير) . وهما لا يعرفان أية كلمة من الفرنسية ! »

فقال الحاكم : « ومع هذا كانا يحاولان أن يقرأ ما كتب على الطبق ! فأمسك دارتانيان الطبق بيده ومحا الكتابة بطرف سيفه . بينما صاح به الحاكم : « ماذا تفعل ؟ اني لا أقدر أن أقرأ الآن ما كان مكتوباً ! »

فقال دارتانيان : « انه سر من أسرار الدولة ، وبناء على أمر الملك ليس لأحد أن يقف على هذا السر والا كان الموت جزاءه ، فلا مانع عندي من أن أدعك تقرؤه ثم تعذب بالرصاص توا ! »

وفي خلال هذا الحوار الذي يتخلله الجدل والهزل معا ، كان آتوس وراعول ساكتين بشكل يدل على غاية الهدوء وعدم الاكتراث . ثم قال الحاكم لدارتانيان : « ولكن ألا يعرف هذان السيدان على الأقل بعض كلمات فرنسية ؟ »

فقال له : « لنفرض أنهما يعرفان بعض كلمات للحديث فأنهما لا يقدران أن يقرأ ما هو مكتوب . انهما لا يعرفان أن يقرأ حتى الكتابة الاسبانية . تذكر أن النبلاء الاسبانيين لا يليق بهم أن يعرفوا القراءة والكتابة ! »

فاضطر الحاكم الى أن يقنع بهذا الايضاح ، ولكنه كان عنيدا فقال لدارتانيان : « ادع هذين السيدين الى دخول القلعة »

فقال له : « هذا يسرني وقد كدت أعرض عليك ذلك »
والواقع أن دارتانيان كان يتمنى لو كان صديقه على بعد مائة فرسخ ، ولكنه اضطر الى أن يجارى الموقف . ثم خاطب آتوس وراعول باللغة الاسبانية موجها اليهما الدعوة فقبلاهما ، واتجهوا جميعا نحو مدخل القلعة ، بينما عاد الجنود الثمانية الى راحتهم التي قطعها عليهم وقوع ذلك الحادث غير المنتظر !

ولما دخلوا القلعة قال آتوس لدارتانيان : « الا تقول كلمة توضح هذا اللفظ ؟ »

فقال دارتانيان : « ان الأمر لا يعدو أنني جئت الى هنا بسجين أمر الملك بالأبراه أحد ، وقد كنت أتناول الغداء مع الحاكم فرأيت الطبق الذي قذف به من نافذته والتقطه راعول ، فحسبت أنكما على موعد معه وأمرت بأن يطلق عليكما الرصاص »

فقال له آتوس : « لو انك قتلتني يا دارتانيان لكان هذا من حسن حظي اذ كنت أموت في سبيل البيت المالكي بيدك أنت أنبل من يدافع عنه ! »

فسأله دارتانيان : « ماذا تعنى بذكر البيت المالكي هنا ؟ انك لا يمكن أن تصدق ما كتبه رجل معتوه ؟ »

فقال راعول : « انى لا أرضى ذلك لنفسى فانه أمر مهين ! »

فقال له دارتانيان : « كلا ! » ليس بالأمر المهين أن تخضع لقوة أقوى من ارادتك . وإذا كان قلبك يقول لك : (اذهب اليها أو مت) فاذهب اليها دون تردد ! .. انها كانت شجاعة حقاً بل كانت أشجع النساء حين آثرت الملك عليك ، فلماذا تكون أنت أقل شجاعة منها !؟ »

فقال راعول : « كلا ! » لست أريد أن أراها ثانية ، لاني لا أريد أن أنسى حبها ، وعلى هذا أرجو منك أن تسلمها هذا الخطاب الذي كتبته في الليلة الماضية . وهذا هو فقرأه لترى انى على حق ! »
ثم ناوله الخطاب فقراً دارتانيان فيه ما يلي :

« يا آنسة . انك في اعتقادي لم تخطئي اذ لم تحبيني وانما ارتكبت ذنباً واحداً نحوى هو أنك تركتني أعتقد انك تحبيني . على انى اذ أصفح عنك لا أقدر أن أصفح عن نفسي . وقد قيل ان المحبين السعداء في حبههم تصم آذانهم عن سماع شكوى المحبين المنبوذين ، ولكنى على يقين من اننى أستطيع أن أقلب صداقتك لي حبا حين لا تخشين وجودى ولا لومي . فهما يكن الغرام الحديث ذا فتنة لك ، فان الله لم يجعلنى دون الذى اخترته لنفسك فى شيء ، وستحبيننى لأن اخلاصى وتضحيتى ونهايتى المؤلمة ستجعل لي فى نظرك امتيازاً على الآخر . ان كثيراً من الناس أكدوا لي انك أحببتنى الى حد ما ، وفى هذا ما يكفى لي زيل من قلبى كل أثر لما حدث ، فاقبل منى هذا الوداع الأخير ، وستباركيننى لاننى التمسيت لنفسى ملاذاً يبعث فيه كل بغض ، ويدوم فيه كل حب الى الأبد . وداعاً يا آنسة ، وثقى بأن سعادتك لو كانت تشتري بأخر نقطة من دمي لما ضننت بها ! .. راعول فيكونت دى برجلون »

وقال دارتانيان بعد أن قرأ الخطاب : « انه لا بأس به ، ولكنى أحبك به عينا واحداً ، فقد ذكرت فيه كل شيء ما عدا الشيء الذى ينبعث كالسهم القاتل من عينيك ومن قلبك ، وهو ذلك الحب الذى لا معنى له والذى يكاد يلتهمك . لماذا لم تكتب لها بكل بساطة قائلاً : (يا آنسة .. انى بدل أن المنك ، أحبك وأموت) !؟ »

فقال راعول مبتهجا : « صدقت يا سيدي ! » ثم تناول الخطاب من يد دارتانيان ومزقه ، وكتب بدلا منه أسطراً على رقعة ورق أخرى وقدمها لدارتانيان فقراً فيها :

« لكى أسعد بأن أقول لك مرة أخرى انى أحبك ، أرانى انحط الى الكتابة اليك . ولهذا سأموت لأعاقب نفسي على هذه الدناءة » . ثم قال لدارتانيان : « أرجو أن تعطيتها هذه الورقة يا كابتن ، فى اليوم الذى يمكنك أن تضع فيه تاريخاً تحت هذه الأسيطر ! »

وكان أبوه قد أقبل نحوهما بخطى بطيئة فسارعا الى مقابلته ، ثم عادوا

الفرنسية ولا الكتابة والقراءة . فلما فرغوا من تناول الطعام وانصرف الحاكم الى مسكنه الخاص ليأخذ نصيبه من الراحة ، قال آتوس لدارتانيان باللغة الاسبانية : « ما اسم هذا الرجل ؟ » انى لا ارتاح الى منظره ! »
فأجاب دارتانيان : « اسمه دى سان مارس ، وقد أخبرته أنكما جئتما الى هذه الجزيرة لصيد الطيور ولزيارة الدير الذى فيها لطائفة البندكتيين وسترحلان غداً »

ثم اقترح عليهما أن يخرجوا لصيد الارانب البرية قائلاً : « ان الحياة هنا لا تلائمنى كثيراً . وهذا الرجل يضجرني الى حد بالغ مع انى رئيسه ! . على أن المشى فى الجزيرة لذيد لا يجهد ، فطولها لا يزيد على فرسخ ونصف ، وعرضها فرسخ واحد فكأنها حديقة كبيرة ! »

ونادى دارتانيان أحد الجنود وقال له : « أحضر للسيدى بندقتين » . ولما غادروا القلعة قال لهما دارتانيان : « الآن أسألكما بدورى : ما الذى جاء بكما الى هذه الجزيرة ؟ »

فقال له آتوس : « جئنا لنودعك فان راعول مسافر بعد أيام »

فقال دارتانيان : « لا شك فى أنه ذاهب مع دوق بوفور الى أفريقيا .

أليس كذلك ؟ »

فقال الكونت : « أجل يا عزيزى . انك دائماً تصيب فى حدسك ! »

وكان راعول قد تركهما يتحدثان ومضى الى صخرة يغطيها العشب فجلس فوقها وقد وضع بندقيته بين ركبتيه وجعل ينظر الى البحر نظرة شاردة ، فقال دارتانيان لآتوس : « انه لم يشف من الصدمة بعد . ولكن قلبه الكبير النبيل كفى بأن يحببه المخاطر ! »

فقال آتوس فى أسف : « ان راعول لن يشفى من أثر تلك الصدمة الا بالموت الذى ينشده فى رحلته ، وقد أصر عليها لهذا الغرض ، وليس فى وسعى أن أصحبه لاني لا أريد أن أراه يموت ! »

فنظر دارتانيان الى صديقه ملياً بينما استطرده هذا فقال : « انك تعرف انى طول حياتي لم أعرف الخوف ، ولكنى لا أكتمك انى أخاف منذ الآن ذلك اليوم الذى أتلقى فيه نعى راعول ! »

فقال له دارتانيان : « دعنى اذن أحدثه فى الأمر ، ولن أحاول أن أعزبه بل سأودى له خدمة أجل ! » . ثم تركه ومضى الى حيث جلس راعول ، وأخذ فى الحديث معه الى أن تطرق الحديث الى الآنسة دى لافالير ، فقال راعول : « عندي كلام كثير أريد أن أقوله لها ولكنى لا أحب أن أكتب اليها »

فقال له دارتانيان : « اذن تعال الى القصر الملكى لتقابلها وتقول لها ما تريد . ان هذا خير من الكتابة اليها ، ثم انها فيما أعتقد فتاة صادقة . ولعلها تحبك أنت الذى هجرتك حبا أشد من حبها للملك ، أعنى أنها تمدك صديقا مخلصا يركن اليه ويسعدها أن تكون على مقربة منها دائماً ! »

الى القلعة ، وقبل أن يبلغوها لحظوا أن الامواج قد علت ايذنا باقتراب عاصفة ، ثم لمحا شينا قذفته الى الشاطئ فسأل آتوس : « ما هذا ؟ » زورق محطم ؟ » فقال دارتانيان : « كلا انه ليس زورقا ، بل هو الصندوق المغلق الذي رميته في البحر بعد انزال السجين ! »

فقال آتوس : « اذن يحسن أن تحرقه يا دارتانيان حتى لا يبقى له اثر » فقال دارتانيان : « الحق معك يا آتوس وسأتولى ذلك بنفسى فيما بعد ، أما الآن فيها ندخل القلعة لان المطر يهطل مدرارا والبرق مخيف ! »

ومروا فوق الاستحكامات الى رواق كان مفتاحه مع دارتانيان ، فرأوا المسيو سان مارس يتجه صوب غرفة السجين ، فأشار اليهما دارتانيان أن يختبئا في مكن بالسلم . وسأله آتوس : « ما هذا ؟ » فأجابته : « ان السجين عائد من المصلى ! »

وعلى وميض البرق شاهدوا الحاكم وفي أثره رجل يرتدى ثيابا سوداء وعلى وجهه قناع من صلب لامع ، يمتد من الحوذة التى على رأسه ، ولم يبد من وجهه سوى عيني تقدحان بالشرر . ووقف السجين لحظة فى وسط الرواق لينظر الى الاق و يستنشق الهواء ويتنهد بما يشبه الزئير . فقال له سان مارس بحدة : « هيا واصل السير يا سيدى ! »

فصاح آتوس من الركن الذى اختبأ به : « بل قل : (ياصاحب السموم) » وكان صوته مخيفا جعل الحاكم يرتعد وجعل السجين يتلفت حوله ، ثم صاح الحاكم قائلا : « من الذى تكلم ؟ »

فسارع دارتانيان الى الاجابة قائلا : « أنا .. انك تعلم أن الامر يقضى باستعمال هذا اللقب ! »

وهنا قال السجين للحاكم : « كلا ! لا تلقبنى بالسيد ولا بصاحب السموم ، ان اللقب الذى يليق بى الآن انما هو لقب (الملعون) ! » ثم مضى فى طريقه حيث أغلق عليه باب زنزانته

وتمتم دارتانيان مخاطبا راعول وهو يشير الى ذلك الباب : « مسكين ! »

بين الجنس اللطيف

ما كاد دارتانيان يعود الى جناحه مع صديقيه حتى جاء أحد الجنود ينبئه بأن الحاكم يبحث عنه ليسلمه رسالة حملتها اليه سفينة شراعية ، ومضى دارتانيان فتسلم الرسالة وكانت بخط الملك ، وقد جاء فيها ما يلى : « أحسبك قد انتهيت من تنفيذ أوامرى يا مسيو دارتانيان ، واذن عد فورا الى باريس والحق بى فى قصر اللوفر ! »

فصاح دارتانيان فرحا : « حمدا لله ! هذه خاتمة نفىي بهذه الجزيرة ولم أعد سجانا ! »

ثم أطلع آتوس على ذلك الخطاب فقال له هذا فى أسف : « اذن سنتركنا ! » فقال له : « سنلتقى ثانية أيها الصديق العزيز ، ان راعول فى سن تسمح له بالذهاب وحده مع دوق بوفور . ولا شك فى أنه يؤثر أن يعود والده الى باريس مع زميله دارتانيان بدلا من أن يقطع مائتى فرسخ وحده لكي يصل الى بيته فى لا فير ! »

ثم نظر الى راعول كأنما يستطلع رأيه فى ذلك ، فقال هذا بلهجة أسى : « هذا أحسن ! »

وقال آتوس لدارتانيان : « أحسب أننا نستطيع أن نغادر هذه الجزيرة معا فى السفينة الشراعية التى جاءت بالرسالة فتقلنا الى الانتيب »

فأوما دارتانيان موافقا ، ثم غادرا الاصدقاء الثلاثة جزيرة سانت مرجريت بعد أن ودعوا الحاكم ، وبعد أن اطمأن دارتانيان الى حرق الصندوق الذى كان به السجين . وحينما وصلوا الى الانتيب فى الليلة نفسها ودع دارتانيان صديقيه قبل أن يمتطى صهوة جواده وقال لهما : « انكما تشبهان جنديين يفران من موقعهما . وقلبي يحدثنى بأن راعول سيحتاج الى مساعد ، فهل تسمحان لى أن أطلب الى الملك أن يرسلنى الى أفريقيا على رأس مائة من الفرسان القادرين ؟ » ان الملك لن يرفض هذا الطلب ، وسأخذك معى يا آتوس ! »

فضغط راعول يده قائلا : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ! اننى ما زلت شابا احتاج الى ما يجهد الجسم والفكر . أما أبى فانه فى شدة الحاجة الى الراحة . وأنت أعز أصدقائه ولهذا أعهد اليك فى العناية به ، ولا شك فى أن هذا يجعل روحينا فى اطمئنان ! »

فقال له دارتانيان : « انك ستمكث هنا ثلاثة أيام على الاكثر . فمتى يصل الكونت الى بيته ؟ »



فأجاب آتوس : « ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، والواقع انى لا أريد أن أعجل بالافتراق عن راءول . ان الوقت نفسه يمضى بسرعة فلا ينبغي لى أن أزيد فى سرعته . ولذا سأؤثر السفر البطيء ، وسأشتري جوادين من صنف أرقى من جواد البريد التى جئت بها الى هنا . ولكى أصل بهما فى حالة جيدة يحسن ألا أقطع أكثر من سبعة فراسخ فى اليوم »

فسأله دارتانيان : « وأين جريمو الآن ؟ » . فأجاب قائلاً : « ان جريمو وصل صباح أمس مع متاع راءول ، وقد تركته ينام ويستريح » . ثم ودعهما دارتانيان مرة ثانية ومضى فى سبيله . وماكادا يستأنفان سيرهما بعد أن اختفى بجواده عن أنظارهما حتى سمعا خلفهما وقع حوافر جواد يعدو ، وشهد ما كانت دهشتهما اذ تبينا أن الفارس القادم هو نفسه صديقهما قائد فرسان الملك ، وما وصل اليهما حتى ففز من فوق جواده وعانقهما عناقاً حاراً ، ثم عاد فركب جواده ومضى مرة أخرى دون أن يقول كلمة !

وعاد الكونت وولده الى طولون وقد بدأت تملئ بضجة العربات والاسلحة والجياد والجنود تأهباً لسفر الحملة الى شمال أفريقيا . وكانت الطبول تفرع أمام طوابير الجند والبحارة . وأخذ دوق بوفور ينتقل فى كل مكان ويشرف على اعداد السفن وركوب القوة فى همة وحماسة . وكان يشجع أقل الجنود ، ويؤنب الضباط حتى كبارهم ! . ويصر على أن يتفقد بنفسه المدافع والمؤونة والمتاع ، ويفحص جهاز كل جندي ويستوثق من صحة كل جواد وقوته . وهكذا انقلب الى عسكري لا مثيل له بعد أن كان فى قصره مثالاً للسيد الاثنانى المغرور ! . على أن العناية الكبيرة التى بذلت فى اعداد الحملة كان يشوبها التسرع الذى لا يؤمن معه الخطر على جنودها . وكانت الليلة مقمرة وقد أخذ البحارة والجنود ينشدون أناشيدهم على ظهر السفن ، يتخللها صوت السلاسل وهى تسحب أو تبسط . بينما جلس آتوس وولده على لسان فى البحر ساكتين والسفن والزوارق تمر حولهما ثم قال الكونت لولده :

— تبارك الله الذى خلق هذا كله كما خلقنا نحن الذرات الضئيلة فى هذا العالم العظيم ! . اننا نسطع مثل تلك النجوم والكواكب ، وتناؤه مثل هذه الامواج ، ونعانى كما تعانى هذه السفن الكبيرة التى يصيبها البلى من مغالبة البحار والرياح . ان كل شئ يريد أن يحيى ويعيش يا راءول . وكل شئ فى الكائنات الحية له جمال وبهاء ! »

فقال راءول : « حقا يا سيدي ان أمامنا منظرا جميلا ! »

ثم قال آتوس فجأة : « ما أطيب قلب دارتانيان ! ان من حسن حظى أنعاوننى صديق مثله طول حياتى . انك فى حاجة الى صديق مثله يا راءول . ان المسيو دى جيش رفيق مناسب ولكنى أعتقد أن عصركم هذا يشغل

كل انسان بشؤونه ومسراته ، على عكس الحال فى عصرنا . لقد التمسنت لنفسك حياة العزلة ، وفيها هناة كبيرة ، ولكنك ضيعت قواك فى عزلتك . أما نحن الفرسان الاربعة ، فقد نشأنا بعيدين عن مسرات العصر الحاضر ، ولذا كنا قادرين على مغالبة البأساء كلما حلت بساحتنا »

فقال راءول : « ان المسيو دى جيش صديق لطيف مخلص ، ولكنى عشت ناعماً بصداقة أخرى من النوع الذى حدثنى عنه ، وتلك هى صداقتك يا أبتاه ! »

فقال آتوس : « انى لم أكن صديقاً لك يا راءول ! »

فسأله : « وكيف ذلك يا سيدي ؟ »

فقال : « لآنى جعلتك تعتقد أن الحياة ليس لها سوى جانبها المحزن القاسى . وا أسفاه ! لقد أعدتلك دائماً - دون قصد كما يعلم الله - عن مسرات الشباب ، ولذا ترانى الآن أسفا على أن لم أتج لك شيئاً من طيش الشباب ونزعاته ! »

فقال راءول : « لست أنت الذى جعلتنى جادا صادفاً عن مسرات الحياة يا أبتاه ، ولكنه الحب الذى دهمنى فى ابان عهدى بالحياة ، أو هو الوفاء الذى فطرت عليه ! . اننى كنت حتى عهد قريب أحسب أن طريق الحياة ممهدة تقوم على جانبها الازهار والفاكهة . وكنت أحسب انى مثلك صلابة وقوة ، فكنت أنت تسهر على بما أوتيت من يقظة ومقدرة ! . وبقي الأمر كذلك حتى كانت تلك الكارثة التى كشفت حجاب غفلتى وجردتتى من كل قوتى وشجاعتى وتركتنى حطاماً . وهكذا ترى يا سيدي ألا لوم عليك فى شئ من أمرى ، وانك فى ماضى حياتى لم تكن الا سعادة لى ، كما انك كل أملى فى مستقبلى . ولهذا أحبك يا أبى وأباركك ، ومن أجلك وحدك أعيش ! »

فقال الكونت : « يا عزيزى راءول . ان كلماتك بلسم لجراحي ، فهى تدلنى على أنك ستذكرنى فى الايام القادمة ! . ولسوف أكون لك فى المستقبل أكثر مما كنت حتى اليوم . سأكون صدديقك يا بنى العزيز ، وسأنتظرك حتى تعود لنعيش عيشة مرحة سعيدة بدل أن نحيا هكذا فى عزلة . وسأهب لك يومئذ كل أملاكى ، وان ايرادها ليكفى لان تعيش عيشة راقية ، وأرجو أن يسعدنى الحظ قبيل موتى فأرى حفيداً لى ولا تنقرض سلالتى ! »

فقال راءول متأثراً : « سأفعل كل ما يرضيك »

ثم قال آتوس : « ان مركزك الجديد لا يوجب عليك المجازفة . لقد امتحنتك الوقائع وعرف الناس شجاعتك . وليس من الفخر أن يقع الانسان فى كمين فيموت غير مأسوف عليه . ومعاذ الله أن أنصح لك بأن تتفادى القتال ولكنى أحذرك أن تقع فى كمين ! »

حملة بين ذراعيه ووضعها في زورق ، وركب هو زورقا آخر ، وسرعان ما عملت المجاذيف ، ثم رأى آتوس ولده يصعد درج سفينة القيادة ويقف عند الحاجز حتى لا يغيب عن بصر والده . وأطلق مدفع ايدانا بالايحار . واشتدت الضجة من المودعين بالشاطئ ، وتعالى دخان السفن ، ولكن هذا كله لم يحل دون تتبع الكونت لابنه ببصره حتى اختفت السفينة في الأفق . ثم رأى دخانا أبيض ينبعث خلفها من قذيفة المدفع التي أمر الدوق بأن تطلق تحية أخيرة لأرض فرنسا



لم يستطع دارتانيان أن يخفي شعوره عن صديقيه . لقد خضع ذلك الجندي الجامد الحش للضعف البشري لحظات ، حتى اذا تغلب على تأثيره واستعاد رباطة جأشه ، قال لحادمه الذي اعتاد أن يصغى ولا يتكلم : « رايو . . يجب أن نقطع الطريق الى باريس بمعدل ثلاثين فرسخا في اليوم ! » ثم أخذ يسأل نفسه : « لماذا استدعاني الملك ؟ » ولماذا رمى ذو القناع الحديدى ذلك الطبق الفضى عند قدمي راعول ؟ »

ثم رجع بذكرته الى اللحظة التي أوشك فيها أن يقتل صديقيه ، والى القدر العجيب الذي جعل آتوس يقف على ذلك السر الخطير ، وفكر في المستقبل الغامض المخيف الذي ينتظر راعول فشعر بانقباض زاد فيه تذكره نكبة صديقيه بورتوس وأراميس

ولم يكن الملك يرتقب أوبة دارتانيان بمثل تلك السرعة، وعلى هذا سافر الى ميدون اللصيد ، فلما علم بذلك دارتانيان لم يشأ أن يلحق به كما كان يفعل في ظروف أخرى ، بل خلع ثيابه وحذاءه واستحم وقبع في بيته انتظارا لعودة الملك الى باريس

وقد علم الكثير مما جرى خلال الاسبوعين الاخيرين ، فالملك صار دائم الاكتئاب ، والملكة الوالدة مريضة حزينة ، والأمير الشقيق الأصغر للملك أصبح يغالى في ابداء الولاء ، أما الأميرة قرينته ففي ثورة غضب لا تنتهي ، وقد سافر الكونت دي جيش الى مزرعته . وبينما المسيو كولبير صار بادي السرور والتفاؤل كان المسيو فوكيه يستشير طبيبا جديدا كل يوم دون أن يلقي الشفاء على يد أحد منهم لان مرضه سياسى لا طبى !

أما الأنسة دي لافالير فعلم دارتانيان أن الملك أصبح لا يستغنى عن صحبتها ، واذا لم تكن معه في رحلات الصيد فانه يكتب اليها بلا انقطاع !

وفكر دارتانيان في الخطاب الذي يحمله اليها من راعول ، فرأى أن ينتهز فرصة غياب الملك لكي يقابلها ويتحدث معها قليلا لعله يجد ما يعزى به راعول ، وكان يسيرا عليه أن يقابلها أثناء خروج الملك للصيد ، لأنها كانت تتسلى عادة بالسير مع بعض سيدات البلاط فى أروقة القصر الملكى حيث

فقال راعول : « انى بطبيعتى حذر يا سيدى ، وقد اشتركت فى القتال أكثر من عشرين مرة ، فكان من حسن حظى أنى لم أجرح الا مرة واحدة ! » فقال آتوس : « يجب أيضا أن تحذر جو افريقيا ! ان الموت بالحلمى موت رهيب . هذا وقد وعد دوق بوفور أن يأتى البريد من أفريقيا كل اسبوعين ، وستشرف أنت على ارساله بوصفك أركان حربيه . فلعلك لا تنسى أن تكتب الى مع كل بريد ! »

فقال راعول وقد غلبه التأثر : « سأكتب اليك يا سيدى ، ولم يقدر آتوس أن يقاوم عاطفته فأحاط ولده بذراعيه وعانقه بقوة . ثم عادا الى المدينة حيث كان جريمو ينتظر أوبة سيده . فصاح به راعول : « لا شك أنك جئت لتخبرنا بأن الوقت قد حان للرحيل ؟ »

فقال جريمو موجها الخطاب الى الكونت : « ينبغي ألا يذهب وحده الى تلك البلاد الغربية . » فقال الكونت : « نعم ، يجب أن يكون مع راعول أحد يعاونه ويذكره بكل من أحب . »

فقال جريمو : « أنا يا سيدى اذهب معه ، صحيح أنى كبير السن ولكن هذا أفضل ! »

فقال له راعول : « لكن الابحار قد بدأ وأنت لم تستعد »

فقال جريمو : « بل تأهبت يا سيدى ! » ثم أبرز مفاتيح حقائبه وقد اختلطت بمفاتيح حقائب راعول . فبدأ التأثر على الكونت وولده وساد السكوت قليلا ثم قال له راعول : « كلا يا جريمو ! ينبغي ألا تترك الكونت وحده ، انك لم تفارقه قط قبل الآن ! »

فردد جريمو بصره بينهما وكأنه يسائل نفسه أيهما أولى به . ولم ينطق آتوس ببنت شفة ، ثم قال جريمو : « ان سيدى الكونت يؤثر ذهابى مع ولده »

فأوما آتوس برأسه موافقا . ثم دقت الطبول فجأة ، وانطلقت أبواق السفن فملأت الجو بصوتها . وبدأ الجنود يأخذون طريقهم الى سفنهم . فحفر جريمو فى نشاط الشباب للاشراف على نقل أمتعة سيده الشاب الى سفينة القيادة . وكان آتوس ممسكا بيده يد راعول وكأنه لا يريد أن يفترق عنه ، حتى جاء ضابط يجرى لينبئ راعول بأن الدوق يطلبه فمضى ووالده الى منعطف الطريق حيث وجدا الدوق منتظيا جوادا أبيض فنادى راعول وصافح الكونت بيده . ثم عانق آتوس ولده فقال له الدوق : « اصحبنا الى السفينة فان أمامنا نصف ساعة قبل أن نبحر »

فقال الكونت : « لقد ودعت راعول يا صاحب السمو ، ولا أحب أن أودعه ثانية ! »

فقال الدوق لراعول : « اذن اذهب الى السفينة الآن يا فيكونت » . ثم

فقلت دى توناي شارنت : « حقا لا شيء فى أن تنبذ الفتاة خطيبها فى مثل هذه الحالة ، ولكن ليس لها أى حق فى أن تبعث به الى الموت ، أو الى الحرب حيث يلقي حتفه ! »

فوضعت لويز يدها على جبينها ، بينما استطردت الفتاة الماكرة فقالت : « اذا مات المسيو دى براجلون فى افريقيا ، فلا شك فى أنه يكون قد مات متأثرا بفشله فى حب لويز ! »

وهنا استندت لويز الى ذراع دارتانيان اذ ترنحت للسقوط ، وكانت ملامح وجهه تنم عن تأثر عميق . ثم قالت له فى صوت يشوبه الغضب والالام : « لقد أردت أن تحدثنى يا كابتن . ماذا عندك لكى تقوله لى ؟ »

فجذبها دارتانيان الى ركن بعيد فى الرواق ثم قال لها : « ان ما أردت أن أقوله لك يا آنسة ، قد قالته الآنسة دى توناي شارنت . صحیح انها قالته بعف وقسوة ولكنها قالته كله على أى حال ! »

فصرخت صرخة واهنة ثم انفلتت وانطلقت الى باب قريب فى الرواق فدخلته واخفت خلفه ، وفى اللحظة نفسها بدا الملك داخل من باب آخر واتجه بنظرة لأول وهلة الى الكرسي الذى كانت خليلته تجلس عليه فلما لم يجدها وقف هنيهة عابسا ، ثم لمحت عينه دارتانيان وقد وقف حائى الرأس اجلالا له فهتف به : « أهذا أنت ؟ لقد جئت بسرعة . انى راض عنك . » وكان هذا أقصى تعبير عن الارتياح الملكى . . . وكثير من الرجال كانوا يضحون أرواحهم فى سبيل كلمة كهذه من الملك . بينما انسحبت وصيقات الشرف ، وتبعهن رجال البلاط اذ لحظوا أن الملك يتحدث حديثا خاصا مع قائد الفرسان ، ثم قاده الملك خارج الرواق وسأله : « حسنا يامسيو دارتانيان . ماذا فعلت بالسجين ؟ »

فقال : « انه فى السجن يا مولاي . وقد تمرد الصياد الذى نقلنا بسفينته الى سانت مرجريت ، وحاول أن يقتلنى ، فدافع السجين عنى بدل أن يحاول الفرار ! »

فامتقع وجه الملك وقال له : « كفى ! » . ثم أخذ الملك يدور حول مكتبه فى خطى قلقة سريعة ، وقال لدارتانيان بعد قليل : « هل كنت فى الانتيب حين وصل اليها المسيو دى بوفور ؟ »

فقال دارتانيان : « لقد غادرتها فى الوقت الذى دخلها فيه سموالدوق ! فسكت الملك لحظة ثم سأله : « من الذين رأيتهم هناك ؟ » . فأجاب فى برود : « رأيت هناك كثيرا من الناس ! »

وأدرك الملك أنه راغب عن الكلام فقال له : « لقد بعثت فى طلبك لى تعد مسكنى فى نانت باقليم بريتانى »

فقال دارتانيان : « أتقوم جلاتك بهذه الرحلة الطويلة الآن ؟ »

فقال : « ان برلمان الطبقات مجتمع هناك ، وعندى طلبان سأقدمهما له . »

يمر هو لتفقد الحراس . وعلى ذلك سدد خطاه الى حيث كانت لافاليروسط دائرة من نساء البلاط ، وكأنها الشمس وسط الكواكب ، ولم يكن دارتانيان يعجى وراء النساء ولكنهن كن يحترمنه كما كانت شهرته تثير اعجابهن . فلما رأيته قادما أحطن به ، وأخذن يهاجمنه بالأسئلة عن أسباب غيبته طول تلك المدة . . . فأجاب فى جد وهدوء : « لقد كنت فى بلاد البرتقال ! » وأثارت اجابته ضحكاتهن اللطيفة ، ثم سأله الآنسة دى توناي شارنت : « ماذا تعنى ببلاد البرتقال . . . ؟ . أكنت فى اسبانيا ؟ »

ولما أجاب بالنفى قالت له : « اذن . . . كنت فى مالطة ؟ » . فhez رأسه نائيا أيضا وقال : « لقد اقتربت من الحقيقة ! » . وهنا سأله دى لافالير : « هل هى جزيرة ؟ » . فابتسم وقال : « لن أتعبك أكثر من ذلك يا آنسة . . . لقد عدت من الجهة التى يبحر منها دوق بوفور فى هذه الساعة الى الجزائر ! »

وانهالت الأسئلة عليه من أولئك الحسان عن الجيش والاسطول ، فيجيبهن اجابات مقتضبة ، الى أن سأله الآنسة دى توناي شارنت : « ألم تر أحدا من أصدقائنا هناك ؟ »

فقال : « أجل ! . رأيت ضمن الحملة المسيو دى لاجيلوتير ، والمسيو دى مانشى ، والمسيو دى براجلون . . . »

وهنا امتقع وجه دى لافالير ، بينما استطردت دى توناي شارنت فسألته فى خبث غير ملحوظ : « ماذا تقول ؟ هل المسيو دى براجلون ضمن الحملة أيضا ؟ . اذن لقد صح ما توقعته فهؤلاء الرجال الذين اشتركوا فى الحملة كلهم ممن خانهم الحظ فى الحب ، فذهبوا الى الشرق للبحث عن نساء سوداوات يكن أشفق عليهم من حسان باريس ! »

وضحك أكثر الانسى لنكتتها ، بينما اضطربت دى لافالير ، وسعلت مونتاليه متشاغلة . . . فقال دارتانيان : « الواقع أن نساء الجزائر لسن سوداوات ، بل هن سمراوات فاتنات ، ولهن عيون نجل وشفاه قرمزية لم أر مثلها فى حياتى ! »

فقالت الآنسة دى توناي شارنت : « هذا من حسن حظ المسيو دى براجلون ، فلعله هناك يعوض عن خسارته هنا ! »

وأعقب ذلك صمت شامل ، ولحظ دارتانيان قسوة هذه الفتاة الحبيثة على دى لافالير وتجاهلها اضطرابها وشحوبها ، ثم استأنفت الحوار بعد لحظة قائلة : « كل هذا ذنبك أنت يا عزيزتى لويز ! »

فقالت دى لافالير متلعثمة : « أنا ؟ . أى ذنب لى فى هذا يا آنسة ؟ » فردت عليها قائلة : « ان ذلك الشاب البائس كان خطيبك وكان يحبك ولكنك نبذته ! »

وهنا قالت مونتاليه فى رياء : « هذا حق كل امرأة شريفة . اننا حين يتضح لنا أننا لا نقدر أن نسعد رجلا فالأفضل أن ننبذه ! »

وعلى هذا أرى أن أسافر الى هناك فى هذا المساء ، ولكنك محتاج الى الراحة ولا شك ، واذن ليكن السفر غدا ! »

فقال دارتانيان : « لقد ارتحت يا مولاي » . فقال الملك : « حسنا ! اذن نبدأ السفر بين هذا المساء ومساء غدا ! » . فانحنى دارتانيان كأنه يستأذن فى الانصراف ، ولكنه لحظ اضطراب الملك فسأله : « أتصحب جلالتك معيتك ؟ أعنى هل تحتاج جلالتك الى الفرسان ؟ »

ففكر الملك قليلا ثم قال له : « خذ فرقة منهم . وقد علمت أن قصر نانت غير منظم كما ينبغي ، وعلى هذا لا تنس أن تضع فارساً بباب كل كبير من الكبراء الذين سيصحبوننى مثل المسيو دى ليون والمسيو لتلين والمسيو بريين ووزير المالية ! »

فقال دارتانيان : « غدا آكون قد سافرت ونفذت أمر مولاي ! »

فقال الملك : « حسنا ! ولكن كلمة أخرى يا مسيو دارتانيان . ستقابل فى نانت دوق جيفر قائد الحراس ، فاحرص على تدبير أماكن لفرسانك قبل وصول حراسه . ان السبق هو دائما لمن يأتى أولا . واذأ سألك دوق جيفر عن شيء فلا تقل له أى شيء ! »

وقال قائد الفرسان لنفسه بعد أن خرج : « الى نانت ؟ لماذا لم يجرؤ على القول بأنه ذاهب الى (بل - أيل) من هناك ؟ »
ولما وصل الى باب القصر لحق به أحد كتبة المسيو بريين وقال له : « سيدى . ان جلالة الملك أعطانى هذا الأمر لاسلمه اليك ! »

وتناول منه الأمر ، فوجد عليه خاتم المسيو فوكيه لكنه بخط الملك نفسه وخاص بصرف مائتى بستول له . فقال لنفسه بعد أن صرف الكاتب : « المسيو فوكيه هو الذى ينفق على هذه الرحلة ٠٠١٩ ان هذا لا يشبه بالأعيب لويس الحادى عشر . لماذا لم يصدر الملك هذا الأمر الى المسيو كولبير ؟ » . ثم ذهب من فوره الى دار المسيو فوكيه ليتسلم المبلغ ثم يتأهب للسفر !

العشاء الأخير

كان وزير المالية قد نعى اليه نيا الرحلة التى اعترزم الملك القيام بها ، فاقام بداره مأدبة عشاء لتوديع أصدقائه . وكانت الدار حين وصل اليها دارتانيان تموج بالخدم رائحين غادين يحملون الوان الطعام وصنوف الشراب . فلما أراد قائد الفرسان صرف قيمة الأذن الذى فى يده من المكتب قيل له ان الوقت متأخر وقد اغلقت الخزانة حتى صباح اليوم التالى . فطلب أن يقابل المسيو فوكيه ، وكان هذا مع ضيوفه فى الجناح المخصص لسكناه بالدار وليس من عادته أن يستقبل أحدا فى مثل هذه الساعة ، ولكنه ما كاد يعلم بوجود المسيو دارتانيان قائد فرسان الملك حتى أوفد الشاعر بليسون لاحضاره من غرفة الانتظار فقاده هذا الى حجرة المائدة بعد ان اطمأن الى ان الأمر لا يعدو اذن صرف معه يريد قبض قيمته

وكان الوزير جالسا فى مقعد وثير ومن حوله جماعة الايقوريين من الشعراء الذين اثبتوا اخلاصهم ووفاءهم له حين اقتربت منه العاصفة واهتزت من تحته الأرض ، فبقوا على ولائهم له كما كانوا فى عهد رخائه وابان نعمته . وقد جلست الى يساره مدام دى بليير ، وجلست الى يمينه قرينته ، ضاربتين عرض الحائط بقواعد العرف ونوازع الفيرة !

ونفض الوزير لاستقبال قائد الفرسان قائلا : « معذرة يا مسيو دارتانيان اذ لم أخرج للقائك وقد جئت باسم الملك ! »
فأجاب دارتانيان قائلا : « يا صاحب الفخامة . اننى جئت باسم الملك لاصرف أذنا بمبلغ مائتى بستول ! »

وعندئذ انقضت السحب التى كانت مخيمة على الوجوه ، ما عدا المسيو فوكيه فقد ظل واجما وقال : « اذن أنت أيضا مسافر الى نانت ؟ »

فقال دارتانيان : « الواقع أنى لا أدري لماذا أسافر يا صاحب الفخامة »
فقالت مدام فوكيه وقد زال عنها ما اعترأها من وجل : « لكنك لا تعجل السفر بحيث لا تجلس معنا قليلا ؟ »

فانحنى لها وقال : « ان هذا شرف كبير لى يا سيدتى ، غير أن وقتى ضيق بحيث اضطررت الى أن أقطع عليكم عشاءكم لكى أصرف هذا الأذن ! »
فقال المسيو فوكيه : « اذن يصرف بالذهب ! » . ثم دعا أحد الكتبة وناوله الأذن الذى تسلمه من دارتانيان ، فقال هذا : « انى لم اكن قلقا بشأن الصرف فان سمعة هذا البيت المالى لا تدع مجالا لى قلق ! »
فارتسمت ابتسامة حزينة على شفتى فوكيه ، وسأله مدام دى



وقال المسيو فوكيه : « بل يقال اكثر من ذلك فسيذاع عنى انى هربت ومعى عشرون مليوناً ! »

فقال لافونتين : « سنكتب مذكرات فى تبرئتك !.. واذن ينبغى لك أن تهرب كما قال بليسون ! »

فقال فوكيه : « بل سأبقى يا أصدقائى !.. ان كل شىء فى مصلحتى ! » وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « عندك (بل - ايل) فاذهب اليها »

فقال فوكيه : « سأذهب بالبداهة الى هناك ولكن بعد أن تنتهى رحلة نانت ! »

فالتفت الى قربنته وقالت : « ما أبعد الشقة الى نانت ! » . فقال لها : « أعرف ذلك . ولكن الملك سيدعونى هناك الى حضور برلمان الطبقات ، ولا شك فى أنه بذلك لا يريد غير احرأجى !.. ولكنى لا أريد أن أرفض حتى لا اتهم بالخوف ! »

وحينئذ قال بليسون : « لقد وجدت وسيلة لاصلاح كل شىء.. ستسافر الى نانت . ولكنك ستسافر بعربتك اولاً مع أصدقائك الى أورليانز ، ثم تستقل زورقك الشراعى حتى نانت على أن تكون على أهبة دائمة للدفاع عن نفسك اذا هوجمت ، وللفرار بنفسك اذا هددت بل تحمل معك مالك لمواجهة كل الظروف . وأنت فى طريقك الى الفرار انما تكون مطيعاً للملك وفى خدمته . حتى اذا وصلت الى البحر ، سارعت الى الانتقال الى (بل - ايل) . ومن هناك تدافع عن نفسك فى ذلك الحصن المتيع ! »

فلقيت كل كلمات بليسون موافقة عامة ، وقالت مدام فوكيه لزوجها : « أجل هكذا يجب أن تفعل »

وصاح جميع أصدقائه قائلين : « أجل هذا هو رأى ! »

فقال فوكيه : « اذن سأفعل ذلك ، وسأبدأ هذا المساء بعد ساعة واحدة بل فى الحال ! »

ثم قال الأب فوكيه : « انك بسبعمائة ألف ليفر يمكنك أن تضع نواة لثروة جديدة. وماذا يمتعنا من تزويد القرصان بالذخيرة من (بل - ايل) ؟ » وقال لافونتين بحماسة : « واذا تطلب الأمر فسنبحر لاكتشاف عالم جديد ! »

وفيما هم فى حديثهم سمعت قرعة على الباب قطعت حديثهم وجاء الحاجب يقول : « رسول من قبل الملك » . فساد المكان صمت عميق . وترقب كل واحد من الحاضرين ما يفعله الوزير ، وكان جبينه يتصبب عرقاً ، وقد عاودته الحمى حقاً فى تلك اللحظة . ثم انتقل الى مكتبه ليتلقى رسالة الملك وسمع الجميع صوته وهو يقول للرسول : « هذا حسن » وكان صوته مرتعشاً يقلبه التعب والتأثر . وبعد برهة نادى جورفيل ثم عاد أخيراً الى ضيوفه وهو فى حالة من الإعياء واليأس فصاحوا به قائلين :

بليير : « أشعر بألم ؟ » . وأردفت قربنته قائلة له : « اشعر بأعراض التوبة ؟ » . فاجابها بالنفى شاكراً ، وهنا تساءل دارتانيان : « آية توبة ؟ .. هل صاحب الفخامة يشكو مرضاً ؟ » . فقال فوكيه : « انى أعانى حمى متقطعة أصابتنى بعد مهرجان فو »

فقال قائد الفرسان : « ربما أصبت بالبرد ليلاً ؟ » . فقال فوكيه : « لا يا سيدى ، كل ما فى الأمر انى لم أتحمّل شدة التأثر ! »

وهنا قال الشاعر فى هدوء : « حقاً ! انك أبديت مزيداً من الحماسة فى استقبال الملك ! » . ولم يدر الشاعر أنه بهذه الكلمات قد عاب فى حق الملك . فقال له المسيو فوكيه : « اننا مهما تبلغ حماستنا فى استقبال الملك لا نكون مباغين ! »

فلم يسع دارتانيان الا أن يقول : « الواقع أن كرم الضيافة لم يوجد قط كما وجد فى مهرجان فو ! »

وهنا جاء الكاتب وسلم المال المطلوب للمسيو دارتانيان ، فلما هم هذا بالانصراف نهض المسيو فوكيه وتناول كأساً من النبيذ وأمر بكأس أخرى للمسيو دارتانيان ثم تجرع كأسه قائلاً : « فى صحة الملك دائماً ! »

فتجرع دارتانيان كأسه قائلاً : « فى صحتك يا صاحب الفخامة دائماً » . ثم انحنى مودعاً وغادر الحجره !

وقال المسيو فوكيه بعد انصراف قائد الفرسان وهو يحاول أن يضحك : « لقد حسبت لحظة أنه لم يأت من أجل تقودى ! »

فصاح أصدقائه متعجبين سائلين عن السبب ، فقال فى هدوءه المعهود : « لا تخذعوا انفسكم يا أخوتى فى الايقورية . معاذ الله أن أقارن بينى أنا المذنب الوضيع وبين يسوع ، ولكن تذكروا أنه أدب يوماً لاصدقائه مادبة تسمى (العشاء الأخير) كانت بمثابة التوديع لهم كمأدبتنا هذه ! »

فانبعثت صيحات الإنكار من كل جانب ، وعندئذ أمر فوكيه بخروج الخدم واغلاق الأبواب ثم قال بصوت خافت : « أى أصدقائى الأعزاء ، ماذا كنت من قبل ؟ . وماذا أنا الآن ؟ .. ان رجلاً مثلى لا بد أن ينحدر اذا لم يرتفع باطراد . فما بالكم وأنا لم يعد لى مال ولا يتبقى بى دائن ؟ ! »

فوقف بليسون وقال : « ما دمت تصارحننا هكذا فان من واجبنا أن نصارحك كذلك . هناك سبعمائة ألف ليفر هى كل ما بقى لك كما نعلم ، وهى ... »

فقال مدام فوكيه متممة : « وهى تكفى ثمناً للخبز القفار ! »

فقال بليسون : « بل تكفى لكى يهرب بها !.. يهرب الى سويسرا ، أو الى سافوى ، أو الى مكان ! »

فقال مدام دي بليير : « اذا هرب صاحب الفخامة فيسقال أنه مذنب وأنه خاف ؟ ! »

« ماذا هناك ؟ » . فكان جوابه أن مد رسالة الملك التي كانت في يده الى بليسون ، فقرأ هذا فيها ما يلي :

« عزيزي المسيو فوكيه . أعطنا مما بقي لنا مبلغ سبعمائة ألف ليفر لاننا في حاجة اليه للاستعداد للسفر . واذ علمنا أن صحتك ليست على ما يرام نسأل الله لك الشفاء والعافية . . . لويس

« حاشية - هذا الخطاب يعد ايصالا »

فتمتم الجميع بما يدل على الفزع . وسأله بليسون : « ماذا عولت عليه ؟ » فقال : « لقد دفعت المبلغ ! »

فصاحت مدام فوكيه : « دفعته ؟ . . اذن لقد ضعنا ! »

وقال بليسون : « لا فائدة من الكلام ، بعد أخذ المال ستؤخذ الحياة ! . الى جوادك اذن ! . انك اذا اتقذت نفسك فكأنك اتقذتها جميعا ! »

وعارضت مدام فوكيه قائلة : « لكنه لا يستطيع أن يمسك نفسه على الجواد ؟ ! »

وفي هذه اللحظة جاء جورفيل يلهث من التعب وقال : « لقد رافقت رسول الملك بالمبلغ الى القصر الملكي ، وهناك وجدت الفرسان على ظهور جيادهم متأهين ! »

فصاح الجميع قائلين : « اذن يجب ألا تضع دقيقة واحدة ! »

واندفعت مدام فوكيه تأمر باعداد الجياد . بينما جرت مدام دي بليير وراءها فاحتضنتها قائلة : « سيدتي . . في سبيل سلامته ، لا تبدي أي انزعاج ! »

وجرى بليسون ليستوثق من ربط الجياد الى العربية ، وفي الوقت نفسه جمع جورفيل في قبعته كل ما أمكن أولئك الصحاب أن يضعوه فيها من الذهب والفضة ، ثم حمل بعضهم المسيو فوكيه الى العربية فوضعه فيها . وصعد جورفيل فأمسك زمام الجياد . وساعد بليسون مدام فوكيه التي اغمى عليها . أما مدام دي بليير فكانت أقوى منها وتلقت جزاءها على ثباتها في شكل قبلة أخيرة من فوكيه . وفسر بليسون للخدم والكتبة هذا السفر المفاجيء بأن أمرا من الملك قد صدر بدعوة الوزير الى نانت فورا !

□

لم يشأ دارتانيان أن يقيد نفسه بفرقة الفرسان في الرحلة ، فسافر الى نانت بجياد الريد ، وترك الفرقة تلحق به بعد أن أوصى وكيله فيها بسرعة المسير ، ولما مر بشارع (بتي - شان) رأى المسيو كولبير يخرج من بيته ليركب عربته التي كانت تنتظر أمام الباب ، ولمح في تلك العربية رأس سيدتين قد أخفت قبعتاهما وجهيهما ، فحفزه الفضول لأن يعرف شخصيتهما

ولذا استحث جواده حتى صار الى جوار العربية ، وتبين فيها امرأة شابة هي مدام فانيل وأخرى عجوزا هي دوقة شيفريز . فقال لنفسه : « ان الدوقة العجوز قد ودعت كبريائها وها هي ذى تنزل الى خلية كولبير ، يا لفوكيه المسكين . . ان هذا لا يبشر بخير له ! » ثم مضى في سبيله

واستقل كولبير عربته عقب ذلك الى غابة فنسين حيث نزلت مدام فانيل عند بيت زوجها ، وبقيت مدام دي شيفريز وحدها معه بالعربية . فأخذت تحدثه مثنية على مقدرته ، مؤكدة أنه لن يلبث قليلا حتى يصبح وزيرا خطيرا بينما لا يكون فوكيه شيئا مذكورا ، ثم وعدته بأن تكسب له ، حين يصبح وزيرا للمالية ، تأييد جميع الأسر النبيلة القديمة في المملكة ثم قالت له : « لن أقول لك أكثر مما قلته عن المسيو فوكيه . أن الرحلة التي سيقوم بها الملك الى نانت ستسوى حسابها تماما ! ان الملك بتلمس أية ذريعة يتدرع بها ، ومتى عاد من نانت فسيقول : ان برلمان الطبقات لم يسلك المسلك الواجب ولم يقدم الا توضيحات قليلة ، بينما يقول البرلمان : ان المكوس المطلوبة فادحة وان وزير المالية أرهق كاهل البلاد ، وحينئذ ينحى الملك باللائمة كلها على المسيو فوكيه فلا يجرؤ أحد من الذين يؤيدون المسيو فوكيه على الدفاع عنسه . . فالآنسة دي لافالير مثلا ليس لها الا نفوذ ضئيل ، وهي لا تعرف شؤون السياسة . وقد غازلها المسيو فوكيه يوما ، فاذا هي دافعت عنه فكانها تتهم نفسها ! . أما الملكة الوالدة فاذا كانت قد استطاعت من قبل أن تحول بين الملك وبين الأمر بالقبض على المسيو فوكيه في فو ، فهي لن تستطيع ذلك الآن ، لأنها لا تطيق أحدا ممن اشتركوا بأى شكل في كشف سر خاص كانت جد حريصة على كتمانها ، وقد كان المسيو فوكيه أحد هؤلاء ! »

فقال المسيو كولبير : « اذن نثق بتأييد الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « نعم ، وقد كنت عندها منذ برهة وجيزة وأكدت لي ذلك ! ولكن هناك مسألة أخرى . أتعرف صديقا حميما للمسيو فوكيه يسمى المسيو دربلاي وأحسبه أسقفا ؟ »

فقال كولبير : « أجل أعرفه ، وهو أسقف مدينة فان »

فقالت الدوقة : « ان المسيو دربلاي هذا يعرف ذلك السر أيضا ، ولذا تطارده الملكة الوالدة الآن بكل ما في وسعها حتى أنها لا تكفى بأقل من رأسه لكي تستوثق من أنه لن يتكلم ثانية ! »

فقال كولبير : « سنبحث عن المسيو دربلاي هذا حتى نعر عليه ما دامت هذه رغبة الملكة الوالدة ! »

فقالت : « ان مكانه معروف ، فهو الآن في جزيرة (بل - أيل - آن - مير) التي يملكها المسيو فوكيه ! »

فقال : « اذن سنقبض عليه هناك في أقرب وقت ! »

فابتسمت الدوقة وقالت له : « لا تظن أن ذلك أمر يسير »

فنظر إليها كولبير نظرة جادة وقال : « لقد مضى الزمن الذى كان الرعايا فيه يكسبون دوقيات بمحاربة الملك . وإذا كان المسيو دربلاي نائرا فسيموت على المشنقة ، ولن يهنا أن يسر هذا أصدقاءه أو لا يسرهم ! »

فألمت الدوقة : « انك لا تعرف الكثير عن المسيو دربلاي ! انه أراميس أحد الفرسان الأربعة الذين جعلوا الكاردينال ريشيليو يرتعد فرقا في عهد الملك السابق ، ثم سبوا متاعب جملة للمسيو مازارين في عهد الوصاية على العرش ! »

فقال لها : « فليكن يا سيدتى ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الا اذا كان وراءه مملكة تؤيده ؟ »

فألمت جادة : « الواقع أن وراءه مملكة يا سيدى »

فقال : « حسنا ! ما دمت يهكم ألا يهرب هذا النائر فانى أعدك بالأى ندعه يهرب ! »

فألمت : « انك تعلم ان (بيل - ايل) محصنة ، وافته هو نفسه قام بتحسينها »

فقال : « سنحاصرها حتى يسلم ! »

فبدأ البشر فى وجهها وقالت : « كن واثقا يا سيدى أن هذا الاخلاص الذى تبديه لصالح الملكة الوالدة سيلقى منها التقدير ، وأنك ستكافأ أجزل المكافأة على اعتقال ذلك الفارس المسمى دربلاي الذى هو أكثر من جاسوس أسباني . انه قائد الجزويت . وهكذا ترى أننا ان لم نقض عليه فسيقضى علينا جميعا ! »

فقال : « قائد الجزويت ؟ . . اذن لا شىء غير السجن يسوى هذه المسألة يا سيدتى ! »

فابتسمت الدوقة ثانية وقالت : « لعلك لا تعلم أن أراميس فر أكثر من مرة من السجن ؟ . . انه كان أحد الفرسان الأربعة الذين يخشاهم ريشيليو ، ولا تنس أن أولئك الفرسان لم يكونوا وقتئذ يملكون ما يملكونه الآن من المال والخبرة ! »

فعض كولبير شفتيه وقال : « اذن نترك فكرة السجن ، وسنجد له مكانا لا يخرج منه الانسان ! »

فابتسمت وقالت : « أصبت أيتها الحليف ! . ويحسن بنا أن نعود الآن فان الوقت تأخر بنا . فوافق على ذلك قائلا : « حسنا يا سيدتى ، فلنعد الآن الى باريس وبخاصة أن على أن أعد معدات السفر لتكون فى معية الملك خلال رحلته ! »

فرار المسيو فوكيه

كانت المرحلة الأولى من سفر المسيو فوكيه أو فراره يسودها القلق والخوف من كثرة الجياد والعربات التى كانت ترى خلفه . والواقع أن لويس الرابع عشر ما كان ليترك فريسته تفلت منه بسهولة . ولكن الوزير الهارب عاوده بعض الاطمئنان حين سبق مطارديه بمسافة بعيدة كما أن اسراعه لم يكن يدعو الى الريبة اذ المعروف أنه مسافر ليلحق بالملك فى نانت . وهكذا وصل مطمئنا برغم تعبته الى أورليانز ، وهناك وجد زورقا جميلا ، ذا ثمانية مجاذيف وبه قمرة صغيرة على سطحه ، فاستقله ومعه جورفيل الى بوجنسى عبر اللوار ، ووصلا اليها دون حادث يذكر فقوى أمل الوزير فى أن يبلغ نانت قبل غيره ، وهناك يرى (الأعيان) ويكسب لنفسه أنصارا بين أعضاء البرلمان ، وبذلك يرجئ النكبة ان لم يستطع منعها ، كما يجد جيادا تقله الى بواتو حيث يركب زورقا يبلغ به حصن (بل - ايل) المنيح

على أنهما قبل الوصول الى نانت بساعات لمحا سفينة مسرعة خلفت زورقهما كأنها تطارده ، ثم تبين أن كولبير هو الذى يستقلها ومعه رجال مسلحون ، فلما وصل الجميع الى ميناء نانت اقترب كولبير من فوكيه وحياه باحترام كبير ، وكانت الجماهير قد اجتمعت هناك ، فوقف فوكيه رابط الجأش ورد تحية خصمه قائلا وهو يتصنع الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو كولبير ؟ ! . . اذن كانت سفينتك تلك التى رأيناها خلفنا وفيها اثنا عشر مجذافا ؟ . . ما هذا الترف يا مسيو كولبير ، لقد حسبت أن تلك السفينة تفل الملكة الوالدة ! »

فاحمر وجه كولبير وغمغم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! . . بينما استطرده فوكيه فقال له : « ان هذه الرحلة ستتكلف كثيرا ولكنك وصلت لحسن الحظ . ولعلك رأيت كيف وصلت قبلك مع أن زورقى ليس به سوى ثمانية مجاذيف ! »

ثم أدار له ظهره وركب العربة التى كانت البلدية قد أعدتها لتقله الى دارها . ولم يكد يستقر بالدار حتى خرج جورفيل ليأمر بأعداد جياد تقلهما الى بواتييه وفان ، وزورق يقلهما من هناك الى بامبيف . وقد حرص على أن يؤدى هذه المهمة خفية دون أن يعلم بها فوكيه

وذاع فى خلال الليل أن الملك قادم بسرعة على جياد البريد ، وقد يصل بعد عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة ، ووقفت الجماهير تنتظر الملك ،

وكانت قد سرت بمنظر الفرسان الذين وصلوا مع المسيو دارتانيان فائدهم
ليكونوا حرس شرف بالقصر

وجوالى الساعة العاشرة جاء المسيو دارتانيان لزيارة المسيو فوكيه بدافع
الأدب والجمالة ، فلم يجد هذا بدا من مقابته في حجرة النوم ، برغم تأله
من الحمى التي جعلت العرق يتصبب من بدنه ، وحياء بصوت واهن ،
فسأله دارتانيان : « كيف كانت رحلة صاحب الفخامة ؟ »

فقال فوكيه : « لا بأس بها وشكرا لك . وها أنذا أتجرع دواء مهدئا كما
ترى ! »

فقال قائد الفرسان : « يجدر بك ان تنام أولا يا صاحب الفخامة »

فقال : « يسرنى ان انام لو استطعت ذلك ، ولكن كيف انام مع هذه
الحمى ، ومع توقع زيارة قائد الفرسان لى باسم الملك ؟ ! »

فقال دارتانيان : « كلا ، ليس الأمر هنا كما كان في باريس ، وثق
يا صاحب الفخامة بأننى فى اليوم الذى أزورك فيه باسم الملك للغرض الذى
تقهمه ، لن أجعلك فى شك من الأمر . بل سترانى أضع يدي على سيفي ،
وستسمعنى أقول لك بلهجة رسمية : (باسم الملك أقبض عليك !) . ولكننا
لم نصل الى هنا . . . وأقسم لك بشرفي ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ، ولكن ما الذى جعلك تعتقد
عكس هذا الذى اعتقده ؟ »

فقال : « اننى لم أسمع أى شيء تشتم منه تلك الراححة ، وثق يا سيدى
بانك رجل لطيف برغم الحمى التى بك ، وليس يسع الملك الا أن يحبك من
قراءة فؤاده ! »

فبدا الشك فى وجه فوكيه وقال له : « وهل يحبنى المسيو كولبير
أيضا ؟ »

فأجابه دارتانيان : « انى لا أتحدث عن المسيو كولبير . انه رجل شاذ ،
ولا يحبك . ولكن السنجاب يستطيع أن يحمى نفسه من الشعبان بقليل من
الجهد ! »

فقال له الوزير : « أتدرى انى لم أصادف فى حياتى أحدا بمثل ذكائك
وطيبة قلبك ؟ »

فحنى دارتانيان رأسه شاكرا وقال : « أنك لم تشرب الدواء بعد يا صاحب
الفخامة ! » . ثم ناوله الدواء فى مودة ظاهرة فأخذه منه فوكيه وهو يتسهم ،
وقال قائد الفرسان : « لقد قضيت عشر سنوات تحت بصرك وأنت تنثر
الذهب ، وتتفق معاشا قدره أربعة ملايين فى السنة ، لكنك لم تلحظ وجودى
قط ، ولكن ثق يا سيدى بانى أفدرك كل التقدير ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك ! . . هذا يجعلنى أنسى سوء التقدير الذى
يلاحقنى به المسيو كولبير ! »

فقال دارتانيان : « يبدو أن المسيو كولبير أثقل عليك من الحمى التى
تشكوها ! »

فقال فوكيه : « ان لى ما يبرر ذلك ، وقد كان يطارد الزورق الذى جئت
به الى هنا مطاردة الواثق من أن نكبة يجب أن تحل بى ! »

وهنا بدا الجد فى هيئة دارتانيان وقال : « الحق معك يا سيدى ! » . بينما
واصل الوزير كلامه قائلا : « ألا تحسب الملك قد جاء بى الى نانت لىكى
يبعدنى عن باريس حيث لى أعوان كثيرون ، ثم يستحوذ على
(بل - أيل) . . . ؟ »

فقال دارتانيان : « أنت تعنى رغبة الملك فى الوصول الى المسيو دربلای
الذى لجأ الى هناك ، على اننى أذكر لك يا صاحب الفخامة ان الملك لم يقل
لى شيئا ضدك . لقد أمرنى جلالته أن أسافر الى نانت ومعى فرقة من
الفرسان ، وأمرنى كذلك بالأأذكر شيئا عن ذلك للمسيو دى جيفر الذى
تنطق عيناه بغير ما تنطق به شفاته . أما الفرقة فتضم تسعة وتسعين
فارسا ، أى مثل عدد الفرسان الذين حولوا القبض على دى شاليه ودى
سانت مارس ومونتورنسى »

فأصغى فوكيه الى هذه الكلمات التى كان دارتانيان يقولها بغير اكرات .
ثم سأله : « ألم يأمرك الملك بغير ذلك ؟ »

فأجاب قائلا : « لقد أصدر الى أوامر أخرى غير ذات شأن ، مثل حراسة
القصر وحراسة كل مسكن فيه وألا أترك حراس دى جيفر يحتلون أى
موقع فيه »

فنظر اليه فوكيه مليا ثم قال له : « يا عزيزى المسيو دارتانيان . . ان
شرفى وربما حياتى نفسها ، فى خطر شديد ، فبماذا أمرك الملك فى شأنى ؟ »

فقال دارتانيان فى هدوء : « ألم أقسم بشرفى أن ليس عندى فى شأنك
أى أمر من الملك . . . ثق يا سيدى بأن جميع الأوامر التى تلقيتها من الملك
ليس فيها ما يتعلق بك ، فهى كلها اجراءات بوليسية كهذه التى ذكرتها
لك ، وكمنع الجياد والعربات من أن تغادر نانت دون أمر موقع عليه من
الملك . . . »

وهنا قطع فوكيه كلامه هاتفا : « رباه ! أمر الملك بهذا أيضا يا مسيو
دارتانيان ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن كل هذا
لا ينفذ الا بعد وصول الملك الى نانت . وهكذا ترى أن الأمر لا صلة له
بك ! »

فبدا التفكير فى وجه فوكيه وتظاهر دارتانيان بأنه لا يلحظ ما هو فيه
من قلق وقال : « انى اذ أذكر لك الأوامر التى أصدرها الملك انما أريد أن
أثبت لك انها لا تتعلق بك ، والا ما كان لى أن أوقع نفسى فى ورطة باناحة

القبض على فوكيه

ما كاد فوكيه يهبط من عربته أمام القصر حتى خف إليه رجل وضيع المظهر وانحنى له في اجلال كبير ثم ناوله خطابا ، وقد حاول دارتانيان أن يحول دون اقتراب ذلك الرجل من الوزير ، ولكن هذا كان قد تسلم منه الخطاب . ولما قرأه بدا عليه فزع لم يفت دارتانيان . ثم وضع فوكيه الورقة في حافظة أوراقه التي يحملها تحت ابطه وقصد الى جناح الملك

وفيما كان دارتانيان يتطلع من نوافذ السلم الى خارج القصر لمح الرجل الذي جاء بالخطاب الى الوزير ، ولاحظ أنه يخاطب بعض الافراد بأشارات معينة اختفوا عقبها في الشوارع المجاورة بعد أن كرروا تلك الاشارات . وفي طريقه الى المقصورة الملكية مر أمام فوكيه الذي كان واقفا ينتظر بالشرفة المجاورة للردهة الصغيرة ، وما كاد لويس الرابع عشر يرى قائد فرسانه حتى هتف به قائلا : « حسنا . . هل نفذت الأمر ؟ » أين المسيو فوكيه ؟ »

فانحنى دارتانيان وقال : « انه يتبعني يا مولاي »

فقال له الملك : « اذن دعه يدخل بعد عشر دقائق »

ثم صرف دارتانيان بإشارة من يده ، على أن هذا لم يكده يصل الى حيث كان فوكيه ينتظر حتى دق الملك الجرس طالبا أن يعود اليه ، ثم سأله قائلا : « ألم تلاحظ على فوكيه شيئا من الدهشة ؟ » . ولما أجاب بالنفي صرفه الملك مرة أخرى ، فخرج دارتانيان وقد أكد ظنه أن الملك لم يذكر كلمة (مسيو) قبل اسم الوزير . ولم يكن فوكيه قد غادر الشرفة التي وقف بها ينتظر ، وعاد يقرأ الرسالة التي وضعها ذلك الرجل في يده ، وكان فيها ما يلي : « ان شيئا يعد ضدك . ولعلمهم لا يجروون على تنفيذه بالقصر ، على أن ينفذوه في الطريق عند أوبتك . ان القصر الآن محاط بالفرسان فلا تدخل . هناك جواد أبيض ينتظر خلف الميدان »

وكان فوكيه قد أدرك منذ وقعت عينه على الخطاب أنه بخط صديقه المخلص جورفيل ، فأشفق أن يقع هذا الصديق في مأزق بسبب خطابه هذا اذا هو قبض عليه ، وسرعان ما مزق الخطاب قطعاً صغيرة وقذف بها من الشرفة فحملتها الريح الى كل ناحية . وفيما هو ينظر اليها وهي تطير جاءه دارتانيان وقال له : « ان الملك في انتظارك يا سيدي »

فمشى فوكيه بخطى ثابتة في الردهة الصغيرة حيث كان (دي برين)

الفرصة أمامك للهرب حيث لا شرطة ولا حراس ولا أوامر ، والنهر حر والطريق حرة ، بل انى لا مانع لدى من اعادة جياذك لك اذا شئت مغادرة نانت قبل وصول الملك ، ويمكنك أن تطلب الى ما تشاء فاني في خدمتك . وليس لي ما اطلب في مقابل ذلك الا أن تؤدي لي خدمة مشكورة بأن تبلغ تحياتي الى أراميس وبورتوس اذا أبحرت الى (بل - أيل) ، ما دام لك الحق في ذلك الآن ! »

ثم انحنى أمام الوزير وغادر جناحه . ولم يصل الى درج الردهة حتى دق فوكيه الجرس وصاح بالخدم قائلا : « أعدوا جياذي وزورقي ! »

ثم ارتدى الملابس التي وجدها في متناول يده وصاح وهو يضع ساعته في جيبه : « أين جورفيل ؟ » . وجاء هذا مسرعا وهيثته تدل على الرعب ، فما رآه فوكيه حتى صاح به : « هيا بنا ! »

فقال جورفيل : « لقد فات الوقت يا سيدي ، لأن الملك وصل الى القصر الآن ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « اذن لقد ضعنا ! »

والواقع أن الملك كان في تلك اللحظة يدخل المدينة ، فأطلقت المدافع من الحصون تحية لقدومه وجاوبتها مدافع من سفينة حربية بالنهر . وتملك فوكيه اليأس فنادى وصفاءه وارتدى ثيابه الرسمية ، ورأى من وراء ستائر النافذة تحمس الجماهير وحركة الجيوش . ومضى موكب الملك الى القصر وسط مظاهر فخمة ، ثم رآه يهمس شيئا في أذن دارتانيان بعد أن نزل من فوق ظهر جواده عند الباب . فاتجه دارتانيان صوب البيت الذي نزله فوكيه ولكن ببطء وتردد . ففتح فوكيه النافذة ليكلمه وهو في الردهة . ولما رآه دارتانيان صاح به قائلا : « ألا تزال هنا يا صاحب الفخامة ؟ . لقد جئت أسأل عن صحتك ، ولكي أرجو أن تذهب الى القصر اذا سمحت بذلك حالتك الصحية . ان وصول الملك لم يدع لأحد حرية المرور بل هناك كلمة سر تتحكم فيها جميعا ! »

فتنهذ فوكيه من أعماق قلبه ، ثم ركب عربته متهاككا فيها على المقعد وذهب الى القصر في صحبة دارتانيان !



و (روز) يعملان ، بينما جلس (سان - اينيان) على كرسى صغير وسيفه بين ساقيه ينتظر الاوامر فى صبر نافذ . وعجب فوكيه كيف لم يلتفت اليه هؤلاء الثلاثة اقل التفات مع أنهم كانوا عادة كثيرى الأدب نحوه ، ولكنه تجاهل ذلك قائلا لنفسه : « ماذا ينتظر من رجال البلاط غير ذلك بعد أن أدركوا غضب الملك على وزيره ؟ » . ثم مضى فى طريقه وقد رفع رأسه أمام الجميع ، الى أن دخل جناح الملك بعد أن أعلن قدومه جرس صغير هناك

ولما رآه الملك أوما له برأسه دون أن يقوم للقاءه ، ثم سأله : « كيف أنت يا مسيو فوكيه ؟ »

فقال : « اننى أشعر بحمى شديدة ، ولكنى فى خدمة الملك على كل حال ! » فقال الملك : « حسنا ! ان البرلمان سيجتمع غدا فهل أعدت خطابا ؟ » فنظر فوكيه الى الملك مندهشا وقال : « لم أعد أى خطاب يا مولاي ، ولكنى لن أجد مشقة فى الارتجال ما دمت ملما بكل صغيرة وكبيرة من شئون الوزارة . على أنى أريد أن أسأل جلالتك سؤالا واحدا فهل تسمح جلالتك بذلك ؟ »

قال : « سل ما تريد »

فقال : « لماذا لم تذكر جلالتك لوزيرك الأول أن عليه أن يعد خطابا ؟ »

قال : « لم أرد أن أجهدك لعلمي بأنك مريض ! »

فقال الوزير : « ان العمل لا يجهدنى كما يعلم مولاي ، وعلى كل حال أرجو أن يسمح لى مليكى باستيضاح أمر آخر »

فاحمر وجه الملك ، وسأله : « أى أمر يا مسيو فوكيه ؟ » . فأجاب الوزير : « ان بعض الناس قد افتروا على كذبا ، ولهذا أطمع فى عدالة جلالتك »

فبدا الضجر فى وجه الملك وقال : « انى أعرف كل شيء ولا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسيء اليك ! »

فقال الوزير : « شكرا لك يا مولاي ، على أنى أرجو أن تسمح لى جلالتك بأن أذفع عن نفسى ما بلغوك عنى من الوشائيات والاتهامات ! »

فقال الملك وقد اشتد ضجره : « أكرر لك أنى لا أتهمك بشيء »

فانحنى فوكيه قليلا وتراجع خطوة الى الوراء وهو يقول لنفسه : « لا ريب أنه قد صمم على قرار . انه اعتاد ألا يتراجع بأى حال »

ثم قال للملك : « هل بعثت جلالتك فى طلبى لأجل اجتماع البرلمان غدا فقط ؟ »

فقال الملك : « كلا يا مسيو فوكيه ، بل أردت أن أنصح لك بأن تستريح وتستريح ولا تبدد قوتك هباء . ان اجتماع البرلمان لن يطول ، ولن تكون هناك بعد ذلك أعمال عاجلة فى باريس لمدة أسبوعين ! »

فقال الوزير : « أليس لدى الملك ما يقوله لى بشأن اجتماع البرلمان ؟ » قال : « كلا . كل ما أريده أن تستريح ! »

فعض فوكيه شفثته من الغيظ ، وحنى رأسه متظاهرا بالاعتناء ، لكن الملك لم يفته أنه مشغول إلبال فسأله متلطفا : « أيفضبك أن تستريح يا مسيو فوكيه ؟ »

فتنهذ الوزير وقال : « الواقع يا مولاي انى لم أعتد الراحة حتى حين أكون مريضا ، ثم انى سمعت جلالتك الآن تتحدث عن خطاب ألقيه فى البرلمان ! »

فبهت الملك لهذه الملاحظة القوية ، ولحظ فوكيه تردده وخيل إليه أنه يقرأ نذير الخطر فى عينيه فقال لنفسه : « لو أبديت خوفا لضعفت » . ثم قال للملك : « ما دام مولاي يشفق على صحتى الى حد الاستغناء عن عملى ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمح لى بالتخلف عن اجتماع المجلس غدا لا اعتكف فى الفراش ؟ »

فقال له الملك : « كما تشاء يا مسيو فوكيه ، اعتكف غدا وسأبعث اليك طبيبى ليعالجتك من الحمى التى تشكوها »

فانحنى فوكيه شاكرا ، ثم أراد أن يرمى آخر سهم فى جعبته فنظر الى الملك متفرسا وقال : « هل لى أن أرجو تفضل جلالتك بزيارة قصر (بل - أيل) ؟ »

فاحمر وجه الملك ثانية وقال وهو يحاول أن يبتسم : « هذا ما اعتزمته يا مسيو فوكيه ، وأنت تذكر طبعاً أنك أهديت الى هذا الحصن ! »

فقال فوكيه : « نعم أذكر ذلك يا مولاي . وانه لشرف عظيم لى أن أرى كل هذه الحاشية العسكرية تاتى من باريس لهذا الغرض ! »

فقال الملك متلعثما : « ان الفرسان لم يأتوا من باريس لأجل ذلك وحده . وقد سمعت مديحا كثيرا فى فلاحيك هناك ولهذا أريد أن أراهم . واذ كانت لديك وسائل للانتقال فلنسافر غدا الى (بل - أيل) اذاشئت ! »

فشعر الوزير بهذه الضربة وقال : « الواقع يا مولاي أنى كنت أجهل رغبة جلالتك هذه - وعلى الأخص رغبتك فى السفر بهذه السرعة - ولهذا لا تزال الزوارق الخمسة التى عندى كلها فى الميناء ، أو فى بامبيف ، واحضارها الى هنا يستغرق على الأقل أربعاً وعشرين ساعة . فهل أبعث رسولا لاحتضارها ؟ »

فقال الملك : « يجب أن تشفى أولا من الحمى . فلننتظر الى غد ! » . ثم هم الملك بدق الجرس فحال فوكيه دون ذلك قائلا : « معذرة يا مولاي ! ان بى ألما ورعدة من الحمى . واذا بقيت لحظة أخرى فربما أغمى على . ولذا أرجو من جلالتك السماح لى بالذهاب لآوى الى فراشى ! »

فنظر اليه الملك وقال : « انك ترتعد حقا يا مسيو فوكيه ، فاذهب الى فراشك وسوف أستعلم عن صحتك »

فقال فوكيه : « شكرا لمولاي على هذا العطف الكريم ، واني لا أشعر بأن صحتي ستتحسن بعد ساعة على الأكثر ، وسيسرنى أن أعتد الآن على ذراع أى انسان ! »

فدق الملك جرسه الصغير وصاح قائلا : « يا مسيو دارتانيان »

فضحك فوكيه وقال : « أتعطينى قائد فرسانك لكي يأخذني الى مسكني؟ ان هذا شرف يحتمل معنيين يا مولاي . ان حاجبا يكفي لهذا الغرض ! »

فقال الملك دون أن يضحك : « ان المسيو دارتانيان كثيرا ما يقودني ! »

فرد فوكيه قائلا : « انه حين يقود جلاتك يا مولاي انما يكون في خدمتك ورهن اشارتك فقط ، أما حين أعود الى بيتي وذراعي في ذراع قائد الفرسان فسيقال في كل مكان انك أمرت بالقبض على .. ولا شك في أن بعض الناس سيضحكون فرحا لذلك ! »

وكان فوكيه بارعا في هذا الهجوم فقد جعل لويس الرابع عشر يتراجع أمام الأمر الذي ينتويه . فلما جاء المسيو دارتانيان قال له : « كلف أحد فرسانك أن يرافق الوزير »

فقال فوكيه : « ان جورفيل ينتظر في الخارج ، وهذا يكفي . على أني يسعدني أن المسيو دارتانيان سيري (بل - أيل) وهو الخبير بالاستحكامات » فانحنى دارتانيان دون أن يفهم شيئا ، وانحنى فوكيه للملك ثانية ثم غادر الجناح الملكي وحده في وقار حتى اذا صار خارج القصر قال لنفسه : « لقد نجوت ! يا لك من ملك غادر ! انك ستري (بل - أيل) ولكن حين لا أكون هناك ! »

وقال الملك لدارتانيان بعد أن انصرف فوكيه : « اسمع يا كابتن .. ستتعلم المسيو فوكيه على بعد مائة خطوة ، وستقبض عليه باسمي ونحزبه في عربة بحيث لا يتكلم في الطريق مع أحد ولا يرمى ورقة لأحد ! وقد أعدت لذلك عربة ذات قضبان متشابكة ، وقد ربطت بها الجياد وأخذ سائقها مكانه فيها ، وهي الآن والفرسان ينتظرون في فناء القصر »

فانحنى دارتانيان وقال : « والى أين نقود المسيو فوكيه ؟ »

فقال : « الى قصر أنجير أولا ، ولا تنس أن المسيو دي جيفر سيغضب لأننا استخدمنا الحرس الخاص دون حرسه هو في القبض على المسيو فوكيه ! »

فانحنى دارتانيان وقال : « ان جلاتك لم تستخدم حرسك الخاص الا لأنك تحرص على ألا يهرب المسيو فوكيه ، وإذا كان هذا قد يحدث مع سواي فانه لا يحدث معي يا مولاي ، برغم اعتقادي التام بأن المسيو فوكيه

ليس رجل سوء . والآن عندي أوامر أنفذها ويمكنك أن تعد المسيو فوكيه مقبوضا عليه وأنه محبوبس في قصر أنجير »

فقال الملك : « لكنك لم تقبض عليه بعد يا كابتن ! »

فقال : « هذا أمر يخصني . كل انسان له صناعته يا مولاي . ولكن اذا كان مولاي جادا في هذا الأمر الذي أصدره الى بالقبض على المسيو فوكيه ، فأرجو التفضل باعطائي هذا الأمر مكتوبا »

فناوله الملك ورقة وقال : « هاك الأمر مكتوبا ! »

فانحنى دارتانيان وغادر الغرفة . ولمح من الشرفة جورفيل ذاهبا في سرور صوب مسكن فوكيه !



قال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا عجيب حقا . جورفيل يمشي هكذا في الشوارع مسرورا مع أنه يعلم علم اليقين أن المسيو فوكيه في خطر ، ومع أن من المؤكد أن جورفيل نفسه هو الذي حذر المسيو فوكيه بذلك الرسالة التي مزقها الوزير اربا في الشرفة »

ثم تتبع دارتانيان وهو ينظر من شرفة القصر العالي شوارع نانت، فرأى خارج أبواب المدينة طريقين أبيضين ، وشارع ايرب يقود الى أحد هذين الطريقين ، وهم بأن يهبط الدرج ويأخذ العربة ذات القضبان المتشابكة ويذهب الى مسكن المسيو فوكيه ، ولكن اتفق أن لفت نظره وهو يهبط الدرج نقطة تتحرك في ذلك الطريق . فسأل نفسه : « ما هذا ؟ انه جواد يركض ، وعليه أحد الناس . لا بد أن يكون غلاما قد طمى جواده فهو يذهب به الى نقطة بشاطئ النهر لكي يشرب » . ثم وجد على بعض الدرج قطعة من الورقة التي مزقها فوكيه فتناولها وقال : « انها بخط جورفيل . ان الحظ حليف لويس الرابع عشر على فوكيه » . وما لبث أن قرأ على تلك الورقة كلمة « جواد » وتناول ورقة ثانية فلم يجد بها شيئا ثم ثالثة فوجد بها كلمة « أبيض » . فارتاب في الأمر وقال : « انه اذن جواد أبيض . ليس غير فوكيه يركب هكذا وسط الحقول في وضح النهار . ليس غير وزير المالية يهرب هكذا نحو البحر ليستقل زورقا الى بل - أيل »

وسرعان ما أمر بالمضى بالعربة ذات القضبان الحديدية الى غابة في خارج المدينة ، ثم اختار أحسن جياده وقفز فوق ظهره وجرى به في شارع ايرب، ثم لم يتخذ الطريق الذي سلكه فوكيه بل سار على شاطئ اللوار وهو موقن أنه بذلك يقتصد عشر دقائق في المسافة كلها ، وانه عند مفترق الطريقين يستطيع ادراك الهارب الذي لا يدري أنه مطارد . ومن عجب أنه - وهو الشفيق على فوكيه - قد صار الآن قاسيا يكاد يطلب دمه . وظل مدة طويلة يجري



وقال الملك للمسيو فوكيه : « لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسيء إليك »

به جواده دون أن يلمح الجواد الأبيض، فخاف أن يكون فوكيه قد اختفى في طريق تحت الأرض ، أو أن يكون قد أبدل بجواده الأبيض أحد تلك الجياد السوداء الشهيرة التي تسابق الريح ، وكان دارتانيان قد رآها في (سان - انديه) وأعجب بها . وأعمل مهمازه في الجواد حتى كاد يقتله من السرعة وصار يلوم نفسه إذ ترك جورفيل يخدعه ويقول لنفسه انه لا شك قد بلغ به الكبر مبلغه ، وتصور أن الناس سوف يقولون انه أخذ من فوكيه مليون فرنك ليدعه يهرب . وانه لكذلك اذا به يرى بفتة شبعا أبيض على بعد ، وكان يسير بسرعة البرق، فقال لنفسه : « ان فوكيه ليس فوق جواد عادي ! يجب أن أدركه ولو قتلت جوادى . لعل الجواد الأبيض يضعف ، واذا لم يسقط من التعب فقد يسقط راكبه » . ولكن الجواد وراكبه ظلا يتهبان الأرض نهبا . فصاح دارتانيان صيحة مرعبة جعلت فوكيه يلتفت وراءه ويزيد في سرعة جواده . وعندئذ صرخ دارتانيان بأعلى صوته : « يا مسيو فوكيه ! قف ! قف ! باسم الملك ! » . ولكن فوكيه لم يجب . وعاد دارتانيان يصيح : « أسمعني ؟ قف ! » . وكاد دارتانيان يجن جنونه ، وغلا الدم في عروقه حتى صعد الى عينيه . ثم صاح : « قف باسم الملك والا أطلقت عليك الرصاص » . فصاح فوكيه قائلا : « أطلق » . ولم يقف

فأمسك دارتانيان بمسدسه وصوبه وصاح به : « ان معك مسدسك فاستدز ودافع عن نفسك »

واستدار فوكيه ولكنه لم يلمس جراب المسدس . ولم تكن المسافة التي بينهما تزيد على عشرين خطوة . فقال له دارتانيان : « انى لا أريد أن أغتالك . اذا كنت لن تطلق الرصاص على فاستسلم ! »

فأجاب فوكيه : « انى أوتر الموت ، فانه أخف ألما ! »

فغلب اليأس على دارتانيان وقذف بمسدسه الى الأرض وقال : « سأخذك حيا ! »

وببراعة لا تتاح لغير ذلك الفارس جعل جواده أمام الجواد الأبيض بعشر خطوات ، ثم مد يده استعدادا لأمساك فوكيه . فصاح به هذا : « اقتلنى . اقتلنى . ان ذلك أقرب الى الانسانية ! »

فتمتم الكاتبن قائلا : « كلا بل آخذك حيا ! »

واتفق في هذه اللحظة أن عبث جواده فاستطاع جواد فوكيه أن يتقدمه ! وعادت المطاردة من جديد فتملك دارتانيان اليأس وأمسك بمسدسه وصوبه قائلا : « الى جوادك لا اليك » . وأطلقه فأصاب الجواد الأبيض ولكنه ظل يعدو . وفي تلك اللحظة وقع جواد دارتانيان ميتا فصاح دارتانيان بخضمه يقول : « أذف الى مسدسا لأطلقه على رأسى . . اننى أوتر أن أموت ميتة شجاع بهذا الطريق على أن أقتل نفسى بعد ساعة ! »

ثم أخذ يجرى على قدميه وراء فوكيه ، وتخلص من قبعته وردائه وغمد

سيفه لكي يخف حملة ، وما لبث قليلا حتى ألقى سيفه أيضا حتى لا يعوقه عن العدو . وبدأ الوهن يصيب الجواد الأبيض فتعثر في مشيته وظهر الزبد على فمه ممزوجا بدم . وبذل دارتانيان جهدا مضاعفا حتى وصل إلى فوكيه فأمسك به من إحدى سناقيه وقال له وهو يلهث من التعب : « باسم الملك أقبض عليك ! . أطلق الرصاص على رأسى إذا شئت . لقد أدى كل منا واجبه ! »

وكان جواب فوكيه أن ألقى في النهر بالمسدسين اللذين كانا معه ، ثم نزل من فوق جواده قائلا : « انى أسيرك يا سيدى ، استند إلى ذراعى فانى أراك مشرفا على الإغماء ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « شكرا لك ! » . وكان يحسن أن الأرض تتحرك تحت قدميه وأن السماء تدوب فوق رأسه ، بينما انطلق فوكيه إلى حافة النهر فاغترف بعض الماء في قبعته ورجع بها إلى دارتانيان وأعطاه رشقات من الماء وراح يربت عارضيه بالقبعة المبللة وهو يتسهم له في عطف ، فغمغم الفارس القديم قائلا : « شكرا لك يا سيدى . ان هذا النيل العظيم من محكوم عليه مثلك لا يمكن أن يرقى إليه لويس الملك الجالس على عرش فرنسا ، ولا فيليب نزيل سانت مر جريت ! »

فابتسم فوكيه في مرارة وقال : « لقد كان جدبرا بى أن اتخذك صديقا يا مسيو دارتانيان ، ولكن هكذا كان . والآن كيف نعود إلى نانت وقد صرنا على مسافة بعيدة منها ؟ . ان الجواد الأبيض قد يستعيد قوته ، وعلى هذا تستطيع أن تتركب أنت وأمشى أنا حتى تستريح ! »

فقال دارتانيان : « ان هذا الجواد المسكين لا يستطيع السير لأنه جريح ! » فقال فوكيه : « أؤكد لك أنه يستطيع السير . انى أعرفه جيدا يا مسيو دارتانيان ، بل هو يستطيع أن يحملنا معا ويسير بنا في بطاء . فهيا نحاول ذلك »

ثم ركبا الجواد معا ، فمضى بهما بضع دقائق في الطريق إلى نانت ، ثم غلبه التعب فتعثر في مشيته وما لبث قليلا حتى سقط ميتا !

ووقف فوكيه ودارتانيان هنيهة صامتين ، ثم قال فوكيه : « سنسير على أقدامنا . ان القدر يريد ذلك ! »

ثم تأبط ذراع دارتانيان ، ومشيا في بطاء كأنهما يتنزهان ، حتى إذا قطعما الفراسخ الأربعة التى تقع في نهايتها الغابة حيث خبئت العربية ذات القضبان المتشابكة ، قال فوكيه لدارتانيان وهو يشير إلى العربية : « لماذا تلك القضبان المتشابكة يا مسيو دارتانيان ؟ . انها ليست فكرتك ولا شك ! » فقال قائد الفرسان وهو يكاد يدوب خجلا : « هكذا أراد الملك حتى لا تلقى رسالة إلى أحد في الطريق . على أنك ان لم تستطع الكتابة إلى من تشاء ففى استطاعتك أن تقول ما تريد فيبلغ إلى من تريد ! »

فنظر إليه فوكيه شاكرا وقال : « انها كلمة واحدة هي كلمة (سان - مانديه) . فهل تعدنى بأن تبلغها إلى مدام دى بليير أو إلى بليسون ؟ » فقال دارتانيان : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم ركب العربية فمضت في شوارع نانت حتى بلغت طريق أنجير

□

كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما نفذ صبر الملك فخرج إلى الشرفة وترك باب الردهة مفتوحا ليرى ما يفعله سكرتيره . وكان المسيو كولبير جالسا يتحدث بصوت منخفض مع المسيو دى بريين . فدخل عليهما الملك فجأة وسأل : « ماذا تقولان ؟ »

فنهض المسيو دى بريين وقال : « كنا نتحدث عن اجتماع البرلمان » فقال الملك : « حسنا » . ثم رجع إلى غرفته . وبعد خمس دقائق دق الجرس داعيا إليه روز سكرتيره الخاص وسأله : « هل انتهيت من النسخ ؟ وهل رجع المسيو دارتانيان ؟ »

ولما علم بأن دارتانيان لم يرجع بعد ، بدت في وجهه أمارات الدهشة والقلق ، وأمر بأن يدعى إليه المسيو كولبير ، وكان هذا في انتظار ذلك منذ الصباح ، فلما رآه الملك قال له : « يا مسيو كولبير . . أريد التأكد مما حدث لدارتانيان »

فقال كولبير بصوته الهادىء : « أين تريد جلاتك أن نبحث عنه ؟ » فقال الملك : « ألا تدري أين بعثته ؟ . . اننى لم أخبرك بهذا ولكن هناك أشياء تستطيع أن تعرفها بالحدس والتخمين ! »

فقال كولبير متلعثما : « ان الظن يخطئ أحيانا كما يصيب أحيانا » ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات حتى دخل دارتانيان صاحب الوجه وقال للملك : « مولاي . . هل جلاتك أصدرت إلى الفرسان أمرا في شأن المسيو فوكيه ؟ »

فقال الملك : « كلا ، وهنا عرض دارتانيان على طرفي شاربه وأشار إلى كولبير قائلا : « اذن لم أخطئ في حدسى . . ان هذا السيد هو الذى أمر بقلب دار المسيو فوكيه رأسا على عقب ، وبضرب خدمه وتحطيم خرائنه ونهبها ! »

فامتقع وجه كولبير ، وواصل دارتانيان كلامه فقال : « ان الملك وحده هو الذى له الحق في إصدار الأوامر إلى فرسانى . أما أنت فلا حق لك في ذلك . وأنا أقول لك أمام صاحب الجلالة : ان السادة الذين يحملون السيوف ليسوا مثل أولئك الأشخاص الذين يحملون أقلاما وراء آذانهم ! »

فقال له الملك : « دارتانيان ! . علام هذه الضجة كلها ؟ »

والتنكيل ؟. ولكن عفوا يا مولاي ولاحدثك عن مهمتى أولا .. لقد قبضت على المسيو فوكيه و ... »
فقطع الملك كلامه وقال له في حدة : « لقد استغرقت وقتا طويلا في أداء هذه المهمة ! »

فنظر دارتانيان الى الملك متعجبا وقال : « عفوا يا مولاي ، انى أخطأت التعبير فالواقع انى لم أقبض على المسيو فوكيه ولكنه هو الذى قبض على ! »
فبدت الدهشة في وجه الملك ، بينما أخذ دارتانيان يروى له ما حدث من هرب فوكيه على جواد أبيض ، ثم مطاردته اياه وما كان من نبيل فوكيه بعد ذلك ، ثم قال : « ان رجلا له هذا الخلق الكريم يا مولاي لا يمكن أن يكون عدوا للملك . وانى اذ اصارح بجلالتك براى هذا لا قدر ما قد تقوله جلالتك من أن القبض عليه يرجع الى أسباب تتعلق بالدولة » . فسكت الملك قليلا ثم قال : « أين المسيو فوكيه الآن ؟ »

فقال له دارتانيان : « انه الآن يا مولاي في القفص الحديدى الذى أعده له المسيو كولبير ، والجياد تعدو به في الطريق الى أنجير ! »
فسأله الملك : « لماذا تركته بالطريق ؟ »

فأجاب قائلا : « ان جلالتك لم تأمرنى بالذهاب الى أنجير ، وهناك سبب آخر هو أن المسيو فوكيه المسكين لن يحاول الهرب لو أننى بقيت معه ! »
فبدت الدهشة في وجه الملك وسأله مستنكرا : « ماذا قلت يا كابتن ؟ »
فأجاب قائد الفرسان : « ان جلالتك تدرك ولا شك أن حريته صارت أعز أمانى بعد تصرفه معى على ذلك النحو . ولقد سلمته الى أغبى جندى بين فرسانى لكى أتبع له فرصة للفرار »

فشبك الملك ذراعيه فوق صدره وقال في غضب : « هل جنتت يا مسيو دارتانيان ؟. لماذا اذن لم تسرفى ركاب ذلك الذى اراد المسيو فوكيه أن يضعه فوق عرشى ؟ »

فأجاب دارتانيان في هدوء : « لو أن المسيو فوكيه لم يسارع اليك في الباستيل ، لسارع اليك رجل واحد هو دارتانيان ! »

فسكت الملك ، وبعد قليل رجع كولبير الى الحجره فسأله الملك : « هل قمت بتفتيش منزل المسيو فوكيه ؟ وماذا وجدتم فيه ؟ »

فقال كولبير : « ان المسيو دى رونشير الذى ذهب الى هناك مع الفرسان سلمنى بعض الاوراق »

فقال الملك : « سأنظر فيها فيما بعد ، أما الآن فهات يدك لكى أضعها في يد المسيو دارتانيان ! »

ثم التفت الملك الى دارتانيان وقال له : « انك يا مسيو دارتانيان لا تعرف هذا الرجل حق معرفته ، لكنك ستعرف اى رجل عظيم هو حين أرفعه الى مركز من الدرجة الاولى ! »

ولكن دارتانيان استمر في كلامه قائلا : « ان هذا مهين !. لقد وصم فرسانى بوصمة العار . انى لا اقود جماعة من الناهبين السالين ولا كسبة في المالية . وهذا السيد ما كان يعرف اوامر جلالتك ، ولا انى ذهبت للقبض على المسيو فوكيه ، ولكنه مع هذا أرسل المسيو دى رونشير الى دار المسيو فوكيه بحجة البحث عن أوراق صاحبها ، وكنت قد وضعت فرسانى حولها منذ الصباح ، فأمرهم المسيو كولبير بالاشتراك في اقتحامها واتلاف أثاثها ونهب ما فيها !. اننا في خدمة الملك ولسنا في خدمة المسيو كولبير ! »

وهنا أسكته الملك قائلا في حدة : « حذار يا مسيو دارتانيان . ان مثل هذه الأقوال لا تقال في حضرتى ، وبمثل هذه الالهجة ! »

وقال كولبير متلعثما : « لقد فعلت ما فيه مصلحة الملك . وانى ليحزنى أنلقى مثل هذه المعاملة من أحد ضباط جلالتك فلا أستطيع الرد احتراما لمقام الملك ! »

فقال له دارتانيان وعيناه تغدحان شررا : « ان احترام مقام الملك يكون أولا بجعل سلطته تحترم وشخصه يحب . واما اذا لعن الناس اليد التى تضربهم باسم الملك فهذا شيء آخر !. وانه لعجيب حقا أن يحتاج مثلك الى تعلم الرافة والشفقة من جندى مثلى قضى أربعين سنة في ميادين القتال وسفك الدماء !. انك يا سيدى ألقى القبض على كثير من الأبرياء وكبلتهم بالأغلال ثم قذفت بهم الى السجن . فبأى حق فعلت هذا ؟ ! »

فقال كولبير : « لعلهم شركاء المسيو فوكيه ؟ ! »

فقال دارتانيان : « من الذى قال لك ان المسيو فوكيه كان له شركاء ؟. بل من الذى قال لك انه مجرم ؟. ان الملك يا سيدى هو الذى يستطيع أن يقول ذلك لأن عدالته ليست عمياء !. ثم ما هذا الذى تقوله يا سيدى عن احترام مقام الملك ؟. ان جلالتك لا يمكن أن يسمح بمثل هذا التهديد . وثق كل الثقة بأننى أعرف لنفسى حقها وأعرف كيف أحميه ! »

ووقف قائد الفرسان أمام الملك وكولبير شامخ الرأس متقد النظرات ويده على سيفه ، وشفتاه ترتعشان ، ولم يخف عليه تردد الملك وحيرته فاتحنى له كأنما يستأذنه فى الانصراف. ولكن الملك استوقفه قائلا : « انك فى حاجة الى الراحة يا كابتن ، ويمكنك أن تذهب لتستريح ، ولكن خبرنى أولا : ماذا كانت نتيجة المهمة التى عهدت اليك فيها ؟ »

ولم يسع كولبير الا أن ينحنى للملك ثم يغادر الغرفة وعيناه تشعان بالوعيد لدارتانيان ، فلما صار هذا وحده مع الملك ولى عنه الغضب وقال : « مولاي .. ان الفجر هو الذى يدل الناس على أن اليوم سيكون صحوا أو معتما . وأنت ملك شاب فى فجر عهدك فماذا يقول الناس عن مستقبلهم فى هذا العهد اذا كان بين وزرائك من يحفزهم الغضب الى استعمال العنف

فارتبك كولبير سرورا وخجلا ، وغمغم هو ودارتانيان كلمات لم تسمع
بينما وأصل الملك كلامه فقال : « ان المعارضة الشديدة التي أبداها اراء
المسيو فوكيه كانت موجهة ضد الفساد لا ضد الاشخاص ، وان في ذهنه
من الآراء ما هو جدير بأن يجعل من مليكه ملكا عظيما ويحقق لوطنه رخاء
عاما »

ومد كولبير يده فصافح دارتانيان قائلا : « ان لم أستطع أن أكسب
لنفسى مودة بطل شريف مثل المسيو دارتانيان ، فاني لأرجو بتصرفاتي أن
أكسب تقديرك ! »

وأثرت هذه الكلمات في نفس دارتانيان فانحنى لكولبير باحترام ، وهنا
صرفهما الملك مغتبطا بأنهما تصالحا ، فغادرا الفرقة معا ، ولما صارا خارجها
قال دارتانيان للوزير الجديد :

— ان شعاع الشمس يمنع العين من رؤية اللهب المتوهج . ولكن ما دممت
قد وصلت الى مركزك فلماذا تواصل اضطهاد رجل منكوب سقط من
شاهق ؟

فقال كولبير : « أنا لا أضطهده يا سيدي وانما أردت أن أدير مالية الدولة
وأتقا من كفاءتي ونزاهتي ، لكي أنشئ بمال الدولة مدنا وثغورا ، كما أنشئ
بحرية تحمل علم فرنسا الى أقصى الأقطار ، وأفتح مكتبات عامة وأكاديميات .
وبومئذ لا أرى مانعا من طلب الرحمة للمسيو فوكيه الذي كان يحول دون
تلك الأعمال ! »

فقال دارتانيان : « ان الملك لم يسحقه الا من أجلك يا سيدي ! »

فرفع كولبير رأسه وقال : « من أجلى أنا ؟ ان الأمر ليس كذلك يا سيدي
فعند الملك أسباب خاصة لمعاداة المسيو فوكيه وأنت أدري بهذه الأسباب ! »

وهنا سمعا صوت الملك يصيح بسكرتيريه أن ينادوا دارتانيان فسارع
هذا اليه ، وقال الملك : « أعطت المسيو دي (سان - اينيان) عشرين من
فرسانك ليكونوا حراسا على المسيو فوكيه ، ولكي يقودوه من أنجير الى
الباستيل في باريس ! »

ثم قال لسان اينيان : « أطلق الرصاص على كل من يحاول التحدث مع
المسيو فوكيه ! »

فانحنى (سان اينيان) وذهب لينفذ الأمر ، وهم دارتانيان بالانصراف
ولكن الملك استبقاه قائلا : « اذهب توا الى (بل - أيل - أن - مير) وخذ
معك العدد الكافي من الجنود لمواجهة أى تمرد يقع هناك ! . لقد رأيت ذلك الموقع
في حدائتي ولا أحب أن أراه ثانية ، فاذهب اذن ولا تعد الا بمفاتيح ذلك
الحصن ! »

وهنا التفت كولبير الى دارتانيان وقال له : « هذه مهمة جلييلة اذا أحسنت
أداءها كنت جديرا بعضا المارشالية ! »

فسأله دارتانيان : « وهل لديك شك في أنني سأحسن أداءها ؟ »

فقال كولبير : « ان لك أصدقاء هناك يا مسيو دارتانيان ، وليس يسيرا
على رجل مثلك أن يمشى فوق جثث أصدقائه لكي يصل الى النجاح ! »
فلم يجد دارتانيان كلمة يقولها وخرج

وبعد ربع ساعة تسلم دارتانيان أمرا مكتوبا موقعا عليه من الملك ، يقضى
بأن يدك (بل - أيل) اذا قاومت ، وبمنحه السلطة المطلقة على جميع من
بالجزيرة حتى لا يتمكن أحدهم من الفرار

وقال دارتانيان لنفسه : « ان عصا المارشالية ستكلفني حياة صديقين
عزيزين كما قال كولبير ، ولكنهما ليسا أغني من الطيور ، لكي ينتظرا
الصيد ويسبوا له أجنحتهما ليصيها بسهولة ! »

ثم مضى يعد العدة لحشد الجيش الملكي دون أن يضيع دقيقة واحدة !



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ولم يجب أراميس بشيء . ثم مر بهما صياد عجوز وصاح وقد رأى الزوارق القادمة : « انها ليست زوارقنا ! » فهي تحمل أعلاما كالتي تحملها سفن نقل الجنود ! »

فصاح بورتوس في فرح : « اذن هو مدد أرسل الينا يا أراميس ؟ »
ففكر أراميس هنيهة ثم قال له : « بورتوس ! قم فأعط إشارة الخطر ،
ومر رجال المدفعية بأن يستعدوا خلف مدافعهم ، ثم راقب أنت بطاريات
الشاطيء ! »

فتفتح بورتوس فاه من الدهشة ونظر الى صديقه ليستوثق من أنه لم
يصبه خبل . ولما رأى أراميس تردده قال له : « سأذهب أنا فورا لاعطاء
هذه الاوامر ! »

فقام بورتوس وهو يقول : « سأذهب أنا لتنفيذها يا عزيزي ما دمت
مصرا على أن القادمين أعداء ! »

ولم تمض دقائق حتى كانت الجزيرة على استعداد للدفاع

وبعد ساعة ، كانت السفن قد اقتربت من الجزيرة ، واستطاع الأهالي
والجنود المرابطون فوق الصخور أن يروا في ضوء الشمس الغاربة علم ملك
فرنسا يرفرف فوق أشرعتها ، كما رأوا احدي تلك السفن تقف في عرض
البحر حين وصلت الى مرمى المدافع من الجزيرة ، ثم أنزل منها زورق صغير
فيه ثلاثة رجال اتجهوا به صوب الميناء ، وما لبثوا قليلا حتى وصلوا الى
سفح الحصن ، فقفز أحدهم الى الشاطيء وكان ممسكا خطابا بيده يلوح به
في الهواء طالبا مقابلة المسيو دربلاي ، فصحبه اثنان من الجنود حتى وضلا
به الى أراميس ، وكان هذا واقفا على رصيف الميناء وقد شمل الظلام المكان
برغم المصابيح التي يحملها بعض الجنود، على أن أراميس عرف فيه جوناتان
لدليل الميناء فهتف به سائلا : « أين كنت ومن هذا الخطاب ؟ »

فأجاب قائلا : « بعد أن خرجنا للبحث عن رفاقنا لم نكد نقطع فرسخا
حتى أسرتنا سفينة تابعة للملك ، وضمنا رجالها الى رفاقنا الذين أسروهم
منذ يومين ، وقد أفرجوا عنا اليوم وأعطاني هذا الخطاب لفخامتك قائدهم
وهو الكابتن دارتانيان ! »

فأمر أراميس بادناء المصباح منه، ثم فض الخطاب فوجده بخط دارتانيان
وفيه يقول :

« أمر الملك بالاستيلاء على (بل - أيل) وبقتل حاميتها اذا قاومت .
وأمر بسجن جميع رجال الحامية . وقد قبضت منذ يومين على المسيو فوكيه
لزوجه في الباستيل . دارتانيان »

فامتقع وجه أراميس ، وسأله بورتوس متعجبا : « ما هذا ؟ انه لشيء
عجيب جدا ! »

القائد الأسير

وقف أراميس وبورتوس يتحدثان معا عند شاطيء البحر في جزيرة
(بل - أيل) . وقال بورتوس متعجبا : « ان اختفاء جميع زوارق الصيد
التي أبحرت منذ يومين يبدو حادثا غير طبيعي ، فالبحر هادىء كما ترى ،
بل لو أنه كانت هناك عاصفة ما غرقت تلك الزوارق كلها ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا عزيزي بورتوس ، ان هذا الأمر لا يخلو
من غرابة »

فقال بورتوس : « وأعجب من هذا أن الزورقين الباقيين بالجزيرة لم
يعودا بعد أن أرسلتهما للبحث عن الزوارق الأخرى ! »

وهنا صاح به أراميس قائلا : « ماذا تقول يا بورتوس ؟ هل أرسلت
الزورقين الباقيين ليبحثا عن الزوارق الأخرى ؟ اذن لقد ضعنا ! »

فارتاع الى بورتوس وسأله : « ماذا تقول ؟ أنضيع لاننا لن نجد
زورقا ننزله به في البحر هنا ؟ »

فقال أراميس : « بل ضعنا لاننا لن نستطيع السفر بعد ضياع الزورقين
الباقيين ! »

فقال بورتوس : « ولماذا نسافر ما دامت الاوامر التي عندنا تقضى بأن
نعصم هنا في (بل - أيل) وتدافع عنها ضد الغاصب ؟ ! »

فتمتم أراميس قائلا : « صدقت ! » ثم سكت وأخذ ينظر الى البحر
نظرات زائغة . وظن بورتوس انه اقتنع بما قاله له فاستطرد قائلا : « انك
لم تفسر لي كيف اختفت جميع تلك الزوارق ، على الأقل لكي أستطيع أن
أجيب عن الأسئلة التي تنهال على من نساء الصيادين والملاحين وأولادهم ؟ »

فقال أراميس : « افرض أى شيء ولا تجب بشيء ! المهم هو أن تحييني
الآن عن هذا السؤال : ألا ترى زورقا في عرض البحر قادما نحونا ؟ »

فقال بورتوس وهو يبدق النظر الى نقطة سوداء على صفحة الماء : « انهما
زورقان بل ثلاثة بل أربعة . . . بل هو أسطول كامل يا عزيزي أراميس ! »

فقال أراميس منزعجا برغم تظاهره بالهدوء : « لعلها زوارق الجزيرة
عائدة ! »

فقال بورتوس : « كلا . . . انها أكبر من زوارق الصيد . ألا تلاحظ انها
قادمة من نهر اللوار ؟ » وما قد اجتمع النساء والأطفال على الشاطيء
لرؤيتها ! »

فقال بورتوس : « كلا . . . انها أكبر من زوارق الصيد . ألا تلاحظ انها
قادمة من نهر اللوار ؟ » وما قد اجتمع النساء والأطفال على الشاطيء
لرؤيتها ! »

واستأنف جوناتان كلامه فقال : « وقد ذكر المسيو دارتانيان أنه مستعد لأن يكلمك على ظهر سفينته . وكلفني أن أكون في خدمتكما بزورقي إذا شئتما الذهاب اليه للحصول على معلومات أوفى ! »

فقال بورتوس : « اذن نذهب اليه فوراً »
فعارض أراميس قائلاً له : « كلا ! ربما يكون هناك فسخ منصوب لنا ! » . ثم التفت الى دليل الميناء وقال له : « ارجع الى مسيو دارتانيان وأخبره بأننا نرجو حضوره هو الى الجزيرة »

فقال جوناتان : « وماذا أصنع إذا رفض الحضور ؟ »
فقال له أراميس : « إذا رفض فعندنا مدافعنا وسنستخدمها ! »
فصاح بورتوس : « نستخدم مدافعنا ضد دارتانيان ؟ ! »

فقال له أراميس : « إذا كان هو دارتانيان حقاً يا بورتوس فإنه سيأتي ! »
ثم أمر جوناتان بالرجوع لتبليغ الرد ، فمضى هذا لتنفيذ الأمر ، بينما تمت بورتوس قائلاً : « لست أفهم شيئاً من كل هذه الألفاظ ! »

فقال له أراميس : « سأشرح لك الآن كل شيء يا صديقي العزيز . هيا اجلس على عربة المدفع هذه وأصغ الى ، فقد آن الاوان لكي تعرف جلية الأمر »

فجلس بورتوس وقال : « انك يا صديقي تحسن الكلام حتى ان في استطاعتي أن أستمع اليك أيما دون أن أضجر . ولكي أسهل عليك الأمر سأوجه أنا اليك أسئلة لكي تجيب عنها . أما السؤال الأول فهو : لماذا نحارب هنا ؟ »

فأجاب أراميس بقوله : « الحق ان الاعتراف مهما يكن شاقاً فإنه يسهل أمام رجل شجاع كريم مثلك . فاعلم يا صديقي العزيز أنني خدعتك مع الأسف الشديد ! »

فقال بورتوس : « أنت خدعتني ؟ حسناً يا عزيزي ، اذا كان هذا لصالحك فإني تكون قد أديت لي خدمة ، لأنك لو لم تخدعني لخدعت نفسي في هذه الحالة ، فبماذا خدعتني ؟ »

فقال أراميس : « انني كنت أخدم الملك الغاصب الذي يوجه الآن لويس الرابع عشر جهوده ضده ! »

فحك بورتوس رأسه قائلاً : « الملك الغاصب ؟ ! اني لا أفهم تماماً ! »
فقال له : « انه أحد اثنين يتنازعان تاج فرنسا ، وليس هو لويس الرابع عشر ! »

فقال بورتوس : « هل لي أن أفهم من ذلك اننا نأثران على الملك لويس الرابع عشر ؟ ! وعلى هذا كانت الدوقية التي وعدت بها لا أساس لها ؟ ! »
فقال أراميس : « ان الملك الآخر هو الذي كان سيسمحك هذه الدوقية .

وثق يا صديقي بأنه لو كان الأمر قد تم طبقاً لحطتي لأصبحت أنت أميراً . أما وقد فشلت الحطة لسبب خارج عن ارادتي فسأسوى المسألة فيما بينك وبين الملك لويس الرابع عشر الغاصب علينا الآن بأن ألقى التبعة كلها على عاتقي ، فأنا وحدي الذي دبرت تلك المؤامرة ، وقد كنت في حاجة الى رفيق فلجأت اليك ولبيت أنت طلبى دون أن تعلم شيئاً من أغراضى ! »

فقال بورتوس : « ما دمت قد عملت لصالحك فمن المحال أن الوملك . انه لامر طبيعي أن تلجأ في ذلك الى صديق حميم ! »

وضغط بورتوس يد صديقه أراميس في نبل وسفاحة . فشعر هذا بأنه برغم ذكائه صغير الى جانبه ، واستطرد بورتوس فقال : « والآن وقد علمت موقفنا من لويس الرابع عشر ، أحسب أنه قد آن الاوان لأن تطلعني على المؤامرة السياسية التي كنت ضحية لها »

فقال أراميس : « ان دارتانيان صديقنا العزيز قادم الينا وسيقص عليك تفصيل تلك المؤامرة . ولكن ثق بانى في أشد الألم من أجلك ، وسأبذل كل جهدي لكي أخرجك من المأزق الذي دفعتك فيه . . اننى أنا وحدي الذي تأمرت ضد الملك لويس الرابع عشر ، أما أنت فلم تكن الا أسيراً عندي ، وسأطلق سراحك الآن لتعود الى مليكك مع صديقنا دارتانيان قائد فرسانه القادم الآن ! »

وهنا سمع الصديقان صوت زورق يرسو على الشاطئ فصح أراميس : « دارتانيان ؟ »

وكان قائد الفرسان هو القادم حقاً فهتف قائلاً : « أجل أنا دارتانيان . ثم صعد سلالم الرصيف مسرعاً حتى اذا بلغ وسطها وقف فجأة ثم التفت الى ضابط كان يتبعه وقال له : « لسنا الآن على ظهر السفينة حيث يسرى الأمر الذي معك ! »

فقال له الضابط على مسمع من أراميس وبورتوس : « ان الأمر الذي معى يا سيدى يقضى بأن أتبعك وأقف على كل حديث لك مع أى انسان ! »

فارتعد أراميس وبورتوس من القلق ، بينما عض دارتانيان على طرفي شاربه لشدة غيظه واقتراب الضابط وقال له : « لقد سمحت لك بالاطلاع على الكتاب الذى أرسلته الى هنا ، كما سمحت لك بسماع كل كلمة قالها الرسول بعد عودته جواباً عن ذلك الكتاب ، وتركتك تتعنى حتى وصلنا الى (بل - ايل) والأمر الذى معك من المسيو كولبير لا يسرى فيها ، وعلى هذا سأواصل الصعود الى هذين السيدين وحدي ، فان أنت خطوت خطوة أخرى خلفى ، فأقسم لأقطع رأسك شطرين بهذا السيف ثم لأدفن بك في البحر ! »

فامتقع وجه الضابط ولكنه لم يتحرك من مكانه وقال لدارتانيان : « اننى سأؤدى واجبى يا سيدى ! » . ثم رسم علامة الصليب على صدره ومضى

يصعد السلم خلف قائد الفرسان ، وهنا صرخ بورتوس وأراميس وأسرعوا ليحولا دون ضربة السيف التي كادت تصيب الضابط ، بينما قال له دارتانيان : « أنك رجل شجاع ، ولهذا أقول لك : ان هذين السيدين صديقاى وأريد أن أتحدث معهما دون شاهد ! »

فقال الضابط : « لست أستطيع أن ألبى طلبك هذا يا سيدى ، وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أسئ إلى بطل مثلك أحله وأمجده . وعلى هذا سأجلس هنا على السلم ريثما تتحدث مع صديقك ! »

وتعانق الأصدقاء الثلاثة ، ثم قال دارتانيان لأراميس وبورتوس : « لقد منع الملك دخول أى شئ إلى الجزيرة أو خروجه منها . والسفن الحربية وأقفة لكما بالمرصا للقبض عليكما ، وكنت أريد أن آخذكما إلى سفينتى لتكونا على مقربة منى ثم أطلق سراحكما . ولكن ما يدرينى الآن أنى حين أرجع إلى السفينة لا أجد أوامر سرية تنزع القيادة منى وتعطيها شخصا سوى يتصرف بى وبكما دون أمل لنا فى أى عون ؟ ! »

فقال أراميس : « اذن نبقى فى (بل - ايل) وأؤكد لك أننا لن نستسلم بسهولة ! »

وانظ دارتانيان أن بورتوس لم يقل شيئا فعجب لذلك ثم قال : « سأجرى تجربة أخرى مع هذا الضابط الشجاع ، انه خصم شريف شجاع كما رأيتما . ثم التفت إلى الضابط وسأله : « اذا أردت أن آخذ هذين السيدين معى فماذا تفعل ؟ »

فأجاب الضابط : « ليس لى أن أعارض ذلك يا سيدى ، ولكن عندى أوامر مشددة بأن أبقيهما فى هذه الحالة تحت حراستى ! »

فغمغم أراميس قائلا : « لقد انتهى الأمر ! » . ثم قال لدارتانيان : « خذ معك بورتوس ، وسيكون فى مكانه بمعاونتك أن يثبت للملك أنه لم تكن له يد فى الأمر كله »

وهنا قال بورتوس : « أحب أن أفكر أولا فى هذا الأمر » . فتبادل صديقاى نظرات اعجاب به واشفاق عليه . ثم همس دارتانيان فى أذن أراميس بضع كلمات ، قال له هذا على أثر سماعها : « انها فكرة بدیعة ولا شك ! »

ومرة أخرى عانق دارتانيان صديقيه ، ثم غادر (بل - ايل) مع الضابط الذى كان ينتظره صامتا ، وما كاد يصل إلى سفينته حتى دعا جميع الضباط الثمانية الذين تحت قيادته وبينهم هذا الضابط وقال لهم : « لقد ذهبت إلى (بل - ايل) ووجدتها حصينة ذات حامية قوية لديها من معدات الدفاع ما قد يكون متعبا لنا . وعلى هذا أقترح أن ندعو إلى هنا الضابطين الرئيسيين فى حامية الجزيرة ليريا بأعينهما القوة التى تحت تصرفنا ويقدران المصير الذى ينتظر الحامية ان لم تستسلم . وستؤكد لهما أن المسيو فوكيه سجين الآن وأن كل مقاومة لا فائدة منها »

وهم الضابط الذى تبعه بالكلام ، ولكنه منعه قائلا : « اننى أعرف ان هناك أمرا من الملك يمنع كل اتصال سرى بالمدافعين عن (بل - ايل) ولهذا لا أريد الاتصال بأحد منهم الا أمامكم »

وبدا من الضباط أنهم موافقون على هذا الاقتراح ، فسر دارتانيان وهم بإرسال زورق ليحىء بأراميس وبورتوس ، ولكن ذلك الضابط ناوله ورقة مطوية كتب عليها رقم (١) وقال له : « اقرأ هذا الأمر أولا يا سيدى ! »

فبسط دارتانيان الورقة وقرأ فيها ما يلى : « محظور على المسيو دارتانيان ان يجمع أى مجلس حربى أو أن يفاوض بأى شكل قبل استسلام (بل - ايل) واعدام رجال حاميتها بالرصاص . . لويس »

فتمالك دارتانيان نفسه وتصنع الابتسام وقال للضابط : « حسنا يا سيدى ! ان أوامر الملك مطاعة ! »

ثم خاطب الجميع قائلا : « أيها السادة . . ما دام الملك قد عهد إلى غيرى فى شأن أوامره السرية فهذا دليل على أنى غير جدير بثقتة . وعلى هذا سأعود توا لأقدم لجلالته استقالتى ، وأطلب اليكم جميعا أن تعودوا معى إلى شاطيء فرنسا »

وخيل إلى دارتانيان ان خطته لانقاذ صديقيه كلت بالنجاح ، اذ يكون فى استطاعتها متى فك الحصار عن الجزيرة أن يفرا إلى انجلترا أو أسبانيا . غير أن الضابط أبرز أمرا ثانيا من الملك هذا نصه : « فى اللحظة التى يبدى فيها المسيو دارتانيان رغبته فى الاستقالة تنتهى قيادته للحملة ولا يدين أى ضابط بالطاعة له . وعليه فى هذه الحالة أن يعود فوراً إلى فرنسا بصحة الضابط الذى يبلغه هذه الرسالة ، وعلى هذا الضابط أن يعده أسيراً يسأل عنه ! »

وامتقع وجه دارتانيان برغم شجاعته وقلة اكترائه ، وقال لنفسه : « فلأضع هذا الأمر فى جيبى حتى لا يطلع عليه أحد قبل أن أنقذ صديقى البائسين ! »

على أنه ما كاد بهم بتنفيذ فكرته هذه حتى أبصر الضباط حوله يقرأون صورا من ذلك الأمر وزعها عليهم الضابط . ثم اقترب منه هذا قائلا : « سيدى . . انى أنتظر ابداء رغبتك فى الرحيل ! »

فقال دارتانيان وهو يكظم غيظه : « انى مستعد ! »
فأمر الضابط باعداد زورق له ولأسيره ، ثم ناول قائد الأسطول ورقة مطوية وقال له : « هذه تعليمات الملك ! »

وما كاد الزورق الذى استقله دارتانيان وأتباعه من الفرسان مع الضابط يقترب من شاطيء فرنسا حتى وصل إلى مسامعهم دوى المدافع التى بدأ الأسطول إطلاقها على (بل - ايل)

رجع أراميس وبورتوس إلى الحصن الكبير بالجزيرة بعد أن تركهما دارتانيان ، وكان بورتوس يبدو مشغول الفكر فقال له أراميس : « عندى

فكرة تجعلنا نستعيد حريتنا بعد اثنتى عشرة ساعة . ان صديقنا دارتانيان سيعود ليقدّم استقالته للملك ، وفي أثناء رجوعه سيرفع الحصار عن الجزيرة ، وبذلك نستطيع أن نغادرهم سالمين ، أو نستطيع أنت ذلك على الأقل ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اما ان ننجو معا يا أراميس ، واما ان نبقى هنا معا ! »

فقال له : « حقا انك لبيل طيب القلب يا بورتوس ، غير أن اكتئابك يحزننى ! »

فقال بورتوس : « انى لست مكتئبا يا أراميس ، ولكنى مشغول البال بكتابة وصيتى لأنى أشعر منذ أيام بشيء من الضعف فى ساقى ، وقد جرت العادة فى أسرتنا بأن يكون هذا الشعور نذيرا باقتراب نهاية صاحبه . وقد كان جدى أنطوان له ضعف حجمى وقوتى وكان فى مثل عمري الآن حين خرج يوما للصيد فشعر بضعف فى ساقيه لم يشعر بمثله من قبل ، ولم يمض قليل حتى صادف خنزيرا برياً فأطلق عليه بندقيته ولكنه أخطأ الرمى فهجم عليه الوحش ومزقه شر ممزق ! »

فقال له أراميس : « ليس فيما تقوله أى داع . لأن تقلق على نفسك يا عزيزى بورتوس ، وأمامك فرص كثيرة . لكن ... »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « وكذلك كان أبى جاسبار فى مثل قوتى ، وكان جنديا بأسلا من جنود هنرى الثالث ثم هنرى الرابع ، فاتفق أن يشعر بضعف فى ساقيه يوما وهن ينهض عن المائدة فقال لأمى ضاحكا : (أترانى سيقنلتنى خنزير برى كالذى قتل أبى ؟) . فنصحت له أمى بأن يأوى الى فراشه ولكنه أصر على الخروج الى الحديقة وسرعان ما زلت قدمه وهو يهبط أولى درجات السلم فسقط على حجر حطّم رأسه وقضى لساعته ! »

فقال له أراميس : « هذان حادثان لا يقاس عليهما ، وليس يليق برجل فى مثل قوتك أن يؤمن باغرافات ، ثم انك لم تكن قط بمثل القوة التى تبدو بها الآن حتى لتستطيع أن تحمل بينا فوق كتفك ! »

فقال بورتوس : « على كل حال ليس فى الموت ما يخيفنى ولكنه يقلقنى الى حد ما . ان الحياة عزيزة على من يملك ثروة ومزارع وجيادا وله أصدقاء يحبهم مثل دارتانيان وآتوس وراؤول وأنت ! »

وأعجب أراميس ببساطة بورتوس كما أعجب بصراحته اذ لم يخف عليه المرتبة الأخيرة التى صار ينزله فيها بين أصدقائه ، فمد اليه يده قائلا : « لا يزال أمامنا سنوات عديدة نحياها لنحفظ للعالم نماذج من الرجال النادرين . ثق بى يا صديقى ... اننا لم نتلق جوابا من دارتانيان وهذه علامة طيبة . لا شك أنه قد أصدر أمرا بحشد السفن تمهيدا للعودة بها . وقد أمرت بأعداد سفينة شراعية عند فوهة كهف لوكاماريا لى نبحر به

من هناك فى الظلام . ومتى وصلنا الى أسبانيا فتق بأنك ستنال لقب دوق الذى تستحقه ! »

وانهما كذلك اذا بصيحة تطرق آذانهما : « الى السلاح ! الى السلاح ! » . وأطل أراميس من النافذة فأبصر جمعا من الناس ، بعضهم يحملون المصابيح وبعضهم جنود يحملون بنادقهم ، وراه أحد هؤلاء فهتف به قائلا : « الأسطول ! الأسطول ! » . فخرج ومعه أراميس وسارعا الى الميناء حيث وقفا خلف المدافع المعدة للدفاع ، بينما سفن الأسطول تقترب من شاطئ الجزيرة . وبعد خمس دقائق بدأ إطلاق المدافع ، ولم تمض الا دقائق حتى تمكنت بعض السفن من الوصول الى الشاطئ ، وهبط منها الجنود الى البر حيث بدأ الالتحام بين المهاجمين والمدافعين !

وكانما عاد أراميس وبورتوس الى أيام الشباب فهجما على رجال الأسطول فى قوة وعنف ، وأثار هذا حمية رجالهما فاستبسلا فى القتال ، واضطر جنود الملك ان يعودوا الى سفنهم حاملين جراحهم الكثيرين !

وقال أراميس لصاحبه : « أسرع يا بورتوس ، يجب أن نأسر أحدا منهم ! »

وسرعان ما مد بورتوس يده القوية فقبض بها على عنق أحد ضباط الأسطول الملكى وكان واقفا ينتظر حتى يركب جميع جنوده ثم رفعه بيده فى الهواء كأنه يحمل سمكة وقال لأراميس : « أيعجبك هذا الأسير ؟ »

فضحك أراميس وقال له : « ألم اقل لك انك لم تبد فى يوم من الايام أقوى مما أنت الآن ؟ »

فقال بورتوس : « لا تنس انى اخذته بيدي لا بساقى ! »

وقد سر البريتانيون من أهل الجزيرة بهذا الانتصار ولكن أراميس لم يشجعهم على الزهو والفخر ، بل قال لبورتوس : « ان الملك ستثور نأثرته حين يعلم بنبا هذه المقاومة وسيصيب جام غضبه على أهل الجزيرة الطيبين فيأمر بأعدام من يؤسر منهم فيما بعد ! »

فقال بورتوس : « هل معنى هذا أن ما فعلناه لا جدوى منه ؟ »

فقال أراميس : « ربما يكون له بعض الفائدة فى الوقت الحاضر فقد أسرنا أسيرا وسنعلم منه ما يعده أعداؤنا لنا . فأوما برأسه موافقا وقال : « اذن هيا بنا نستجوب الأسير ، ولعلنا نحسن أن دعونا الى العشاء معنا ، حتى اذا لعبت الخمر برأسه أفاض فى الكلام ! » . فوافق أراميس على ذلك

وكان الضابط الأسير قلقا فى البداية ، غير أنه اطمأن بعد قليل فأخذ يقص على أراميس وبورتوس بلا حيلة تفاصيل استقالة دارتانيان ورحيله ، وذكر لهما كيف أمر القائد الجديد للحملة بمهاجمة الجزيرة

وسأله أراميس عما يعترمه قائد الحملة نحو قائدى حماية الجزيرة

فأجاب قائلاً: « ان الاوامر تقضى بالقتل في اثناء القتال ثم الشنق بعد ذلك ! »

فتبادل اراميس وبورتوس نظرات قلقة وعلت وجهيهما حمرة ، ثم قال اراميس : « انى خفيف الوزن لا اصلح للمشنقة ، والناس الذين مثلى لا يشنقون ! »

فقال بورتوس : « اما انا فتقيل الوزن الى حد ان اى حبيل للمشنقة لا بد ان ينقطع اذا علقت به ! »

وهنا قال لهما الاسير معجبا : « انى واثق باننا كنا نسمح لكما بالميتة التى تختارنها ! »

فقال له اراميس : « شكرا جزيلا لك يا سيدى »

وانحنى له بورتوس ثم قدم له كأسا اخرى وتناول كأسه وشرب نخبه ... وطلال الحديث معه منتقلا من موضوع الى آخر . وكان الضابط شابا ذكيا وقد فتنه اراميس بذكائه ولباقته كما أعجبه من بورتوس بساطته ومودته . وما لبث قليلا حتى قال لهما : « معذرة اذا سألتكما : الستما من فرسان الملك السابق ؟ »

فأجابه بورتوس : « أجل يا سيدى بل كنا من احسن فرسانه ! »

فقال الضابط : « بل احسن الفرسان جميعا ! وانا اقول هذا برغم انه يسيء الى ذكرى أبى ! »

فنظر اليه كلاهما متسائلين عما يقصد باساءته الى ذكرى ابيه ، وواصل هو كلامه فقال :

— ان اسمى جورج دى بيسكارا

فصاح بورتوس : « بيسكارا ؟ الا تذكر هذا الاسم يا اراميس ؟ »

ففكر اراميس هنيهة وهو يردد اسم بيسكارا ، ثم سبقه بورتوس الى الكلام قائلاً :

— بيسكارا الملقب بالكاردينال ، أحد الاربعة الذين اعترضونا بسيوفهم يوم بدأنا صداقتنا مع دارتانيان !

فقال اراميس : « الآن تذكرت !. انه كان الوحيد الذى لم نجرحه يومئذ من اولئك الاربعة ! »

فقال الضابط الاسير : « ذلك لانه كان من ابرع المبارزين بالسيف ! »

فصاح اراميس وبورتوس معا : « يسرنا ان نعرف ابن ذلك الرجل الشجاع ! »

ومدا اليه يديهما فصافحهما بحرارة ، ونظر اراميس الى بورتوس نظرة كانه يقول بها : « ها هنا رجل سيساعدنا بلا تردد ». ثم قال اراميس للضابط :

« من سوء الحظ ان تعرف ليوم رجلين مقدرهما الاعدام بالرصاص او بحبل المشنقة ! »

فقال الضابط الشاب فى حماسة : « كلا يا سيدى .. انكما لن يقدر لكما مثل هذا المصير ! »

فقال له : « لكنك انت نفسك قلت ذلك منذ قليل ؟ »

فقال : « نعم قلت ذلك حين لم اكن اعرف من انتما. اما الآن وقد عرفتكما فانكما ستفاديان ذلك المصير اذا شئتما ! »

فصاح اراميس وهو يردد بصره بين الاسير وبورتوس : « كيف ذلك ؟ »

وقال بورتوس : « بشرط الا يكون فى الامر ما يشيننا ! »

فأجاب الضابط : « ليس مطلوباً منكما شيء . انهم اذا وجدوكما قتلوكما بلا ريب . فاحرصا اذن على الا يجدوكما ! »

فقال بورتوس فى شمم : « اذا اردوا ان يجدونا فليأتوا الينا هنا ! »

فقال له اراميس : « صدقت يا بورتوس . ثم التفت الى الضابط وقال له : « انك تريد ان تدلنا على مخرج لكنك لا تجرؤ على القول ، اليس كذلك ؟ »

فقال الضابط : « اذا انا تكلمت خنت واجبى . ولكنى اسمع الآن صوتا يعلو على صوتى »

فقال بورتوس : « انه صوت المدافع يا عزيزى ! »

وقال اراميس متمما : « مدافع وبنادق وسيوف ومسدسات ! ». ثم التفت الى الضابط وقال له : « ان الهجوم الذى قمتم به لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، ولا شك فى ان رفاقك قد تظاهروا بالارتداد عن الحصن لكى ينزلوا بالجانب الآخر من الجزيرة . اليس كذلك يا عزيزى ؟ »

فقال الضابط : « أجل يا سيدى . وهم مع الاسف الشديد كثيرون ! »

فقال الأسقف فى هدوء : « اذن .. لقد ضعنا ولا شك ؟ ! »

وقال بورتوس : « ربما . ولكننا لم نؤسر ولم نشنق بعد ! »

ثم قام بورتوس فتناول سيفه ومسدساته وفحصها فحص جندى قديم يستعد للقتال

وعلى صوت المدافع والهجوم المفاجيء على الجانب الآخر من الجزيرة ، اندفع الاهالى نحو الحصن يطلبون العون والنصح من قوادهم فوق اراميس بالنافذة بين مصباحين ، شاحب الوجه مكتئبا ، ونظر الى الجنود المحتشدين بغناء الحصن ينتظرون الاوامر ، وقال لهم : « يا اصدقائى : ان المسيو فوكيه صديقكم وحميكم ووالدكم قد قبض عليه بأمر الملك وزج به فى الباستيل ! »

فصاح الجميع صيحات السخط واخذوا يهتفون : « الانتقام للمسيو فوكيه ! »

وعاد أراميس فقال لهم : « كلا يا صحاب ! لا مقاومة، ان الملك هو السيد في مملكته . ان الملك هو ظل الله في أرضه . فاخضعوا ليد الله التي ضربت سيدكم ، ولا تنتقموا له . فانكم بذلك انما تضحون انفسكم بغير طائل ، وتضحون معكم نساءكم واولادكم ومتاعكم وما تملكون . ضعوا سلاحكم ايها الرفاق ما دام الملك يأمركم بذلك ، وعودوا في هدوء الى بيوتكم . اننى انا الذى آمركم بذلك باسم المسيو فوكيه ! »

فزمجر الجمهور المحتشد تحت النافذة غضبا ورجبا، ثم قال لهم أراميس : « ان جنود لويس الرابع عشر قد دخلوا الجزيرة . ومنذ هذه اللحظة لن يكون الامر قتالا بينهم وبينكم ، بل يكون مذبحه لكم . فاذهبوا اذن وانسوا ما كان . انى في هذه المرة آمركم بذلك باسم الله ! »

فتراجعوا في بطء ساكتين خاضعين . والتفت بورتوس الى أراميس قائلا : « ما هذا الذى قلته لهم يا صديقى ؟ »

وقال له الضابط الاسير : « ربما تكون يا سيدى قد اتقذت الاهالى بذلك ولكنك لم تنقذ نفسك ولا صديقك ! »

فالتفت أراميس الى الضابط الاسير وقال له بلهجة تدل على النيل والادب : « يا مسيو دى بيسكارا ، انك الآن تملك تمام حريتك ! » فقال الضابط متأثرا : « انى أود ذلك يا سيدى ، ولكن . . . »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « ان فى ذلك خدمة لنا ، فانك حين تجرب قائد أسطول الملك باستسلام حامية الجزيرة ، قد تستطيع أن تحصل لنا على بعض العطف حين تذكر الطريقة التى تم بها ذلك الاستسلام ! »

فصاح بورتوس والشرر يتقد فى عينيه : « بعض العطف ؟ ماذا تقول يا أراميس ؟ »

فلمس أراميس كوعه بعنف كما كان يفعل فى ايام شبابهما كلما أراد أن ينبهه الى غلظة أتاها أو يوشك أن يقع فيها . ففهم بورتوس قصده وسكت . وعندئذ قال بيسكارا : « اذن . . . سأذهب يا سيدى ! »

فقال له أراميس وهو ينحنى له : « فلترافقك السلامة ونحن شاكران لك » وتردد الضابط قليلا ثم قال : « لكن ماذا يحدث لكما يا صديقى ، ولى الشرف ان ادعوكما كذلك ؟ . كيف تنتظران هنا بينما الامر بشأنكما صريح ؟! »

فقال له أراميس : « انى أسقف فان يا مسيو دى بيسكارا ، وزميلي من النبلاء كما قد علمت . ولا شك فى انهم لن يطلقوا الرصاص على مثلنا أو يشنقونا ! »

فقال الضابط : « اجل يا صاحب الفخامة ، انت على حق . لقد بقيت لكما هذه الفرصة للنجاة . وسأذهب الآن لآخبر قائد جنود الملك . وداعا اذن . بل الى اللقاء ! »

ثم ركب الضابط جوادا اعطاه أراميس اياه وسار فى اتجاه صوت المدافع

الذى حشد الاهالى . ونظر اليه أراميس حتى غاب عن بصره ، حتى اذا صار وحده مع بورتوس قال له : « هل فهمت ؟ »

فهز بورتوس رأسه وقال : « كلا ! لم أفهم شيئا ! »

فقال له أراميس : « ان وجود بيسكارا هنا كان يضايقنا برغم انه ضابط شجاع . ذلك لان مخبأنا الاخير فى كهف لوكماريا يجب ألا يعرفه احد غيرنا . أفهمت الآن يا عزيزى ؟ »

فقال بورتوس : « نعم فهمت ! . اننا سنهرب من طريق ذلك الكهف ؟ اليس كذلك ؟ »

فأجاب أراميس فى سرور : « هذا اذا شئت ! . . . والآن هيا الى الامام يا صديقى بورتوس ، ان زورقتنا ينتظرنا والملك لم يأمرنا بعد ! »



لامر فخامتك قد وضعت في الزورق صندوق البارود ورصاص البنادق
الذين أرسلتهما الى من الحصن »

فقال أراميس : « حسنا » . وتناول الصباح ، وأخذ يفحص بنفسه كل
أجزاء الزورق بدقة رجل ليس هيايا وليس جاهلا بالخطر الذي يواجهه .
وكان الزورق طويلا خفيفا متين الصنع ، وقد زود بثمان بنادق وبضعة
مسدسات ومقادير من الرصاص والخيز المجفف والفواكه الجافة واللحم
المقعد وقوارير من الجلد مملوءة بالماء . كما زود بمجاذيف احتياطية وبكل
ما يلزم للرحلة

وبدا البريتانيون الثلاثة يضعون الزورق على عجل لينزلق نحو الشاطئ ،
وإذا بهم يسمعون نباح كلاب من داخل الكهف ، وكان الفجر قد انشق وأوشك
النهار أن يبسط نوره وصحت الطيور تعلن بدء يوم جديد . فقفز أراميس
وبورتوس الى خارج الكهف عند سماع ذلك النباح ، وقال بورتوس :
— انها جماعة من كلاب الصيد . ولا شك انها في اثر رائحة !

فقال أراميس : « ترى من الذي يصيد في هذه الساعة ، وفي هذا الطريق
حيث ينتظر مرور الجنود الملكيين ؟! »

واقترب صوت النباح منهم فنادى أراميس ايف من الزورق وسأله :
« ما معنى الصيد في هذه الساعة يا ايف ؟ »

فقال الرجل : « الواقع أني لا أفهم ما هناك يا صاحب الفخامة . ان
السيد دي لوكماريا لا يصطاد في مثل هذه الساعة . . ومع هذا فان
الكلاب . . . »

فقال بورتوس : « لعلها هربت منه لحبسها ؟ »

فقال جين : « كلا انها ليست كلاب السيد دي لوكماريا ! »

فقال أراميس . « اذن من الحكمة ان نعود الى الكهف ، فان صوت النباح
يزداد اقترابا ، وسنعرف جلية الامر بعد قليل »

ودخلوا الى الكهف من جديد ولكنهم لم يكادوا يخطون مائة خطوة في
الظلام حتى مرق أمامهم ثعلب كالسهم وقفز فوق الزورق ثم اختفى مخلفا
وراءه رائحته فمكثت بضعة ثوان تحت قبو الكهف الواطئ

فقال أراميس : « انه ظرف ملعون . لقد كشف المخيا ! »

فقال له بورتوس : « كيف ذلك ، اتخاف ثعلبا يا أراميس ؟ »

فاجابه أراميس : « الا تعلم أنه بعد الثعلب تأتي الكلاب ، وبعد الكلاب يأتي
الرجال ؟ »

وسرعان ما جاءت ستة كلاب في أثر الثعلب فقال أراميس : « هاهي ذي
الكلاب فمن هم الصيادون ؟ »

فقال ايف : « اذا كان هو السيد دي لوكماريا فانه سيتترك الكلاب ولا
يدخل الكهف بل ينتظر خروج الثعلب عند الفوهة الاخرى للكهف »

معركة في كهف

كان كهف لكماريا بعيدا من حاجز الميناء ، فبذل أراميس وبورتوس جهدا
كبيرا لكي يصلا اليه عند منتصف الليل ، وقد حملا معهما أموالهما وأسلحتهما
ومشيا فوق المرج الذي بين الرصيف والكهف ، وهما يصفيان الى كل صوت ،
وكانا يتفاديان السير في الطريق . وحدث أن صادفهما بعض الاهالي الهاربين
من داخل الجزيرة عقب سماعهم بنزول جنود الملك فاخفيا وراء كتلة من
الصخور حتى مر أولئك الهاربون ، وأخيرا بعد مشي يتخلله الوقوف والاختباء
مرات ، وصلا الى الكهف الذي نقل اليه زورق متين لانزاله الى البحر .
وعندئذ قال بورتوس لصاحبه : « لقد وصلنا أخيرا ولكنك حدثتني عن ثلاثة
أرجال او ثلاثة من الخدم سيصبحوننا فأين هم ؟ »

فقال له أراميس : « لا شك أنهم ينتظروننا في الكهف ، ولعلمهم يرتاحون
قليلا بعد نقل الزورق »

وهم بورتوس بدخول الكهف ولكن أراميس أوقفه قائلا : « اتسمح لي بأن
ادخل أولا ؟ . اني أعرف الاشارة التي اتفقت عليها مع أولئك الرجال ، فإذا
لم يسمعوها فلعلمهم يقتلون من يدخل بالرصاص أو بالخناجر ! »

فقال بورتوس : « اذن ادخل انت أولا . انك حكيم بعيد النظر . آه .
لقد عدت أشعر بذلك التعب في ساقى ! »

وتركه أراميس جالسا عند مدخل الكهف ، ودخل الكهف بعد أن حتى
قامته وأخذ يقلد صوت البومة ، فرد عليه من داخل الكهف صوت مثله ،
وواصل أراميس سيره بحذر ، وما لبث أن قال : « أنت هنا يا ايف ؟ »
فأجابه ايف قائلا : « أجل يا صاحب الفخامة ، وكذلك جين وابنه ! »

فقال له : « هذا حسن ! وهل أعد كل شيء ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة ! »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه في انتظار أوامره ، فقال لهم : « اذهبوا الى
مدخل الكهف ، ان البارون دي فالون هناك يرتاح من التعب ، وإذا وجدتموه
عاجزا عن المشي فاحملوه وأثنوا به الى هنا ! »

فأطاع الرجال الثلاثة أمر أراميس ، وكان بورتوس قد استراح واستعاد
قوته ونشاطه فعاد معهم ماشيا ، ثم أشعلوا مصباحا أضاء داخل الكهف ،
وبعد قليل قال أراميس : « هيا بنا لنرى الزورق ونستوثق من متانته ! »
فقال ايف : « لا تقرب منه فخامتك كثيرا ومعك مصباح موقد فاني تبعنا

— لعله كهف مسحور . هيا بنا ندخله لنرى ماهناك !

وقفز من فوق جواده ليدخل الكهف وأراد رفاقه أن يدخلوا معه ، ولكنه طلب اليهم الانتظار ودخل وحده وسار خطوات في الظلام وهو باسط يده أمامه ، وإذا بها تقبض على أنبوبة البندقية التي بيد بورتوس ، وفي اللحظة نفسها انقضت أيف بسكينه يريد أن يجهز عليه ، ولكن بورتوس أوقفه بيده القوية وزمجر قائلاً : « لا أريد أن يقتل ! »

وكاد بيسكارا أن يصيح من الدهشة بين ذلك الوعيد وهذا العون ، ولكن أراميس وضع منديلاً على فمه ليمنعه من كل صوت وقال له بصوت منخفض : « يا مسيو بيسكارا . أننا لا نريد بك سوءاً ولعلك عرفت من نحن . ولكن إذا لفظت أية كلمة فانا سنضطر إلى قتلك كما قتلنا كلابك ! »

فقال الضابط بصوت منخفض : « أجل ، لقد عرفتكما . ولكن لماذا أنتما هنا وماذا تفعلان ! لقد حسبتكما بالحصن ؟ »

فسأله أراميس : « هل حصلت لنا على شروط حسنة ؟ »

فأجاب بيسكارا : « لقد بذلت جهدي ، ولكن بلا جدوى فالأمر صريحاً » فأدرك أراميس وبورتوس أن الأوامر تقضى بقتلها ، وقال له الأول : « يا مسيو بيسكارا . . . أننا رأينا شبابتك وذكرنا صلتنا بأبيك ولهذا إقينا على حياتك ، وفي إمكانك الآن أن تخرج من هذا الكهف إذا أقسمت لنا بأنك لن تخبر رفاقك بأنك شهدتنا هنا »

فقال بيسكارا : « أنى أقسم لأبذلن قصارى جهدي لأحول دون دخول رفاقي في هذا الكهف »

وهنا سمعت أصوات من خارج الكهف تناديه باسمه فقال له أراميس : « أجبه يا بيسكارا »

فصاح بيسكارا قائلاً : « ها أنذا »

ثم غادر الكهف عائداً إليهم ، وكان بعضهم قد اقتربوا حتى بدت ظلالهم في الكهف ، فأسرع بيسكارا ليحول دون تقدمهم بينما أراميس وبورتوس يصغيان بكل انتباه

ولما رأى الفرسان زميلهم راعهم الشحوب الذي اعتراه فقال لهم : « ماذا تحسبوننى رأيت ؟ لقد كنت أشعر بالحر قبل أن أدخل ، ولما دخلت وجدت الهواء بارداً . هذا كل ما فى الأمر ! »

فسأله أحدهم : « هل وجدت الكلاب ؟ وماذا دهاها فأسكتها ؟ »

فأجاب : « أحسبها قد خرجت من فوهة الكهف الأخرى ! »

وصاح ضابط آخر يدعوهم إلى الدخول فهتفوا جميعاً قائلين : « هيا إلى الكهف ! »

وهنا وقف بيسكارا أمام رفاقه قائلاً : « بالله لا تدخلوا ! »

فقال أراميس : « ليس السيد دى لوكماريا هو الصائد . انظر يا بورتوس هناك على السطح »

فنظر بورتوس ورأى على سطح التل اثني عشر فارساً يستحثون جيادهم في أثر الكلاب . فصاح قائلاً : « الحرس ! »

وقال أراميس في كآبة : « نعم . أنهم حراس الملك ! »

وارتاع البريتانيون الثلاثة ورددوا مذعورين : « حرس الملك ؟ »

ثم قال أراميس : « أن بيسكارا في الطليعة فوق جواد أشهب ، ليس كذلك يا بورتوس ؟ » . فأوماً هذا موافقاً وبقي ساكناً . وكانت كلاب الصيد في الوقت نفسه مندفعة في داخل الكهف وقد ردد صدى نباحها الذي يصم الأذان . فقال أراميس وقد استعاد رباطة جأشه : « انى موقن أننا ضعنا ولكن بقيت لنا فرصة . إذا كشف الحراس الذين يتبعون تلك الكلاب الفوهة الأخرى للكهف فلا أمل لنا ، لانهم إذ يدخلون يروننا ويرون الزورق . إذن لا ينبغي أن تخرج الكلاب من الكهف »

فقال بورتوس : « هذا واضح ! »

فقال أراميس بلهجة القائد السريع البت : « انها ستة كلاب يجب ان تقتل عند الفتحه الضيقة للكهف ! »

فقفز البريتانيون الثلاثة وفي أيديهم المدى ، ولم تمض دقائق حتى ارتفعت صيحات الكلاب من الألم ثم سكنت أصواتها . فقال أراميس : « هذا حسن ! . والآن إلى أسياذ الكلاب ! »

فسأله بورتوس : « ماذا نفعل بهم ؟ »

فقال أراميس : « ننتظر مجيئهم ثم نقتلهم ! . أنهم ستة عشر ، ولا تتطلب التخلص منهم أكثر من عشر دقائق . وسنفيد من أسلحتهم بعد ذلك ! »

ثم تناول أراميس إحدى البنادق ، ووضع سكيناً في فمه وقال : « على أيف وجين وابنه أن يقدموا لنا البنادق ، وأنت يا بورتوس تطلق الرصاص على القوم حين يقتربون ، وسنقتل منهم ثمانية قبل أن يدرى الباقيون بما حدث ، ثم نهجم نحن الخمسة على الثمانية الباقين بالمدى ونجهز عليهم ! »

فقال بورتوس : « وبيسكارا المسكين ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال في برود : « بيسكارا قبل غيره . . . لانه يعرفنا ! »

وبعد قليل وصل بيسكارا إلى مدخل الكهف قبل رفاقه ، وأدرك أن التعلب والكلاب محجوزة بداخله . غير أنه ككل إنسان يخشى الظلام ويخاف الكهوف ، فوقف عند مدخل الكهف في انتظار الفرسان الآخرين . حتى إذا وصل هؤلاء وتساءلوا عما جرى للكلاب ولماذا سكنت مرة واحدة ، أجابهم قائلاً :

فتعالت أصواتهم متسائلين عما يحول دون ذلك ، وقال واحد منهم :
« لا شك أنه رأى الشيطان نفسه داخل الكهف ! »
فقال آخر : « إذا كان قد رآه فلا يصح أن يكون أنايا ويمنعنا من أن
نلقى عليه نظرة بدورنا ! »

وعاد بيسكارا يروجهم ألا يدخلوا ولكن بلا جدوى، فقد أصروا على ولوج
الكهف وتقدمهم أحدهم شاهرا سيفه بيده ، فتبعه الآخرون بعد أن أراحوا
بيسكارا جانبا حتى لا يعوقهم، ولم يرد هو أن يدخل معهم فيحسبه أراميس
وبورتوس قد خان عهده وحنث بقسمه . وما كادوا يتقدمون داخل الكهف
خطوات معدودات حتى دوت فجأة طلقات الرصاص ، وتبعتها صيحات الذين
أصيبوا ، واستطاع الذين في المؤخرة أن يعودوا أدراجهم . ولما رأوا
بيسكارا قالوا له : « ما هذا ؟! » أكنت تعلم أن الكهف به كمين ولم
تحذرننا ؟ انك السبب في قتل أربعة من رجالنا ! »

وصاح به أحد الضباط : « أنت سبب هذا الجرح الذي أصبت به ، ان
دمي فوق رأسك ! »

ثم ارتدى تحت قدميه وقد خارت قواه . بينما ارتفعت أصوات أخرى
تقول له : « أخبرنا على الأقل من في الكهف ؟ »

ولكن بيسكارا بقي ساكنا ، فتجامل زميله الضابط الجريح على نفسه
وزحف إليه مجردا سيفه في وجهه قائلا له : « قل لنا من هناك والا فالوت
لك ! »

وكان جواب بيسكارا أن فتح أزرار مئزرته كاشفا عن صدره وقال
لزميله الذي يهدده : « اضرب يا أخى ! » . ولكن الجريح ارتدى على الأرض
ثانية وهو يئن أنه خافتة أسلم روحه على أثرها متأثرا بجرحه !

وهنا ارتاع بيسكارا وتملكه اليأس والقنوط ، وصاح قائلا : « نعم ،
الموت لي ان رضيت باغتيال رفاقي ! » . ثم اندفع إلى الكهف وقد رمى سيفه
جانبا لانه يطلب لنفسه الموت ، وتبعه بقية رفاقه ، غير أنهم لم يكادوا
يتقدمون حتى أطلق عليهم الرصاص ثانية فجنبدل خمسة منهم ، وتراجع
الباقيون وهم يتساءلون من أين يأتيهم الرصاص ؟ غير أن بيسكارا لم يتراجع
معهم بل جلس فوق صخرة ينتظر . وقال واحد من الستة الباقين :
« لا شك أنه الشيطان ! » . فرد آخر قائلا : « بل هو شر من ذلك ! » .
ثم قال ثالث : « اسألوا بيسكارا فانه يعرف خافية الأمر ! »

وأخذوا ينظرون حولهم باحثين عنه ، فلما لم يجدوه قال واحد منهم :
« لا بد أنه قتل بالكهف ! »

فقال آخر : « كلا ! » لقد رأيته وسط الدخان جالسا في هدوء على صخرة
هناك داخل الكهف ! »

وقال أحد رفاقه : « لا بد أنه يعرف من هم ! » لقد كان أسيرا لدى
التوار ! »

ثم أخذوا ينادونه ولكنه لم يجب . وما لبث أحدهم أن قال : « لسانا
بحاجة اليه فقد جاء لنا مدد ! »

وكانت فرقة من الحراس قد وصلت في هذه اللحظة وهي مؤلفة من خمسة
وسبعين جنديا أو أكثر . فأسرع الضباط الخمسة الى لقاءهم ورووا لهم
ما حدث ، فسألهم قائد الفرقة : « أين بيسكارا ؟ »

ولما قيل له : « انه بالكهف » . حسب أنه أسير ، ولكن هذا ما لبث أن
ظهر عند فوهة الكهف وأشار اليهم بالتقدم فلما وصلوا اليه قال له القائد :
« انك تعرف الذين بالكهف ، وأنا أمرك باسم الملك أن تخبرني من هم ! »
فقال بيسكارا : « لا حاجة بك لأن تأمرني . فقد أحللت من كلمة الشرف
منذ لحظة . وأنا قادم اليكم من عند أولئك الرجال لكي أخبركم بأنهم
سيدافعون عن أنفسهم حتى آخر نسمة من حياتهم ، الا اذا منحتموهم
شروطا حسنة ! »

فسأله القائد : « كم عددهم ؟ »

فقال بيسكارا في هدوء : « انهم اثنان ! »

وهنا صاح به القائد محنقا : « اثنان ويريدان أن يفرضا شروطهما
علينا ؟! »

فقال بيسكارا : « أجل انهما اثنان ، لكنهما قتلا عشرة من رجالنا .
انهما اثنان من الفرسان الاربعة الذين سبق أن قاوموا جيشا ! »

فسأله القائد : « ما اسمهما ؟ »

فقال : « كانا يسميان في العهد الماضي بورتوس وأراميس . أما الآن
فيسميان المسيو دربلاي والمسيو دي فالون ! وهما يدافعان عن (بل - أيل)
لصالح المسيو فوكيه ! »

فسرت في الجنود همهمة حين سمعوا اسمي بورتوس وأراميس . وأخذوا
يرددون : « الفرسان الاربعة ! الفرسان الاربعة ! » . وكان كل من يحمل
سيفا في فرنسا يعرف أولئك الفرسان ويكن لهم كل تقدير و إعجاب
وسكت الضابط قائد الفرقة قليلا ثم قال : « رجلان اثنان يقتلان عشرة !؟
ان هذا محال يا مسيو بيسكارا ! »

فقال بيسكارا : « لقد رأيت هذين الرجلين حين كنت أسيرا عندهما ،
واني موقن أنهما يقدران وحدهما أن يهلكا جيشا كاملا ! »

فقال القائد : « سنرى الآن ! » . ثم أمر رجاله بالتقدم وسار هو على
رأسهم يريد اقتحام الكهف ، وعبثا حاول بيسكارا أن يشبه عن الهجوم إذ
أصر عليه قائلا له : « لن نسمح بتقهقر ثمانين من حرس الملك أمام اثنين
من العصاة ، ولو أنني قبلت نصيحتك لفقدت شرفي ! »



« وأخذ بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحداً واحداً »

ثم وقف قائد الفرقة عند مدخل الكهف وقسم رجاله ثلاثة أقسام ، على أن يدخل كل قسم منها بعد الآخر مع اطلاق التيران فى كل اتجاه ، وقال لنفسه : « لا شك أننا فى هذا الهجوم سننقذ خمسة رجال آخرين وربما عشرة ، ولكننا آخر الأمر سننتخب على الثائرين . وعلى أى حال لن يتاح لرجلين اثنين أن يقتلا ثمانين رجلاً ! »
وهنا قال له بيسكارا : « أرجو أن تسمح لى بالسير على رأس القسم الاول ! »

فقال له : « فليكن ! انى أمنحك هذا الشرف ! »
فشكره بيسكارا وتقدم دون أن يأخذ سيفه قائلاً : « ساذهب هكذا ! »
ثم صاح برجاله : « هيا الى الأمام ! »



كان طول الكهف نحو مائتى ياردة ، وينتهى الى منحدر يشرف على خليج صغير . وكانت أرضه غير ممهدة وسقفه متفاوت الارتفاع تبعاً للصخور التى فوقه . وقد رأى أراميس بعد المعركة التى دارت داخل الكهف أن يركن الى الفرار مع صديقه بورتوس قبل أن يصل مدد الى الحراس الذين نجوا من القتل . وعلى ذلك أمر بانزال الزورق فى البحر دون إبطاء ، فرفعه بورتوس بكلتا يديه ثم وضعه البريتانيون الثلاثة على اسطوانات خشبية لدحرجته ، ولما وصلوا به الى قرب الفوهة الأخرى للكهف وحسدوا بعض الصخور قد سدتها بحيث يصعب مزور الزورق منها ، وسرعان ما أجعل بورتوس قوته فوضع كتفه تحت إحدى الصخور وأزاحها من مكانها . وعندئذ بدأ الرجال الثلاثة يخرجون الزورق ، ولم يكن قد بقى بينه وبين مخرج الكهف سوى عشرين ياردة حين أقبلت فرقة الفرسان ، فأيقن أراميس الذى كان يرقب كل شيء بالأبد من نشوب معركة جديدة رهيبه . ولحظ أن ازاحة الصخرة عن فوهة الكهف قد جعلت الضوء يغمر مدخله بحيث يرى المهاجمون الزورق فيسهل عليهم رميه بالرصاص وقتل ركابه الخمسة . فاشتد غيظه ، وهتف بزميله بورتوس الذى كان يعمل وحده أكثر مما يعمل الرجال الثلاثة : « ان أعداءنا قد تلقوا مددا لا يقل عن سبعين جندياً ، وسيكون فى مقدورهم أن يهدموا الكهف علينا، وعلى هذا يجب أن يستمر رجالنا الثلاثة فى دحرجة الزورق بينما نحتفظ نحن الاثنين بصندوق البارود وبالرصاص والبنادق الى جانبنا هنا »

فقال بورتوس : « ان اثنين فقط لا يمكن لهما أن يطلقا أكثر من رصاصتين مرة واحدة ، وعلى هذا أفضل أن أكن خلف هذا العمود ومعنى هذا القضيب الحديدى ، ثم أفاجيى المهاجمين من حيث لا يروننى بضرب جماجمهم بمعدل ثلاثين ضربة فى الدقيقة . فما رأيك فى هذه الخطة ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « انها خطة بارعة وأنا أقرها غير أنك ستخيفهم ، فيبقى نصفهم في الخارج ليحاصرونا ثم يأسرونا بعد أن ينال منا الظمأ والجوع ! »

فقال بورتوس : « انك على حق يا أراميس ولكن كيف نجذبهم جميعا الى الداخل ؟ »

فأجابه قائلا في هدوء : « عليك أنت أن تكمن لهم حتى يدخلوا جميعا ، وحينئذ ننفذ معا ما رسمته من خطة لإبادتهم . وها هي ذى صيحاتهم تقترب فهيا الى مكنك »

وسارع بورتوس الى مكنه المختار وسط الكهف حيث الظلمة شاملة ، وقد أمسك قضيبا ضخما من الحديد يزن نحو خمسين رطلا كان البريتانيون الثلاثة يستخدمونه في دحرجة الزورق الى الشاطئ . بينما وقف أراميس محتبئا في الجانب الذي يدخله الضوء من الكهف . ولم تمض دقيقة حتى ارتفع صوت قائد الفرقة يأمر رجاله بالتقدم ، فقفز القسم الأول منهم وعددهم خمسة وعشرون رجلا من الصخور المظلة على الكهف الى مدخله حيث اتخذوا موقفهم وشرعوا يطلقون البنادق . وبعد لحظات صاح بهم بيسكارا : « الى اليسار ! » فاندفعوا خلفه الى اليسار حيث يضيق الممر تدريجا ، وعندئذ صاح أراميس قائلا : « اضرب يا بورتوس ! » وسرعان ما أهوى هذا بالقضيب الحديدى على رؤوسهم فكان بيسكارا أول من أصيب وقد مات لتوه دون أن ينطق ببنت شفة ، وسقط بعده عشرة من جنوده ، وحاول الباقون أن يعودوا أدراجهم هاربين فأخذوا يتعشرون في الظلام بينما بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا في أقل من عشر دقائق !

وكان قائد الفرقة قد تقدم القسم الثانى منها وفي يده مشعل اتخذه من أغصان الشجر الجافة ، فلما وصل بمن معه الى حيث يكمن بورتوس أخذهم الرعب اذ رأوا أنفسهم يمشون فوق جثث اخوانهم وفي بحر من دماهم . وأراد القائد أن يكشف على ضوء مشعله سر موت أولئك الجنود ، فما كاد ينحنى فوق جثة أحدهم حتى مد بورتوس يده فقبض بها على عنقه بكل قوته فسقط المشعل من يده وانطفا كما انطفأت في اللحظة نفسها شمعة الحياة في جسده ! وجاء الجنود في أثره واحدا بعد واحد وهم يتحسسون طريقهم في الظلام بين الجثث ، فكان بورتوس يتلقفهم ويقضى عليهم بالطريقة نفسها ، فسقط أكثرهم جثا هامة قبل أن يطلق الباقون منهم بنادقهم فتدوى طلقات الرصاص داخل الكهف كالرعد ، وتنساقط قطع من صخره فيختلط غبارها بدخان البارود ، ثم ساد السكون فلم يعد يسمع سوى وقع خطوات الفصيلة الثالثة وهى تدخل الكهف !

نهاية بورتوس

كان بورتوس قد اعتاد الظلام أكثر من أولئك الجنود الاتين من الضوء الى الظلمة ، فنظر حوله لعله يرى أراميس ، واذا بهذا يلمس ذراعه لمسا خفيفا ويهمس اليه أن يتبعه في سكون الى الجانب الاقصى للكهف دون أن يشعر بهما أحد من رجال الفصيلة الثالثة الاخيرة

وهناك أشار أراميس الى برميل من البارود كان مخبئا في فجوة بالجدار الصخرى ويتراوح وزنه بين سبعين وثمانين رطلا ، ثم قال لبورتوس : « ستحمل أنت هذا البرميل ، بينما أشعل أنا عود الثقاب الذى به ثم تقذف به وسط المهاجمين ، وتلحق بنا الى الشاطئ حيث أسبقك لمساعدة البريتانيين الثلاثة على انزال الزورق فى البحر ! »

فرجع بورتوس البرميل بيد واحدة وقال : « أشعل عود الثقاب يا عزيزى ، حقا انها لفكرة جهنمية ! »

وأشعل أراميس عود الثقاب ومضى مسرعا بعد أن ربت ذراع بورتوس ملاطفا ، وما ان لمح الجنود فى الضوء القليل لبورتوس يحمل البرميل فى يده حتى اشتد رعبهم وحاول بعضهم أن يهربوا عائدين أدراجهم فسقطوا فوق من خلفهم من زملائهم الذين هموا بتصويب بنادقهم لاطلاقها عليه فطاشت رصاصاتهم وأصابت ثلاثة من الجنود ، بينما أطلق بورتوس ضحكة عالية ، ثم رفع يده بالبرميل وقذف به وسط بقية الجنود فانفجر انفجارا مروعا كأنه الرعد ، فتفتنت الصخور وتناثرت وتمزقت الابدان وتبعثرت الاشلاء ، وانقلب الكهف كله قبرا رهيبا لأولئك العشرات من الجنود والضباط وقد اختلطت أشلاؤهم بالدماء والحجارة والتراب

أما بورتوس فأسرع بعد أن رمى البرميل قاصدا الى الشاطئ ليلاحق بأراميس والبريتانيين الثلاثة . واستطاع خلال الغبار المنعقد حوله أن يرى بعينيه الحادتين جانبا من الزورق الذى أعده أراميس وزميلاه للفرار والنجاة ! وملا المارد المنتصر رثيئة الواسعتين من هواء البحر ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة مرحة ، وحث خطاه الواسعة مستعجلا بلوغ الحرية والأمان ، حتى اذا لم يبق بينه وبين باب الكهف غير خطوات معدودات شعر فجأة بضعف شديد فى ركبتيه ، وكادت قدماه تعجزان عن حمله ، فجدت نفسه قائلا : « لقد عاد الى ذلك التعب الملعون ! »

وكان أراميس ينتظره بالباب وقلبه يرقص فرحا كلما سمع وقع خطاه .

وكان يهيم بمناداته لكنه شعر بتوقفه عن المشي اليه فهتف به قائلا : « هيا يا بورتوس • تعال • أسرع ! »
فأجابته في جهد وهو ما زال واقفا : « ركبتي يا أراميس ! لا أستطيع المسير ! »

وخذلته ساقاه المجهدان ، فجنا على ركبتيه ، ولكنه تعلق بالصخر بيديه القويتين فاستطاع أن يقوم ورد على أراميس قائلا : « ها أنذا ! »

وفي هذه اللحظة دوى في الكهف صوت انفجار جديد عنيف فاهتزت الارض تحت أقدام الفارسين القديمين الصديقين ، وتهدم جانب كبير من القبو الصخري من قوة الانفجار ، وكأنما أعادت هذه الهزة المخيفة الى بورتوس قوته الضائعة ، فقام يجرى بين الصخور التي كانت تنهار حوله ، وأخذ يمد ذراعيه يمينا وشمالا ليعبدها من طريقه • واستطاع أن يرد بيديه القويتين كتلة هائلة من الصخر كادت تسقط عليه ، ولكن كتلة صخرية أخرى سقطت بين كتفيه ، فاستسلمت ذراعا القويتان لحظة ، ثم استجمع كل قواه وراح يعالج الصخرة التي كادت تسد فتحة الكهف حتى زحزحها من طريقه ، ولكن الجهد الجبار الذي بذله جعله يفقد توازنه حيال الصخرة التي تثقل كتفيه ، فاضطر مرة أخرى الى أن يجثو على « ركبتيه » وهنا عادت الصخرة التي كان قد زحزحها عن الباب الى وضعها الأول فزادت في ثقل الصخرة التي فوق كاهله ، واضطر الفارس المارد الى السقوط تحت وطأة هذا الثقل الهائل الذي يكفي لسحق عشرة من الرجال ، لكنه لم يصوخ متألما أو مستغيثا ! • • • وحينما ناداه أراميس مدعورا : « بورتوس • بورتوس • أين أنت ؟ » أجابه وهو تحت الصخور بصوت ضعيف : « ها أنذا ! • صبرا • صبرا يا أراميس ! »

على أن صخورا أخرى انقضت فوقه فحجبت ، وأدرك أراميس الخطر الذي أحاط بصاحبه فسارع الى انقاذه ومعه اثنان من رجاله ، أما الثالث فبقى ليحرس الزورق ، وأخذوا يحاولون ازالة الصخور التي تراكمت فوقه بمعاولهم بأذلين في ذلك قصارى جهدهم ، ولكن جهودهم كلها ذهبت سدى ، بينما تمتم بورتوس تحت ثقل الصخور قائلا بصوت واهن : « انها ثقيلة ! » • ثم اظلمت عيناه وأغمضتا وشحب وجهه وابيضت يده ، ولفظ المارد آخر أنفاسه فسقطت بذلك آخر صخرة كان يدفعها عنه بيديه !

وبقى أراميس واقفا بباب الكهف ينظر الى منوى بورتوس صامتا واجبا ، بينما أحاط بأراميس رجاله البريتانيون الثلاثة ثم حملوه الى الزورق حيث وضعوه على مقعد بجانب الدفة وأخذوا يجذفون خارجين بالزورق الى عرض البحر حتى لم يعد يبدو من كهف لوكماريا القديم سوى تل من الانقاض ، ولم يحول أراميس بصره عنه وهو يبتعد عن الشاطئ ، وقد خيل اليه أن ذلك التل من الصخور يقف ممدود القامة مرتفع الرأس مبتسم الثغر كشأن بورتوس ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : « يا لبورتوس المخلص الأمين ! لقد

قطر على أن يساعد غيره وعلى أن يضحي نفسه في سبيل الضعيف ، وكأنما وهبه الله قوته الهائلة لهذا الغرض وحده • ولقد مات وهو يحسب نفسه ينفذ شروط اتفاق بينه وبينى في حين أنه لم يعرف من مشروعى الا نتائجه الوخيمة ! »



بقى أراميس ينظر الى ذلك القبر الصخري الذى ضم رفات صاحبه حتى آخر شعاع من ضوء النهار ، وحتى بهت شاطئ الجزيرة في الأفق على مرمى البصر • ولم ينبس طول الوقت ببنت شفة ، ولم تخرج من صدره آهة ولا زفرة • وكان زملاؤه البريتانيون الثلاثة ينظرون اليه مرتاعن ، وقد نشروا الشراع فمضى الزورق مسرعا في خليج جسكونيا قاصدا الى اسبانيا • وبعد حوالى نصف ساعة من نشر الشراع لاحت لهم من خلفهم نقطة بيضاء كأنها جامدة في مكانها لا تتحرك • غير أنهم لم يروا أن يخبروا أراميس بأمرها اذ خيل اليهم أنه استغرق في النوم من الحزن والاضى !

وبعد ساعة أخرى ، كان ضوء النهار قد اختفى ، ولكن المسافة قصرت بينهم وبين تلك النقطة البيضاء التي لاحت لهم ، فتمتم (حين) قائلا : « انه زورق ! • • • اننا مطاردون ! »

ورأى ايف من الحيطه أن ينزل الشراع حتى لا يراه الذين يطاردونهم ، ولكن السفينة التي يستقلها هؤلاء نشرت شراعين آخرين لتزيد في سرعتها • وكانت الليلة صافية السماء مقمرة ، فهتف ايف بأراميس قائلا : « يا صاحب الفخامة • انهم يوشكون أن يدركونا ! »

ومد أراميس يده المتخاذلة فأخرج بها تلسكوبا من بين متاعه ، ثم أعطاه لايف قائلا : « انظر ! »

فرجع ايف التلسكوب الى عينه وما ان نظر فيه حتى صاح صيحة رعب فقد حسب أن السفينة التي تطاردهم قد قطعت المسافة كلها بغتة ، لكنه اطمأن حين أبعد التلسكوب عن عينه فرأى السفينة لا تزال بعيدة • • • ثم تمتم قائلا : « انهم على هذا يروننا كما نراهم • • • انهم خمسة وعشرون رجلا على الأقل • وأرى القبطان في المقدمة ممسكا بمنظار كهذا الذى معى • انه يلتفت جانبا ويصدر أمرا • أه • انهم يدفعون مدفعا الى الامام • انهم يعبثونه • • • ويصوبونه ! رياه • انهم يطلقونه علينا ! »

وأطلق المدفع على أثر ذلك فبنت سحابة من الدخان تحت الأشعة ، وسقطت فذيفته على مسافة ميل من الزورق فأحدثت فجوة في البحر جعلت الامواج تضطرب بشدة • فسأل ايف : « ما العمل يا صاحب الفخامة ؟ »

وركع الملاحان الآخرون أمام الأسقف قائلين بتوسل : « امنحنا المغفرة ! » فنظر اليهما أراميس وقال فى وقار : « انكم تنسون أن أعداءنا يرونكم ! »

حتى رأسه . ولم ينبس أراميس بكلمة لكنه رفع يده اليسرى وأرى الضابط
فص خاتم في إحدى أصابعها ، فانحنى له هذا مرة أخرى أكثر من قبل ،
وكانه حيال ملك أو امبراطور ، ثم أشار الى قمرة ودعاه الى الدخول قبله!
وعجب البريتانيون الثلاثة الذين جاءوا الى سطح السفينة في أثر
الاسقف ، ولم يكن رجال السفينة أقل عجباً من ذلك المنظر حتى لقد عقدت
الدهشة ألسنتهم . وبعد خمس دقائق نادى القائد مساعده وأصدر اليه
تعليمات بتوجيه السفينة صوب (كورونا) . ثم عاد أراميس الى ظهر
السفينة واتخذ له مقعداً وأخذ ينظر الى (بل - أيل) لا يحيد عنها ببصره!
وجاء ملاح يسأل القائد : « أى اتجاه نتخذه ؟ » . فأجاب القائد :
« الاتجاه الذى يأمر به صاحب الفخامة ! » . وأشار الى أراميس !
ومضى أراميس ليلته بقرب حاجز السفينة . ولما دنا منه ايف فى صباح
الغد لحظ أن الحشب الذى أسند الاسقف اليه رأسه ميلل بالماء ، فظن أنه
قطر الندى ، ولم يدر انها دموعه سكبها حزناً على زميله الراحل العزيز
بور توس



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ولا ريب أننا اذا حاولنا الفرار فسيغرقون زورقنا ، ثم ان الظلام نفسه
لا يجدينا نفعا فلا بد ان عندهم نارا اغريقية يمكنها أن تضيء لهم الطريق !
وفى اللحظة نفسها ارتفعت سحابة أخرى من الدخان نحو السماء وظهر
وسط تلك السحابة سهم من اللهب ما لبث حتى سقط فى البحر وظل
مشتعلًا وهو يضيء دائرة قطرها ربع فرسخ . ونظر البريتانيون الثلاثة
بعضهم الى بعض فى ذعر شديد ، فقال لهم أراميس : « ها أنتم أولاء ترون
أن لا بد لنا من الانتظار ! »

وعندئذ ترك المجذفون مجاذيفهم فوق الزورق فوق صفحة الماء متأرجحا
بينما أخذت السفينة تقترب ولعلها ضاعفت سرعتها بحلول الليل . وكانت
ترسل سهام النار الاغريقية بين الفينة والفينة . وكان جميع رجالها فوق
سطحها وفى أيديهم بنادقهم ، بينما ربض رجال المدفعية خلف المدافع ،
وكانهم مقبلون على معركة بحرية كبيرة لا يقل أعداؤهم فيها عنهم عددا
وعدة !

وصاح قائد السفينة فى نفيح : « انى أدعوكم الى التسليم ! »

فنظر الملاخون الثلاثة الى أراميس متسائلين فأوماً لهم برأسه يائسا ،
وعندئذ رفع ايف قطعة قماش أبيض ، فزادت السفينة اقترابا من الزورق
وبعثت سهمها ناريا آخر سقط على بعد عشرين خطوة من الزورق ،
وانبعث منه ضوء كضوء النهار أو أشد . ثم صاح قائد السفينة برجاله
قائلا : « اذا بدت أية دلالة على المقاومة فأطلقوا النيران ! »

ثم التفت الى البريتانيين الثلاثة وقال لهم : « انى أومنكم على حياتكم
أيها الاصدقاء ما عدا الفارس دربلای ! »

فارتاع أراميس لحظة ونظر الى أعماق المحيط وقد أضاءه السهم النارى ،
ثم سأله رجاله الثلاثة : « أسمع أنت يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال لهم فى هدوء : « اقبلوا ما قبل لكم ! » . ثم مال الى جانب الزورق
أكثر من قبل وأخذ يعبث بالماء بأصابعه البيضاء ، بينما صاح ايف قائلا
لضابط السفينة : « اذا قبلنا فأى ضمان لنا ؟ »

فأجاب الضابط : « كلمة الشرف ! » . انى سأل على حياتكم جميعا
ما عدا المسيو دربلای . انى ضابط السفينة الحربية بوموناواسمى لويس
كونستان دى بريسينى ! »

فرفع أراميس رأسه وقال لرجالها وهو يبتسم : « أنزلوا السلم أيها
السادة ! »

ولبى رجاله الأمر فأنزلوا السلم توا ، وقام هو فأمسك حبل السلم
وهبطه دون أن يبدو عليه شيء من الخوف الذى توقعه رجال السفينة ، ثم
قصد توا الى القائد فى خطى ثابتة ورأس مرفوع ، فلما بلغ موضعه نظر
إليه نظرة قوية، ثم أشار له بيده اشارة امتقع الضابط على أثرها وارتعد ثم

عفو ملكي

فانه ساذج لا حيلة له ، ولكنهما سيجدان ولا شك مخرجا لهما بعد أن يعطيا درسا قاسيا لجنود الملك . ان لديهما مدافع وذخيرة وحامية ومع هذا لعل الخير في منع ذلك القتال لو كان الأمر خاصا بي ما كنت لا تحمّل نظرات غضب ولا غدر من جانب الملك . ولكنني يجب من أجل صديقي أن أتحمّل كل شيء . . سأذهب الى المسيو كولبير انه الآن هو الذي يجب أن أخيفه ! »

وقصد توا الى المسيو كولبير ، فقيل له : « انه عند الملك في قصر نانت ! » فصاح قائلا : « لقد عاد الوقت الذي كنت أنتقل فيه من المسيو دي تريفيل الى الكاردينال ، ومن الكاردينال الى الملكة ، ومن الملكة الى لويس الثالث عشر . . حقا ان الرجال اذا كبروا عادوا أطفالا ! »

ولما رجع دارتانيان الى القصر وجد المسيو دي ليون خارجا ، وصافحه هذا بكلتا يديه قائلا : « ان الملك كان مشغولا طول الليلة الماضية وقد أمر بعدم ادخال أي أحد ! »

فسأله : « حتى ولا قائد الفرسان الذي يتلقى أوامره وكان يدخل دائما في أي وقت ؟! ان هذا لا معنى له الا أن الملك قد مات ، أو أن قائد الفرسان مفضوب عليه . وعلى هذا أرجو أن تعود الى الملك لتبينه باستقالتي ! »

فقال دي ليون بعد تردد : « حسنا . سأفعل يا مسيو دارتانيان ! » ومكث دارتانيان ينتظر وهو يمشي في الردهة هائج الاعصاب . ثم رجع دي ليون وقال له :

– لقد قبل الملك يا سيدي !

فانفجر دارتانيان صائحا : « هل قبل الاستقالة ؟ حسنا ! . . اذن أصبحت حرا ولست الآن الا مواطنا بسيطا . . وداعا يا سيدي وشكرا ! »

وقفز دارتانيان الى السلم ثم قصد الى النزل . وبدل أن يرمى سيفه ومعطفه ، أخذ مسدساته ووضع نقوده في كيس كبير من الجلد وطلب جيادا من اسطبلات القصر ، وأمر بالسفر الى فان ليلا . وقد تم كل شيء طبقا لرغباته . وعند الساعة الثامنة كان يضع قدميه في الركاب ، واذا بالمسيو دي جيفر قد جاء على رأس اثني عشر حارسا أمام النزل ، ورأى دارتانيان ذلك بطرف عينه ولكنه تظاهر بعدم رؤيته ، حتى تقدم منه المسيو دي جيفر وناداه باسمه بصوت مرتفع فقال له دارتانيان مدعيا الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو دي جيفر ؟ هل جئت لتقبض علي بأمر الملك ؟! »

فقال دي جيفر : « لكي أقبض عليك ؟! معاذ الله يا سيدي ، انني انما أقوم بدورتي التفيتشية العادية ، وكل ما هناك أن جلالة الملك يريد أن تقابله الآن ! »

فقال دارتانيان : « لعله يريد أن يرسلني الى الباستيل لاؤنس المسيو فوكيه . حسنا ! انه رجل قدير ويسرني أن أكون معه ! »

عاد دارتانيان الى نانت وهو في غيظ وهياج . وذهب توا الى القصر الذي به الملك وهو يرتعد من الغضب ، وكانت الساعة السابعة صباحا فلما وصل الى الردهة الصغيرة ألقى هناك المسيو دي جيفر ، فوقفه هذا بأدب وطلب اليه ألا يرفع صوته حتى لا يزعج الملك لأنه نائم فقال دارتانيان : « حسنا ! سأدعه ينام . ولكن في أية ساعة تحسبه يصحو من نومه ؟ »

فقال دي جيفر : « ربما بعد ساعتين . لقد سهر الملك طول الليل ! » فانحنى له دارتانيان وعاد الى مسكنه . ثم رجع الى القصر عند منتصف الساعة العاشرة صباحا فقيل له : « ان الملك يتناول طعام الفطور . » فقال : « ان هذا يلائمني . سأحدث الملك بينما يأكل ! »

وذكره المسيو دي بريين بأن الملك لا يستقبل أحدا أثناء الطعام ، ولكن دارتانيان قال له : « لعلك لا تعلم أن لي امتياز الدخول عند الملك في أي مكان وفي أية ساعة ؟! »

فتناول بريين يد دارتانيان بعطف وقال له : « ليس ذلك في نانت يا عزيزي المسيو دارتانيان . ان الملك قد غير كل شيء في رحلته ! » فولى بعض الغضب عن دارتانيان وسأل : « متى ينتهي الملك من تناول طعام الفطور ؟ » فأجاب بريين : « لست أدري يا سيدي ! »

فقال له دارتانيان : « كيف هذا ؟ ألا تعلم كم من الوقت يتطلبه تناول الملك طعامه ؟ انه في العادة نحو ساعة . واذا فرضنا أن جو اللوار قد زاد في شهيته فلنمد الوقت الى ساعة ونصف ساعة . وأحسب ان هذا وقت كاف . وسأنتظر حيث أنا ! »

فقال بريين في هدوء : « يا عزيزي المسيو دارتانيان . ان الأمر يقضى بعدم ترك أحد بالردهة . وأنا هنا لتنفيذ ذلك ! »

فتملك الغضب دارتانيان ، وخرج مسرعا حتى لا يزيد الموقف حرجا ، ولما صار وحده جعل يحدث نفسه قائلا : « ان الملك لا يريد أن يستقبلني . هذا واضح . ان هذا الشاب غاضب ، وهو يخشى ما سأقوله له . أجل ولكن في خلال ذلك تكون (بل – أيل) قد حوصرت وأسر صديقي أو قتلا . ان أراميس لا تعوزه حيلة وأنا مطمئن عليه ، أما بورتوس الجبار

فقال الدوق دي جيفر ملاطفا : « بالله كن هادئا يا سيدى ، ان الملك فى سورة غضب ، ومن الخير ألا تزيد فى غضبه وأنت تكلمه ! »
فقال دارتانيان : « انك تطمح الى توحيد حراسك مع فرسانى ، وهذه فرصة سانحة يا سيدى ! »
فقال الدوق : « ثق بانى سأحرص على ألا أنتهزها ياكابتن . . على الاقل كى أتفادى القتل بيد فرسانك الذين يقدرسونك ! »
فتمتم دارتانيان قائلا : « لا رأى لى فى ذلك لأن أولئك الرجال يحبوننى حقا ! »

ثم تركه دي جيفر يدخل أولا وذهب به ثوا الى غرفة الانتظار وكان الملك جالسا ينتظر قائد فرسانه وهو يتحدث بصوت مرتفع مع المسيو كولبير . وكان الفرسان مصطفين أمام الباب الرئيسى للقصر وقد سرت شائعة فى المدينة بأن قائد الفرسان قد قبض عليه ، وعندئذ تحرك أولئك الفرسان الشجعان كما كانوا يفعلون فى الايام الجيدة الماضية على عهد لويس الثالث عشر والمسيو دي تريفيل . وامتلات بهم الردهات وسمعت همهمة تصعد الى الطوابق العليا ، وبدأ الدوق دي جيفر ينزعج بينما جلس دارتانيان على قاعدة نافذة وصار ينظر بعين النسر الى ما يجرى حوله دون أن يبدو عليه أى تأثر !

على أن السكون ما لبث أن ساد بعد قليل حين ظهر المسيو بريين وصاح قائلا : « اسكنوا أيها السادة . انكم تعكرون صفو الملك ! »

فتنهذ دارتانيان أسفا وقال لنفسه : « لقد انتهى كل شيء . ان فرسان العصر الحاضر ليسوا مثل فرسان لويس الثالث عشر . لقد انتهى كل شيء ! »
ثم صاح حاجب يقول : « المسيو دارتانيان . . الى جناح الملك ! »
فنهض دارتانيان متناقلا ومشى فى خطى ثابتة حتى دخل الجناح الملكى ، وكان الملك جالسا فى غرفة مكتبه وظهره الى الباب ، وأمامه مرآة يرى بها الداخل ، فلما رأى دارتانيان داخلا تجاهل رؤيته وأخذ يقلب الاوراق التى على مكتبه . فأدرك دارتانيان غرضه ووقف ساكنا ثم قال الملك : « أهذا أنت يا مسيو دارتانيان ؟ ماذا عندك لتقوله لى ؟ »

فقال له : « ليس عندى ما أقوله لك يا مولاي سوى أنك أمرت بالقبض على وها أنذا ! »

وهم الملك بأن يذكر أنه لم يأمر بالقبض عليه ولكنه رأى فى ذلك ما يدل على الاعتذار فأثر الصمت . وكذلك سكت دارتانيان فى عناد ، وأخيرا استأنف الملك كلامه قائلا : « ماذا صنعت فى (بل - أيل) ؟ »

فقال دارتانيان : « لم يكن لى أن أصنع شيئا ! . . فمع انى قائد الحملة لم يصدر الى أى أمر معين ، بينما كانت هناك أوامر كثيرة يحملها غيرى من الضباط ! »

فقال الملك : « ان الأوامر قصرت على الموثوق بهم ! »

فقال دارتانيان : « لقد أدهشنى يا مولاي أن ضابطا مثل يوازي فى الرتبة مارشالا فرنسيا ، يجرد نفسه تحت أوامر خمسة أو ستة من الملائمين والبيكاشيين الذين قد يصلحون لأن يكونوا جواسيس ولكنهم غير جديرين بقيادة حملات . ولقد جئت الى جلالتك لأطلب ايضا عن ذلك فاذا بى أجد بابك مغلقا فى وجهى ، وكانت هذه الإهانة الأخيرة التى لحقت بفراس قديم مثلى ، سببا فى أن أترك خدمة جلالتك ! »

فقال الملك : « انك تحسب أنك تعيش فى العصر الماضى ، ولهذا تنسى أن الملك لا يقدم حسابا عن أعماله لأى أحد ! »

فأحس دارتانيان أن كرامته قد جرحت ورد على الفور قائلا : « أنى لا أنسى شيئا مطلقا يا مولاي . على أنى لا أدري لماذا يهان الرجل الشريف اذا سأل ملكه عما ساء منه !؟ »

فقال الملك : « لقد أسأت خدمتى بانحيازك الى أعدائى ! الرجال الذين أرسلتك لتحاربهم ! »

فقال دارتانيان : « أرجلان اثنان يخشى منهما على جيش ضخم ؟ هذا أمر بعيد ! »

فقال لويس الرابع عشر : « ليس لك الحق فى أن تحكم بصواب رغبتى أو عليها ! »

فقال : « ولكن لى الحق فى أن أقدر أصدقائى يا مولاي ! »

فقال الملك : « ان الذى يخدم أصدقاءه لا يخدم سيده ! »

فأجاب : « لقد أدركت ذلك يا مولاي ولذا قدمت استقالتى ! »

فقال الملك : « وأنا قبلتها . وقد أردت أن أبرهن لك على أنى عندكلمتى ! »
فقال له : « ان جلالتك ذهبت الى أبعد من ذلك ، اذ لم تقبل استقالتى فقط بل أمرت أيضا بالقبض على ! »

فتجاهل الملك هذه السخرية وقال : « لقد كانت رغبتى هى أسر العصاة وتأديبهم ، أفكان واجبا أن أسأل : هل هؤلاء العصاة من أصدقائك أم لا ؟ . . ان ارسالك فى هذه المهمة كان امتحانا لاخلاص خدمى المزعومين الذين يتغذون بخبزى ويجب أن يدافعوا عن شخصى . ولقد فشلت فى الامتحان يا مسيو دارتانيان ! »

فقال دارتانيان بمرارة : « أصغ الى يا مولاي . . انى لست معتادا هذه الخدمة . ان سيفى يعصانى اذا أريد منى عمل سوء . ولقد كان من السوء أن تبعث بى لأقود الى المشنقة صديقين لى توسل اليك منقذك المسيو فوكيه أن تبقى على حياتهما . ثم ان جلالتك أسأت بى الظن قبل أن أفعل شيئا فأحطتني بالعبور ووصمتنى بالعار أمام الجيش بعد أن خدمته ثلاثين سنة قدمت لك خلالها ألف برهان على اخلاصى وصدق ولائى !؟ »

فقال الملك : « كفى يا مسيو دارتانيان ! اننى أعمل على تكوين دولة لن

يكون بها سوى سيد واحد . واني لأعلم حق العلم أن أى ملك آخر تختاره سيدا لك لن يرضى لنفسه أن تسيره أنت . وكان فى امكاني أن أبعث بك لتكون فى صحبة المسيو فوكيه وغيره بالباستيل ، ولكن لى ذاكرة قوية ، وعندى أن الخدمات التى تؤدى هى مؤهلات للعرفان والحصافة . وسأكتفى بهذا الدرس يا مسيو دارتانيان ليكون عقابا لك على مخالفة النظام ، ولن أفلد أسلافى فى غضبهم كما لم أفلدهم فى رضاهم وحظوتهم . وهناك أسباب أخرى تجعلنى ألتطف بك ، لأنك رجل قدير ذو مواهب ، وستكون خادما صالحا للرجل الذى يقدر أن يسودك ، ثم انك لم يعد لك باعث على التمرد فان أصدقائك قد أهلكتهم أو خربت ديارهم ، وهكذا أزلت أولئك الأعدان الذين كنت تعتمد على معونتهم . وفى هذه اللحظة لابد أن جنودى قد أسروا أو قتلوا العصاة فى (بل - أيل) ! »

فامتنع وجه دارتانيان وقال : « أسروا أو قتلوا ؟ » لست أريد أن أصدق هذا لأنى لا أريد أن أنسى ما فى كلماتك من نبيل ، ولا أريد أن أعذب ملكا وحشيا وانسانا غير طبيعى ! »

ثم ابتسم واستطرد قائلا : « ولكنى لا أنسى أن مولاي ملك شباب لا يعرف أى رجلين هما دريلاي ودى فالون ؟ ! »

وهنا اشتد غضب الملك وقال له : « ان كلامك هذا كلام عاص متمرد . خبرنى : من هو ملك فرنسا ؟ أتعرف ملكا سواى ؟ »

فرد قائد الفرسان فى برود : « مولاي . . انى أذكر جيدا أنك فى صباح يوم وجهت هذا السؤال نفسه الى عدد من الناس فى فو فلم يجيبوك ، ولكنى أنا الذى أجبتك . فاذا كنت قد عرفت الملك فى ذلك اليوم ، حين لم يكن الأمر سهلا ، فأجيب أن من العيب أن أسأل هذا السؤال الآن ، وجلالتك وحدك معى ! »

فأرخى الملك بصره ، وخيل اليه أن ظل فيليب المسكين يمر بينه وبين دارتانيان ليثير ذكرى تلك المغامرة الرهيبة . وفى اللحظة نفسها دخل ضابط وسلم الملك رسالة فلما قرأها امتنع وجهه وقال لدارتانيان : « ان ما علمته الآن جدير بك أن تعلمه : لقد دارت معركة فى بل - أيل »

فدق قلب دارتانيان وكاد يقفز من بين جنبيه ، ثم قال متصنعا الهدوء : « ماذا كانت النتيجة يا مولاي ؟ »

فقال الملك : « لقد فقدت مائة وعشرة من جنودى ! »

فبان بريق الفرح فى عيني دارتانيان وقال : « والعصاة ؟ »

فأجاب الملك : « لقد فروا ! . . غير أن أسطولى يحاصر الآن بل - أيل ، ولا يمكن لأى زورق أن يفر ! »

فقال دارتانيان : « وعلى ذلك اذا قبض عن ذينك السيدين ؟ »

فأتم الملك عبارته قائلا : « سيشتقان ! »

فقال دارتانيان : « اذن يا مولاي لن يؤخذ أسيرين ، انى موقن بأنهما سيؤثران ميتة أنبل ! »

ثم مسح دارتانيان العرق الذى كان يتصبب من جبينه ، بينما قال له الملك : « لقد ذكرت لك أنى سأصبح يوما ما سيدا كريما ودودا وقيما . وأنت وحدك الآن كل من بقى من رجال الايام الحالية ، وسأهبك من غضبي أو صداقتى بحسب مسلكك . فهل تحب يا مسيو دارتانيان أن تخدم ملكا له فى مملكته مائة ملك أنداد له . . ؟ وهل ترى أنى بذلك الضعف أستطيع أن أحقق الاهداف العليا التى رسمتها لى ؟ هل رأيت فنانا يبدع آيات فنية بأداة عصية . . ؟ اننى سيد بلادى يا مسيو دارتانيان وسيكون لى خدم قد يقلون عنك فى الذكاء ولكنهم سيصلون بالولاء والطاعة الى مرتبة البطولة ! »

وبقى دارتانيان صامتا يصغى الى الملك ، بينما واصل هذا كلامه فقال : « لنعقد بيننا تلك الصفقة التى وعدت بك بها يوما حين كنت طفلا صغيرا فى (بلوا) . . ان الرؤوس العالية قد انحنت كلها يا مسيو دارتانيان ، فاما أن تحنى رأسك أنت أيضا ، واما أن تختار المنفى الذى تؤثره . ولعلك حين تفكر فى الأمر ترانى ملكا سمحا كريما ! . انك رجل شجاع ولكنك تحكم على قبل الأوان ! »

وأحس دارتانيان لأول مرة فى حياته أنه لا يقدر أن يبيت برأى ! . . لقد وجد الآن خصما جديرا به . فليس ما يبديه الملك مكرًا ولكنه حساب يقدر ، وليس عنفا ولكنه قوة ، وليس عاطفة هوجاء ولكنه ارادة وعزيمة . ثم مضى الملك فقال : « ماذا تتنويه ؟ لقد قدمت استقالتك . فأرفضها ؟ انى أقر بأن من الصعب على فارس شيخ مثلك أن يستعيد صفو مزاجه ! »

فقال دارتانيان وفى صوته رنة أسف : « انى متردد فى سحب استقالتي لأنى شيخ كبير حقا ، ولأنى اعتدت عادات من الصعب تركها . ومنذ الآن ستحتاج الى رجال بلاط يسلونك ، والى مجانين يندفعون نحو الموت لكى ينفذوا لك ما تسميه بالفعال العظيمة . انهم قد يصيرون عظاما ولكنى لا أحسبهم كذلك ! . . لقد شهدت الحرب يا مولاي وشهدت السلم ، وخدمت ريشيليو ومازارين ، ولفحتنى النار مع أبيك فى حريق روشيل ، وفى جسمى ثقب من الطعان حتى صار كالمصفاة ، وقد جددت جلدى عشر مرات كما تفعل الثعابين . وبعد أن أسىء الى وصبرت على ضروب من الظلم صارت لى قيادة كانت من قبل شيئا مذكورا اذ كانت تبيح لصاحبها أن يخاطب الملك كما يشاء . ولكن قائد فرسانك سيكون بعد الآن ضابطا يحرس الابواب الدنيا . حقا يا مولاي اذا كانت الوظيفة ستصبح هكذا فأرجو أن تنتهز فرصة هذه العلاقة الطيبة بيننا لتأخذها منى . ولا تظن أنى أحمل من أجل ذلك ضعفنا وان تكن قد صغرت من شأنى . انك اذ حنيت رأسى قد أقنعتنى بضعفى . ولا شك فى أنك تأسف مثل لو أنك علمت كم يسرنو

أصدقاء فوكيه

قضى دارتانيان أربعاً وعشرين ساعة في (بل - أيل) يبحث بكل وسيلة مستطاعة عن أراميس وبورتوس ليلقبهما عقو الملك عنهما ، وقد علم بما قام به صديقه البطلان من الدفاع ضد جيش كامل ، كما علم بأن زورقا رأى بعد ذلك في عرض البحر وخلفه سفينة حربية بقيت تطارده حتى أسرت من فيه . وعيناً حاول دارتانيان أن يقف على أية معلومات أخرى فغادر الجزيرة يائساً من لقاء صديقه وأن كان كبير الأمل في نجاتهما ، وما لبث أن عاد إلى باريس في معية الملك حيث أخبره بما كان

وكان لويس الرابع عشر قد اطمأن إلى نجاحه في توطيد سلطانه ، فدا أكثر ابتهاجاً ولطفاً ، وأكثر من الخروج على جواده حيث يسير بجانب نافذة العربة التي تقل الأنسة دي لافالير ، وكان الجميع في مقابل ذلك يبذلون قصارى جهدهم لتسليّة الملكتين زوجته ووالدته

وبعد أيام ما كاد الملك يتناول الفطور حتى جاءه دارتانيان شاحب الوجه بادي الحزن وقال له : « لقد ههمنتى كارثة شديدة يا مولاي . ان المسيو دي فالون قتل تحت الصخور في « بل - أيل ! »

فقال الملك في هدوء : « كنت أعرف ذلك ، ولكنني أشفقت عليك من وقع النبأ فلم أخبرك به ، كما أتى أعلم أن المسيو دربلاي أخذ إحدى سفنني مع من فيها وأجبرهم على الذهاب به إلى بايون »

فسأله دارتانيان : « لكن يا مولاي كيف علمت بهذه الأنباء ؟ »

فابتسم وسأله : « وكيف علمت بها أنت يا دارتانيان ؟ »

فأجاب : « علمتها من هذا الخطاب الذي أرسله إلى المسيو دربلاي من بايون بعد أن أصبح حراً بعيداً عن الخطر »

وأخرج الملك من درج مكتبه ورقة قدمها له قائلاً : « هذه صورة من الخطاب الذي أرسله إليك المسيو دربلاي ، سلمها إلى المسيو كولير قبل أسبوع من وصول الخطاب إليك . ان لي خدماً مخلصين كما ترى ! »

فتمتم دارتانيان قائلاً : « أجل يا مولاي . انك الرجل الوحيد الذي قدر لحظة أن يغلو حظ صديقي ، وقدر لسلطانه أن يغلب قواهما . ولقد استخدمت قوتك يا مولاي ، ولكنك لن تسيء استخدامها ! »

فابتسم الملك برفق وقال له : « يا دارتانيان : لقد كان في استطاعتي أن أتى بالمسيو دربلاي من أسبانيا حياً لتوقيع العقوبة

أن أرفع رأسي وكيف يؤلمني أن أنحنى حتى أشم رائحة سجادتك ! ان أولئك السادة اللوحين الذين كانوا في الماضي رجال البلاط ، كانوا كذلك أبطالا في الحروب ! وكانوا يلعقون اليد التي تطعمهم ، ويعضون اليد التي تضربهم ، فاذا وضعت بعض الذهب على معاطفهم ، وزادت وقتهم اعتدالا ، ووظف شعرهم الشيب ، رأيت أمامك دوقات فرنسا ومارشالاتها ! ولكن لماذا أقول لك ذلك كله ؟ ان الملك هو سيدي . وهو يريد مني أن أقرض أشعارا ، وأن أمسح الفيسيفساء في غرفه بقطع من الجلد . ولكن هذا أصعب من كل صعب تغلبت عليه ، ولست أدري ماذا يدعوني إلى أن أقبل كل هذا ؟ . الأني أحب المال ؟ كلا فعندي منه ما يكفي ! أم لأنني طموح ؟ كلا فهذه حياتي قد ختمت . أم لأنني أحب البلاط ؟ كلا ! وإنما أبقى في الخدمة لأنني اعتدت خلال ثلاثين سنة أن أتلقى أوامر الملك وأن أسمعها يقول لي : (عم مساء يا دارتانيان) بابتسامه لا أستجديه اياها . أما الآن فاني سأستجدي تلك الابتسامه . أفريضك هذا يا مولاي ! ؟ »

وحنى دارتانيان رأسه الفضي ، فقال له الملك وهو يبتسم بكبرياء : « شكرا يا خادمي القديم ، يا صديقي الأمين . انني لم يبق لي عدو في فرنسا بعد اليوم ، ولهذا سأرسلك إلى ميدان قتال خارجي لتكسب لنفسك فيه عصا المارشالية . والى أن يحين ذلك كل من أحسن طعامي ونم مطمئنا ! » فقال دارتانيان في تأثر شديد : « هذا كله عطف جميل من جلالتك ولكن ماذا عن الرجلين اللذين في (بل - أيل) ؟ »

فسأله الملك : « أما زلت مصرا على طلب العفو عنهما ؟ »

فقال : « وأنا راكع على ركبتني يا مولاي ! »

فقال : « حسنا ! . اذن اذهب اليهما به اذا كان في الوقت متسع . على أن تضمنتهما بعد ذلك . وسأسافر غدا إلى باريس فعد إلى متى انتهيت من مهمتهما لأنني لا أحب أن تبتعد عني في المستقبل ! »

فقبل دارتانيان بيد الملك وقال : « كن واثقا من ذلك يا مولاي »

وخرج من القصر وقد غمر الفرح قلبه وأسرع قاصدا إلى (بل - أيل)



العادلة عليه . ولكن كن واثقا بانى لن أستسلم حتى لهذا الحافظ الطبيعى .
وسأدعه حرا كما هو الآن ! »
فقال دارتانيان : « شكرا يا مولاي . وأرجو ان يبقى لنا دائما هذا النبل
وهذه السماحة اللذان اظهرتهما نحوى ونحو المسيو دربلای . فلا يؤثر
فيهما المستشارون الجدد لجلالتك ! »

فقال الملك : « كلا يا دارتانيان . انت مخطيء في هذا الظن . ان مستشارى
لا ينصحون لى بالعنف . بل الواقع ان فكرة الابقاء على المسيو دربلای لم
تكن الا فكرة المسيو كولبير ! »

فأبدى دارتانيان دهشته ثم استطرد الملك قائلا بلطف غير معتاد منه :
« اما أنت فان عندي انباء سارة لك ، ولكنك ستعلمها حين تنتظم ماليتى .
لقد وعدتك بأن أحقق لك حظك وقريبا يتم ذلك ! »

فقال دارتانيان : « الف شكرا يا مولاي . انى أقدر ان أنتظر . ولكنى
اتوسل اليك يا مولاي ان تتنازل لجلالتك وتنظر بعين العطف والرحمة الى
اناس باتسين ظلوا في غرفة الانتظار وقتنا طويلا ، ومعهم مظلمة يريدون
رفعها الى جلالتك »

فرجع الملك رأسه وسأله : « من تعنى ؟ »

فقال : « هم جماعة أصدقاء المسيو فوكيه ، أو ثلاثة منهم هم : المسيو
جورفيل والمسيو بليسون الشاعر والمسيو جان دى لافونتين »

ففكر الملك هنيهة ثم سأله : « ماذا يريدون ؟ »

فأجاب : « لست أدري يا مولاي ، انهم لا يقولون شيئا ولكنهم سيكون ! »
فقال : « دعهم يدخلوا الآن ! »

ووقف الرجال الثلاثة بالباب بعد ان انسحب رجال البلاط كأنما يخشون
ان تصيبهم عدوى النكبة والحراب ، بينما سارع دارتانيان فأخذ بأيديهم
وهم يرتجفون وقادهم حتى صاروا امام الكرسي الذى يجلس عليه الملك .
وتقدمهم بليسون وقد كفكف دمه حتى يستطيع ان يخاطب الملك . فقال
له الملك دون ان يبدو عليه أى تأثر : « تكلم ! »

فانحنى بليسون ، وركع لافونتين كما يركع الناس في الكنائس ، وظل
الجميع صامتين ، فقال الملك بلهجة جافة : « يا مسيو بليسون ، ويا مسيو
جورفيل ، وأنت يا مسيو . . . ان سكوتكم مناف للاحترام الواجب نحو
الرغبة التى أبديتها لكم الآن ! »

وهنا تكلم بليسون فقال : « مولاي . . . اننا لم نأت الا لتعبر لجلالتك عن
أعمق الاحترام وأصدق الولاء الواجب على الرعية نحو الملك . ان عدل
جلالتك هائل جبار يخضع له الجميع ، ونحن ننحنى امامه باحترام . ومعاذ
الله ان ندافع عن ذلك الذى كان من سوء حظك ان كسب غضب جلالتك .
انه قد يكون صديقا لنا ولكنه الآن عدو للدولة . ونحن نتركه لصرامة عدلك
والدمع في أعيننا ! »

فقال الملك : « ان البرلمان سببت في الأمر . انى لا أضرب الا بعد ان أزن
الجريمة . ان عدالتى لا تستخدم السيف الا بعد ان تستخدم الميزان ! »
فقال بليسون : « لذلك نحن واثقون بعدل الملك ، ونأمل ان نسمع أصواتنا
الضعيفة ، باذن جلالتك - حين تحين ساعة الدفاع عن المتهم »
فقال الملك : « ماذا جئتم تطلبون الآن ؟ »

فاستطرد بليسون قائلا : « ان المتهم قد خلف وراءه زوجة وأسرة .
والأملاك القليلة التى كانت له لم تكفى للوفاء بديونه ، ومدام فوكيه قد
تخلت عنها الناس جميعا منذ قبض على زوجها . ان يد جلالتك تضرب كيد
الله . واذا قضى الله بلعنة البرص او الطاعون على أسرة فان كل انسان يفر
منها ، وأحيانا قليلة يجرؤ طبيب على ان يلج بابها معرضا حياته للخطر ،
ويكون هو الملاذ الأخير للمريض . اننا نبتهل اليك ان ترحم مدام فوكيه ،
فلم يبق لها صديق ولا معين . انها تبكى في بيتها المهجور ، وقد تركها كل
من كانوا يزدحمون ببابها وقت الرخاء . ان المخلوق البائس الذى حلت به
نقمتك ، يتناول على الأقل خبز كل يوم فيأكله ميلا بدموعه . أما مدام
فوكيه فلا تقل عن زوجها حزنا وعوزا ، وهى التى حازت شرف استقبال
جلالتك على مائدتها ، قد أصبحت الآن لا تجد الخبز ! »

وساد الغرفة صمت رهيب لا يقطعه سوى نشيج بليسون وزميليه ،
وكان الملك يحرص على ألا يظهر تأثرا لما سمع ولكن الدم صعد الى خديه ،
وقال بصوت يقلبه التأثر : « وماذا تريدون ؟ »

فأجاب بليسون : « لقد جئنا في خضوع لكى نرجو من جلالتك ان تسمح
لنا بأن نعطي أرملة فوكيه الفى بستول جمعناها من أصدقاء زوجها القدماء »

وامتقع وجه الملك اذ سمع كلمة (الأرملة) تطلق على زوجة فوكيه وهو
على قيد الحياة ، ونظر بعطف الى الرجال الثلاثة الذين كانوا راكعين ينسججون
عند قدميه وقال لهم : « معاذ الله ان أخذ البرىء بجريرة المذنب . ان الذى
يرتاب في رحمتى بالضعفاء لا يعرفنى حق المعرفة . انى لا أنزل ضرباتى الا
بالمتعالي المتعجرف . افعلوا أيها السادة كل ما تحدثكم به قلوبكم لتخفيف
ويلات مدام فوكيه ! »

فنهض الرجال الثلاثة صامتين وقد جف الدمع في مآقيهم وغلبهم التأثر
فلم يدروا كيف يشكرون للملك عطفه . ولما خرجوا قال دارتانيان للملك :
« لكان شعارك يا مولاي هو (رفيق بالضعفاء ، عنيف مع الأقوياء) . . . »
فابتسم لويس الرابع عشر وذهب الى جناحه الآخر !

واردا من أسبانيا أدرك انه بخط أراميس لأول وهلة ، وما ان قرأ الأسطر الأولى حتى صاح قائلا : « لقد مات بورتوس ! شكرا لك يا راعول !. لقد وفيت بوعدك ان تخطرني بكل شيء ! »

ثم تصيب منه العرق وأغمى عليه وهو في سريره . ولما أفاق من أغمائه امر على أن يذهب الى بلوا ليستطيع منها أن يرسل ابنه ودارتانيان وaramيس

وكان خطاب أراميس قد أنبأه بفشل مغامرة (بل - ايل) وبموت بورتوس ، فأراد أن يزور المثنوي الأخير لهذا الصديق العزيز ، وأن يكون ذهابه الى بل - ايل بصحبة دارتانيان . ولكنه لم يكدر يتردى ملاسبه ، ولم يكدر جواده يعد للرحلة ، حتى أحس اعياء شديدا ، فأمر خدمه بأن يحملوه الى العشب ليرقد تحت أشعة الشمس ، ولما استراح قليلا أبقن أنه عاجز عن الرحيل فحمله خدمه الى البيت ، وما لبث أن استغرق في تفكير عميق ، فان البريد لم يأت اليه بخطاب من ولده برغم طول الانتظار ، وكان يعرف ان البريد يأتي مرة كل اسبوع ، فعليه أن ينتظر أسبوعا آخر وهو في قلق شديد !

وجاء الطبيب ففحصه وأمر له ببعض الأدوية ثم عاد الى بلوا . وعندئذ غلبه النوم وهو يفكر في راعول ، وما لبث حتى رأى في المنام حقول أفريقيا حول جيغلي حيث رابط دى بوفور بجيشه ، وكانت هناك صخور جرداء ، ورأى دخانا يتصاعد وراء تلك الصخور ، وسمع أصوات حركة تدل على الرعب والاضطراب ، ثم شهد بفتة لها يصعد من ذلك الدخان فيزحف على البيوت ثم يشمل المدينة كلها وترتفع صيحات الرعب وصرخات الفرع الى عنان السماء . وسمع صوت بيوت تهدم وسيوف تحطم وأحجار تتساقط وأشجار تحرق . ومن عجب أن آتوس لم ير في هذا المنظر الغريب أى انسان . وكانت المدافع تعصف من بعيد ، والبنادق تطلق والسيوف تقمقع والبحر يزار وقطعان الغنم تفر فوق السفح الأخضر ، ولكن آتوس لم ير أى جندي يطلق المدفع أو ملاحا يشترك في حركات الأسطول أو زاعيا وراء قطيع الغنم . وانما دمرت البلدة تدميرا كأنه تم بسحر ساحر دون اشتراك أحد من البشر فيه !.. ثم انطلقت النار وهبط الدخان وأرخت الليل سدوله فوق الميدان ، فساد سكون رهيب . وأرسل القمر أشعته الباهتة فوق ميدان المعركة فتبين آتوس فيه جثتا مبعثرة ، وعرف من ملابس أصحابها أنهم جنود فرنسيون سقطوا في القتال ، فتولاه رعب شديد ، وأخذ يفحص جثة بعد أخرى خشية أن يكون راعول بينها . واشتد عجبه حين لم يجد جنديا حيا يقوده الى خيمة بوفور . ونظر حوله فوجد شبعا يرتدى بذلة ضابط وفي يده سيف مثلوم ، وتقدم هذا الشبح صوبه ببطء ، وآتوس ينظر اليه دون أن يتكلم وفتح ذراعيه ليتلقاه اذ تبين فيه ولده راعول ، ولكن الشيخ أشار اليه بالصمت ، وحاول آتوس

مصرع راعول

بعد أن فرقت الظروف بين الفرسان الأربعة الذين كانوا من قبل مرتبطين معا وكانهم شخص واحد ، بقي آتوس وحده بعد سفر ولده راعول ، وقد عاد الى بيته في بلوا ، ولم يبق له حتى جريمو خادمه الأمين ليؤنس وحدته . وكان يقاوم الشيخوخة يقرب ولده منه ، اما الآن فقد بدأ الكبر يتغلب عليه بما يعتوره من ضعف وألم بعد أن بقي شابا حتى الثانية والستين من عمره ، واحتفظ بقوته وسلامة تفكيره وصفاء روحه برغم مختلف المتاعب والأخطار

أجل ان آتوس بلغ من الكبر عتيا في أسبوع واحد انقضى منذ سفر ولده الى شمال أفريقيا . فقد ترك كل التمارين الرياضية التي كان يمارسها ، وصار باوى الى فراشه ويديه كتاب غير أنه لم يكن يقرأ ولا ينام . وكان خدمه قد اعتادوا أن يروه يخرج مع الفجر فدهشوا اذ وجدوه يلازم سريره حتى الضحى ، وكان كثيرا ما يروعه منظره وهو جالس منهمك في أحلام اليقظة ، يظنونه نائما وما هو بنائم ، وكانت الساعات تفر به وهو لا يدري بمرورها ، حتى لقد كان ينسى وقت وجبات الطعام . وقد تنقضى أيام متوالية دون أن يخاطب أحدا أو ينطق ببيت شفة ، وكان يرفض استقبال الزائرين الذين يجيئون لزيارته ، وفي خلال الليل كان يقضى الساعات وهو يكتب الى جانب مصباح !

وقد كتب خطابا الى أراميس في فان ، وآخر الى دارتانيان في فونتينيبلو . ولكن الأول كان قد غادر فرنسا بينما الثاني كان مسافرا من نانت الى باريس !

وكان الطبيب يزور آتوس ويفحصه مرة بعد أخرى مجاولا أن يسبر غور المرض الذى يقعده ويسرع به الى الاضحلال . اما آتوس فلم يكن يعترف بأنه مريض ولا يبالي أن يعالج !

وفي إحدى الليالي رأى في منامه ولده راعول يرتدى ملاسبه في خيمة ليذهب مع حملة يقودها السيو دى بوفور بنفسه ، وكان الشاب بادى الحزن وقد تمنطق بسيفه ببطء فسأله والده : (ماذا بك ؟) . فأجاب : (يحزننى موت بورتوس . لقد كان صديقا مخلصا . وأنا أتالم هنا للحزن الذى سيغمرك)

وما لبث الكونت آتوس قليلا حتى تلقى في صباح اليوم التالي خطابا

أن يصرخ ولكن الصرخة كتمت في حنجرتة ورأى الشيخ يتراجع دون أن يبصر له قدمين ، فتبعه وهو يرتعد فرقا وأخذ يعبر الصخور والأحراش والبرك ، والشيخ أمامه لا يبدو عليه أنه يمشی على أرض . وما لبث الكونت أن تعب من المشى فوقف منهك القوى ، بينما الشيخ الذى شبه رءول يشير إليه ليتبعه ، فاستمد الأب من جبه الأبوى قوة وتبعه فوق التل مسحورا بأشارته وابتسامته . وأخيرا وصل الشيخ الى قمة التل فمد كل منهما يده للأخر ، ولكن قوة خفية جذبت رءول ورآه آتوس يترك الأرض وأبصر السماء الزرقاء بين قدمى ولده وبين الغبراء ، وارتفع رءول الى السماء وهو لا يزال يتنسم لوالده ويشير إليه ليتبعه ، فصاح آتوس صيحة حنان ورعب معا ، ونظر الى تحت فرأى معسكرا قد ضرب ، وأبصر جثث الموتى مبعثرة على الأرض ، ثم رفع بصره الى السماء فرأى ابنه لا يزال يشير إليه ليصعد مثله !

واستيقظ آتوس من نومه بعد هذا الحلم المروع على صوت ضجة عند الباب الخارجى للدار ، ثم سمع صوت جواد يدخل الفناء ، وبعدئذ صوت وقع قدمين على الدرج ، فحسب أن البريد قد جاءه ، لكنه فوجيء بأن خادمه جريمو هو القادم ، وكانت ملابسه يعلوها غبار السفر ، وقد وقف بالباب يرتعد فما أن رآه آتوس هكذا حتى قال له : « لقد مات رءول .. أليس كذلك ؟ »

وكان الخدم واقفين وراء جريمو وقد كتموا أنفاسهم . فأجاب جريمو وهو يتنهّد : « أجل يا سيدى ! »

ثم ارتفع عويل الخدم بينما كان الأب الثاكل يردد بصره فى العرفة ليرى صورة ابنه . ولم تصدر عنه زفرة ولم تنحدر من عينه دمعّة بل كان مستسلما صابرا كالشهداء ، ورفع بصره نحو السماء وكأنه يبحث عن ولده الذى رآه فى الرؤيا يصعد إليها فوق التل . وضم يديه معا فوق صدره والتفت نحو النافذة وصار ينظر الى عالم مجهول وظل على هذه الحالة وقتا ثم قال : « هانذا ! » . ولم يدر أحد أقالها مخاطبا ابنه أم ربه ! وعندئذ سقطت يده الى جانبه برفق وكأنه وضعهما هكذا الى جانب السرير !

لقد كان الموت رفيقا بهذا الانسان النبيل فوقاه ألم الاحتضار ولم يعش بعد ولده . وظن خدمه أنه نائم لما يبدو عليه من هدوء ، وظل جريمو يرغم تعبه من الرحلة جالسا على عتبة الباب لا يريد أن يترك سيده وكأنه ديدبان يؤدى واجبه . وكان السكون يعم الدار وما لبث جريمو أن لحظ أن سيده لا يسمع له تنفس فقام اليه وسرعان ما استوثق من وفاته !

وفى تلك اللحظة سمع وقع خوافر جواد قادم ، ثم سمع صوت دارتانيان وهو يصيح بعد أن ترجل عند الباب : « آتوس أيها الصديق ! » . فتمتم جريمو قائلا : « المسيو دارتانيان ! » . ثم نهض فاستقبله وأمسك ذراعه بأصابعه اليابسة وأشار الى السرير ، وما نظر دارتانيان الى آتوس حتى أدرك أنه

قد فارقتة الحياة ، لكنه وضع أذنه على صدره ليتحقق الامر . ثم جاء جريمو فغطى جثمان سيده وجلس عند قدميه يبكى بكاء مرا . وأحس دارتانيان ألما يفتت كبده ووقف برهة أمام جثمان زميله الميت يتأمله ويودعه ، ثم جلس على حافة السرير يستعيد ذكرياته مع هذا الفارس الذى نعم بعطفه ومودته خمسا وثلاثين سنة . وأخيرا لم يستطع أن يكتف شعوره فقام والعبرات تخنقه حزنا على آتوس ورءول وبورتوس فى آن واحد !

ثم قال لجريمو : « لقد رأيت الأب يموت . حدثنى كيف مات الابن ؟ ! » فأخرج جريمو من صدره خطايا كبيرا كتب على ظرفه عنوان آتوس ، فعسرف دارتانيان لتوه خط دوق بوفور وفض الخطاب وشرع يقرؤه على ضوء الفجر الذى كان قد أنبثق وهو يمشی بين أشجار الليمون ، ولا تزال بالطريق آثار قدمى الكونت الذى مات !

« عزيزى الكونت .. لقد نزلت بنا كارثة شديدة ، وسط انتصارنا العظيم ، فقد فقد الملك جنديا من أبسل جنوده ، وفقدت أنا صديقا عزيزا . لقد مات رءول ميتة مجد وفخار ، ولكنى لا أجد فى نفسى القدرة على أن أبكيه كما أود . فتقبل عزائى مع جم الثناء على ولدك العزيز . أن الله يتحننا بالمصائب على قدر إيماننا . وهذه مصيبة كبيرة ولكنها لا تجل على صبرك وشجاعتك .. صديقتك المخلص دوق بوفور »

وكان مع الخطاب رسالة كتبها أحد سكرتيرى الدوق ، وقد حوت وصفا دقيقا للحادث الاليم الذى ذهب براءول . وجاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« هجم الجيش صباحا بقيادة سمو الدوق . وبدأت المدفعية بإطلاق نيرانها . وتقدمت الفرق فى عزم صادق ، وتبع الأمير حركات الجنود ، لكى يعد لهم احتياطيا فويا . وكان مع سموه كبار الضباط وأركان حربه . وتلقى المسيو دى براجلون أمرا بالألا يترك صاحب السمو . وفى خلال ذلك كان العدو قد نظم تصويب نيران مدافعه وبنادقه ، فقتل عدد من الرجال الذين كانوا يقرب الأمير . وبدأ شيء من التردد من جانب رجالنا إذ كانت المدفعية لا تؤيدهم التأييد الكافى . والواقع أن البطاريات التى اتخذت مواقعها فى الليلة السابقة كانت لا تحكم التصويب لسوء تلك المواقع . فأمر صاحب السمو بانتقالها الى الطريق ، وتطوع رءول فورا لتنفيذ هذا الامر ، ولكن الأمير رفض رجاءه إذ كان يحبه ويريد أن يبقى على حياته . وكان الأمير على حق لأن الجاويش الذى كلف حمل الرسالة لم يكد يصل الى شاطئ البحر حتى حنذلته رصاصتان من بنادق العدو . وعندئذ التفت الدوق الى رءول وقال له : (أرايت ؟ لقد أنقذت حياتك . لا تنس أن تخبر بذلك والدك يوما ما ليقدم الى شكره) . فابتسم الفيكونت رءول دى براجلون ابتسامة حزينة وقال : (هذا صحيح يا صاحب السمو ، فلولا عطفك لقتلت حيث سقط الجاويش المسكين ولكنك وجدت الراحة) . فدهش الدوق وقال : (رباة ! أن من يسمعك تقول هنا يخيل اليه أنك تمنى الموت)

« وهنا احمر وجه الفيكونت وقال له : (عفوا يا صاحب السمو . . لقد بحثت دائما عن فرص للمجد . وانه لما يدعو الى السرور ان نمتاز في عيني قائدنا)

« فارتاح سمو الأمير لهذا الجواب . وأخذ يصدر أوامره . واقترب رماة القنابل من البرك ليرموا قنابلهم . ولكن كان تأثيرها ضعيفا . وفي الوقت نفسه كان المسيو دستريه قائد الأسطول قد لاحظ ذلك الجاويش يحاول أن يبلغ السفن ، فأدرك أنه لا بد له أن يعمل ولو لم يتلق أوامر ، وأخذ يطلق المدافع . ورأى الأعداء شدة الإصابات التي حلت بهم من نيران الأسطول ، فصاحوا صيحات فزع ، وهبط فرسانهم من فوق الجبل وهجموا هجمة واحدة على فرق المشاة ، فشبك هؤلاء حراهم ووقفوا هذا الهجوم ، وعندئذ تندف الأعداء في عنف شديد نحو رجال أركان الحرب ولم يكن هؤلاء على حذر في تلك اللحظة . وكان الخطر شديدا فاستل الدوق سيفه ، وفعل الرجال الذين حوله مثله ، واشتبكوا مع الأعداء في قتال عنيف . وحانت لراءول فرصة لتحقيق رغبته فقاتل كما كان يقاتل الرومان القدماء . ولاحظ الدوق حماسه البالغة وهو يتعد نحو الخنادق فأمره بالوقوف ولكنه لم يطع الأمر ، فأدهش عصابه الجميع وصاح به الدوق : (قف ! الى أين أنت ذاهب ؟ قف . أمرك بالوقوف !)

« ولكن راءول لم يطع وظل يتقدم بجواده ، وعاد الدوق يصيح به أن يقف وأخيرا قال له : (أمرك بالوقوف . . . باسم أيبك) . وعندئذ التفت خلفه والحزن باد على ملامحه . ولكنه لم يقف . فحسبنا أن جواده قد جمح به ، فأمر الدوق بإطلاق الرصاص على ذلك الجواد ولكن خاف الجميع أن يفعلوا فيصيبوا الفارس كذلك . وأخيرا تقدم جندي بارع في الرماية يدعى لوزرن فسدد بندقيته ورمى الجواد فأصابه ولكنه بدل أن يقع زاد هياجا واستمر متدافعا الى الأمام براكبه ، وأدركنا جميعا أن الفارس سيلقى حتفه وصحنا جميعا نقول : (اقدف بنفسك من فوق الجواد يا فيكونت) . وكان راءول ضابطا محبوبا من الجميع . ولكنه كان قد وصل الى مرمى بنادق العدو . فانهال الرصاص حوله وأخفاه الدخان عن أبصارنا ، ثم تبدد الدخان فرأناه واقفا على قدميه وقد مات جواده !

« ودعا الأعداء الى التسليم ولكنه أشار لهم برأسه إشارة الرفض ، واستمر يتقدم نحو سياجهم . وكان هذا طيشا منه ولكن جيشنا كله سره منه أنه لم يتقهقر . ومشى بضع خطوات فصفقنا له جميعا . وعندئذ عاد العدو فاطلق عليه الرصاص واختفى ثانية في الدخان ، ولما تبدد الدخان لم نره واقفا هذه المرة بل كان منبطحا على الأرض . وتقدم الأعداء يريدون أن يسحبوا جثته ولكن الدوق صاح برجاله قائلا : (اتدعونهم يأخذون ذلك الجسم النبيل ؟) . ولوح بسيفه وأندفع بجواده تجاه العدو فتقدمت الفرق معه وهى تصيح صيحات مرعبة ، وابتدأ القتال عند جثة راءول ، وكان

حامى الوطيس ، وفقد فيه الأعداء مائة وستين قتيلًا وفقدنا نحو خمسين من رجالنا . وحمل ملازم من اقليم نورماندى جثة الفيكونت على كتفه وعاد بها الى خطوطنا . ثم تابع جيشنا هجومه وقد انضمت اليه القسوات الاحتياطية فحطمت استحكامات العدو وسكنت نيرانه عند الساعة الثالثة . ثم استمر التلاحم بالسيوف ساعتين ولم توف الساعة الخامسة حتى تم لنا النصر في جميع النقط . وأمر سمو الدوق برفع العلم فوق قمة الجبل وعندئذ فقط بدأنا نفكر في راءول ، وقد وجدنا بجسمه ثمانية جروح كبيرة نزف منها دمه كله تقريبا . ولكنه مع هذا كان لا يزال يتنفس وقد فرح الدوق بذلك فرحا شديدا وأصر على أن يكون حاضرا حين يفحصه الجراحون ، وقد صرح اثنان منهم بأنه سيعيش ، فعانقهما الدوق ووعد كلا منهما بمكافأة اذا أمكنهما انقاذ حياته !

« وسمع الفيكونت ذلك فدلّت ملامحه على غير الارتياح . أما الجراح الثالث فقد ربط الجروح ولكنه لم يقل شيئا . ولما سأله الدوق صرح بأن بجسم الفيكونت ثلاثة جروح قتالة ، ولكن نظرا الى قوة الشبّاب فان الأمل وطيد في شفائه ، ثم قال : (وأهم شيء ألا يتحرك أدنى حركة فان ذلك يقتله لا محالة) . وعندئذ تركنا الخيمة وقد ضعف فينا الأمل . وخيل الى أحد السكرتيرين أنه رأى الجريح يتسم حين سمع تلك النصيحة من الجراح . ودخل الدوق عنده فقال له : (سننقذك من الموت يا فيكونت . سننقذك)

« وفي المساء بعد أن اعتقدنا أن الجريح قد ارتاح دخل أحد المساعدين خيمته ولكنه ما لبث حتى خرج وهو يصرخ صرخة مفزعة ، فدخلنا جميعا ومعنا الدوق وإذا براءول ملقى بجانب سريره غارقا في بقية دمه . واتضح أنه قد تحرك أو تشنج فسقط من فوق السرير . وقد عجّلت هذه السقطة بنهايته كما قال ذلك الجراح . ولما رفعناه وجدناه جثة هامدة ، وكان يمسك بخصلة شعر جميل في يده ويضع هذه اليد فوق قلبه »

ثم تلا ذلك وصف أعمال الحملة ، ولكن المسيو دارتانيان وقف عند موت راءول وقال : « يا للفتى المسكين . لقد انتحر ! »

ثم التفت صوب الغرفة التي سجد بها جثمان الكونت دي لافير وقال : « لقد وفي كل منهما بوعده للآخر . الآن أحسبهما سعيدين ، وقد عاد كل منهما الى صاحبه ! »

ثم مشى بخطى وثيدة كاسف البال حزينا ، وكانت القرية كلها قد علمت بالكارثة المزدوجة فاشتد بها الأسى وأخذت تستعد للجنائز !

الوداع الاخير

في اليوم التالي لموت الكونت آتوس ، جاء جميع النبلاء الذين وصل نعيه الى اقاليمهم ، ليشتروا في الجنازة . وكان دارتانيان قد حبس نفسه في الدار اذ كان لا يريد أن يكلم أحدا ، فقد كان صعبا عليه أن يفقد آتوس وراويل بعد أيام معدودة من فقده بورتوس . وكان لا يدخل غرفته أحد من الخدم سوى جريمو . وقد كتب الى الملك راجيا مد اجازته . وكان جريمو قد جلس على كرسي بقرب الباب وهو يفكر تفكيرا عميقا ، ثم نهض وأشار الى دارتانيان لينبعه ، وهبط معه الدرج الى غرفة نوم الكونت وأشار الى السرير الذي خلا من سيده ونظر الى السماء ، فقال له دارتانيان : « أجل يا جريمو . لقد ذهب مع ابنه المحبوب ! »

ثم غادر جريمو الغرفة وقاد دارتانيان الى القاعة حيث تقضى تقاليد الريف بعرض جثمان الميت على الانظار قبل دفنه . وقد عجب دارتانيان اذ رأى هناك تابوتين مفتوحين ولما اقترب منهما بناء على اشارة جريمو رأى في أحدهما جثمان آتوس وفي التابوت الآخر جثمان راول . وارتجف دارتانيان لرؤية الأب والابن ميتين ، وتمتم قائلا : « راول هنا ؟ لماذا لم تخبرني بذلك يا جريمو ؟ »

فهز جريمو رأسه ولم يجب ، وإنما قاد دارتانيان الى تابوت راول وأراه مواقع الجروح وقد اسودت ، فأدار الكابتين وجهه من الألم ، وتذكر أن سكرتير الدوق قد كتب أكثر مما طاق هو أن يقرأه . ثم أخرج الورقة من جيبه وقرأ فيها ما يلي : « وقد أمر سمو الدوق بتحنيط جثمان الفيكونت على أن يتقله خادم أمين الى دار الكونت دي لافير »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « وهكذا يا بنى العزيز بأشيع جنازتك ، أنا الرجل الشيخ الذي لم تعد له قيمة في الحياة ، وسأهيل التراب على جبينك الذي قبلته منذ شهرين اثنين . لقد أردت لنفسك هذه النهاية ، فليس لي الحق حتى في البكاء . لقد اخترت لنفسك الموت بعد اذ أثرت على الحياة »

وأخيرا حان وقت تشييع الجنازة ، ومضى عدد كبير من الضباط والمدنيين الى المقبرة المجاورة لكنيسة صغيرة ، وكان الطريق مملوا بالفرسان والمارة وكلهم في ثياب الحداد . وكان آتوس قد بنى لنفسه قبرا في نطاق تلك الكنيسة عند حدود مزرعته

ولما تمت المراسم ودفن الأب والابن ، بقي دارتانيان وحده ، وكانت الشمس قد غربت ولكنه نسي مرور الوقت وهو يفكر . ثم قام من فوق مقعده بالكنييسة وأراد أن يذهب الى القبر ليودع صديقيه الوداع الاخير ، واذا به يرى امرأة راكعة هناك على الارض ، فوق باب الكنيسة يتأملها وكانت مخفية وجهها في راحتها البيضاء كالشمع ، وكان خارج السياج عدد من الجياد يركبها خدم ، وعربة تنتظر . وظلت السيدة تصلي عند القبر وهي بين حين وآخر تمسح عينها بمنديل . ورآها دارتانيان تضرب صدرها بيدها وهي تقول : « ألا مغفرة ! » . وأخيرا تقدم دارتانيان نحوها فما أن سمعت وقع خطاه حتى رفعت رأسها فيان وجهها وقد بلله الدمع . فعرف أنها الأنسة دي لافالير ! وتمتمت قائلة : « المسيو دارتانيان !؟ »

فرد قائلا بلهجة صارمة : « أنت هنا ؟ وددت لو رأيتك مسجاة في دار الكونت دي لافير ! انك أنت التي قتلت هذين الرجلين بلا رحمة ! »

فقال له : « سيدي .. أشفق على ! »

فقال : « معاذ الله يا سيدتي أن أهين سيدي . غير أنني أصارحك القول بأن مكان القاتل ليس هو قبر فريسته ! »

فأرادت أن تقول شيئا ولكنه واصل كلامه قائلا : « ان هذا الذي قلته لك الآن قد قلته للملك من قبل ! »

فصمت يديها وقالت : « اني أعرف ! لقد كنت السبب في موت راول ! لقد وصل النبا الى البلاط أمس . فسافرت خلال الليل مسافة أربعين فرسخا لكي آتي وأطلب المغفرة من الكونت دي لافير اذ حسبته لا يزال على قيد الحياة ، ولكي أسأل الله على قبر راول أن يقدر لي كل الكوارث التي أستحقها ، ثم علمت أن موت الابن قد عجل بنهاية الأب ، فأدركت أنني ارتكبت جريمة لا جريمة واحدة . والآن أترقب عقوبتين ينزلهما الله علي ! »

فقال لها دارتانيان : « سأعيد على سمعك ما قاله عنك راول حين كان يتوقع لنفسه الموت . لقد قال يومئذ : (لو كانت فتاة طامحة لعبوا وحادت عن الطريق السوي فاني أغفر لها مع اذرائي اياها . ولو كان الحب هو الذي جعلها تخطيء نحوي فاني أغفر لها وأقسم لها أنه لم يجبها أحد كما أحببتها !) »

فقالت لوزي : « أنت تعلم أنني في سبيل الحب كدت أضحي نفسي ، وأنت تعلم أنني كنت أتألم حين قابلتني وأنا ضائعة مهجورة . اني لم أقاس في حياتي كما أقاسي الآن . فقد كنت وقتئذ ذات أمل ورغبة . أما الآن فليس لي شيء منهما ، لأن موت راول وأبيه قد قبر معهما كل مسرة لي ، ولا أستطيع الآن أن أحب دون أن أعاني وخز الضمير . واني لأشعر بأن ذلك الذي أحبه سيجزيني بالعذاب الذي سببته لغيري ! »

فلم يجب دارتانيان اذ كان موقنا بأنها صادقة ، وواصلت هي كلامها

لقاء ووداع

مضى على موت بورتوس وآتوس وولده أربع سنوات ، وفى ذات يوم ، كان اثنان من الفرسان يعبران غابة بلوا فى باكورة الصباح ليرتبا رحلة صيد للملك ، وكان أحدهما حافظ كلاب الملك والآخر حافظ صقوره . فوجدا فى مكان هناك فرسان الملك و خلفهم قائدهم دارتانيان ، وقد عرفاه بجواده الأصيل وبذئته المزركشة وشعره الأشيب ، فقال أحدهما للآخر: « ان المسيو دارتانيان لا يبدو عليه كبير . انه أكبر منا سنا بعشرين سنة ومع هذا يجلس فوق جواده جلسة فارس شاب ! »

فقال الفارس حافظ الصقور : « انى لم ألحظ عليه أى تغير خلال العشرين سنة الاخيرة ! »

غير أن هذا الضابط كان مخطئا ، فان دارتانيان كان قد حطمته السنوات الاربع الاخيرة . ثم اقترب هو منهما وحياهما ثم قال لهما : « ان الملك فى هذه الايام يستخدم فرسانه أكثر مما يستخدم كلابه وصقوره ! »

فقال حافظ الكلاب : « نعم يا سيدى ، ما أجمل تلك الايام الماضية حين كان الملك السابق يطير العقوق (طائر ملون) فى الكروم التى وراء بوجنس، وكنا جميعا فى مبة الشباب »

وكان دارتانيان قد منح لقب كونت منذ أربع سنوات . ثم سأله حافظ الصقور : « ألم تنعب من الرحلة التى قمت بها ؟ »

فقال : « لقد قطعت أكثر من خمسمائة فرسخ فى الذهب والاياب ! »

فسأله فى صوت هامس : « أهو بخير . أعنى المسيو فوكيه المسكين ؟ » فأجاب دارتانيان : « كلا ! . انه دائم الشكوى ولا يقدر أن يفهم كيف يكون السجن منه . ويرى أن البرلمان قد حكم بنفيه ، وان النفى معناه الحرية . انه لا يتصور أنهم كانوا يريدون اعدامه ، وانه جدير به أن يحمد الله الذى نجاه من مخالب البرلمان ! »

فقال الفارس : « حقا ان ذلك الرجل المسكين كان قد دنا من المشنقة . لقد أشيع أن المسيو كولبير كان قد أصدر أمرا الى الباستيل للاستعداد لاعدامه ! »

فقال دارتانيان : « كفى ! ولنترك هذا الحوار . وعندئذ دنا منهما الفارس حافظ الكلاب وكان قد ابتعد قليلا وقال : « ان المسيو فوكيه قد

فقال : « والآن يا مسيو دارتانيان لا تقس على ! . اننى كفرع انتزع من شجرة . فانا لا أعتمد على شىء وانما يجرفنى تيار لا أدرى الى أين . اننى أحب بجنون ، أنى أحب الى حد أنى أخبرك بحبى فوق هذا القبر . وأنا لا أحجل من هذا الحب ولا يؤنبنى ضميرى عليه . ان هذا الحب هو دينى ولكن لما كنت سترانى فى المستقبل منسية منبوذة ، وسينزل بى العقاب المقدر لى ، فأرجو أن ترحمنى فى سعادتى الموقوتة وأن تتركها لى بضعة أيام أو بضع لحظات . ولعلها فى هذه اللحظة التى أكلمك فيها قد انتهت ! »

وبينما كانت تقول ذلك سمع صوت جياد تقترب ، وجاء المسيو دى سان اينيان قاصدا الى لافالير فقال لها : « لقد كان الملك فريسة الغيرة والقلق ! »

ولم يكن قد رأى المسيو دارتانيان اذ أخفاه عن نظره جذع شجرة تظل القبر . فشكرت لويز المسيو سان اينيان وصرفته ، وعندئذ قال لها دارتانيان : « رأيت يا سيدتى ؟ ان سعادتك لا تزال قائمة ! »

فرفعت الفتاة رأسها برزاة وقالت : « سيأتى يوم تندم فيه على سوء ظنك بى . وفى ذلك اليوم سأسأل الله أن يغفر لك ظلمك اياى . وفضلا عن ذلك سأشقى أنا الى حد يجعلك تتألم لشقائى . فلا تلمنى على هذه السعادة فقد كلفتنى ثمنا غاليا ولم أسدد دينى بعد ! »

ثم عادت فركعت الى جانب القبر وقالت : « سامحنى يا راعول . لآخر مرة أطلب اليك الغفران يا خطيبي العزيز . لقد خنت عهدك ، ولكنى ساموت مثلك من الحزن . واذا كنت أنت قد سبقت الى الرحيل فلا تخش شيئا فسأتابعك عما قريب . ولعلك الآن تدرك أنى لست دينئة والا ما جئت الآن لاودعك الوداع الاخير : والله وحده يعلم أنى ما كنت لا تردد فى أن أفتديك بروحى . ولكنى لم أستطع أن أمنحك حبى . مرة أخرى أرجو الصفح والمغفرة يا راعول ! »

ثم تناولت غصنا وغرسته فى الأرض ، وبعدئذ مسحت الدمع من عينيها وانصرفت بعد أن انحنت تحية لدارتانيان !

ونظر دارتانيان الى الجياد والعربة الذهبية ، ثم قال لنفسه : « متى يأتى دورى فى الرحيل ؟ ماذا بقى لرجل بعد الشباب والحب والمجد والصدقة والقوة والثروة ؟ . لم يبق سوى صخرة يرقد تحتها بورتوس الذى أتيت له كل تلك النعم . ولم يبق سوى هذا القبر الذى يرقد تحته آتوس وراءول وكان لهما أكثر مما كان لبورتوس ! »

ووقف لحظة متريدا ثم قال لنفسه : « الى الأمام ! حين تدق ساعتي سينبئنى الله بها كما أنبأ هؤلاء ! »

ثم لمس الارض وقد بللها ندى المساء ، وغادر المقبرة وركب جواده عائدا وحده الى باريس !

فقال له : « أن جلالتك كنت نائما حين وصلت ، ولم تكن قد استيقظت بعد حين تسلمت عملي صباح اليوم ! »

فقال له الملك : « انك أنت لا تتغير . خذ نصيبك من الراحة يا كونت . اني أمرك بذلك . وستتناول طعام الغداء معي اليوم ! »

فأحاطت بدارتانيان همهمة اعجاب من معية الملك ، وكان كل فرد تواقا لان يحييه . فان تناول الغداء مع الملك صار شرفا لا يسخو به لويس الرابع عشر كثيرا . ثم تقدم الملك بضع خطوات فوجد دارتانيان نفسه بين جماعة أخرى كان المسيو كولبير هو البارز فيها . وقال له هذا الوزير بأدب ومودة : « عم صباحا يا كونت دارتانيان . هل كانت رحلتك ممتعة ؟ »

فانحنى دارتانيان على رأس جواده وأجاب : « أجل يا سيدي ! »

فقال الوزير : « لقد سمعت الملك يدعوك الى مائدته ، وستقابل هناك صديقا قديما لك هو دوق الميدا »

وهنا فتح باب عربة فظهر منها شيخ وقور أشيب وقال : « ها أنذا يا كونت ! »

فصاح دارتانيان في دهشة بالغة : « أراميس ! »

وعانق صديقه القديم ، ثم تركهما كولبير ومضى بجواده . فقال دارتانيان لأراميس : « ما هذا ؟ كيف عدت الى فرنسا ثانية أنت النائر المنفي ؟ ! »

فابتسم أراميس وأجاب : « وسأتناول معك الغداء على مائدة الملك . أجل . ألا تسأل نفسك : ما جدوى الاخلاص في هذا العالم ؟ ولكن لتقف عربتنا لحظة كي ندع عربة دي لافالير المسكينة تمر . أنظر ما أشد قلقها واضطرابها . وكيف تتبع الملك وهو على جواده ، بعينين دامعتين ! »

فسأله دارتانيان : « ومن تلك التي مع الملك ؟ »

فأجاب أراميس : « انها (كليز - شارنت) وقد أصبحت الآن مدام دي مونتسيان ! . أما لافالير فالملك لم يهجرها تماما ولكنه لا يلبث قليلا حتى ينبذها ! »

وجعل الصديقان يتحدثان وهما يتبعان حملة الصيد . وما لبث الملك قليلا حتى ترجل عن جواده فاقترنت به مدام دي مونتسيان . وكانا أمام كنيسة صغيرة مهجورة تحيط بها أشجار كثيفة ، وكان خلف الكنيسة سياج يتوسطه باب ، وكان البازي قد أسقط فريسته وراء ذلك السياج فأراد الملك أن يدخل ليأخذ من الطير المصيد أول ريشة كما جرت العادة . وأحاطت المعية بالكنيسة ولم تقدر أن تدخل السياج لصغر المساحة وكثرة عددهم . وأمسك دارتانيان ذراع أراميس وقال له : « أتدري يا أراميس الى أين قادتنا المصادفة ؟ »

فأجاب دوق الميدا : « كلا ! »

فقال دارتانيان في حزن : « هنا أناس كنا نعرفهم . هنا آتوس ورامول ! »

استحق ذلك اذ سلب الملك مالا كثيرا . ومن حسن حظك انك أنت الذي ذهبت به الى هناك ! »

فنظر دارتانيان اليه نظرة قاسية وقال له : « لو أن أحدا أنبأني بأنك أكلت لحم كلابك لما اكتفيت بتكذيبه بل كنت أشفق عليك اذا حكم عليك بالسجن من جراء هذه التهمة ، وكنت لا أطيق أن أسمع أحدا يذكرك بسوء . وأنا أؤكد لك أن المسيو فوكيه لا يقل براءة عنك ! »

وتراجع حارس الكلاب بعد هذا الدرس القاسي ، بينما عاد زميله حافظ الصقور فقال لدارتانيان : « انه راض عن نفسه لان كلاب الصيد رائجة الآن . ولو كان من حملة الصقور لما قال ما قاله ! »

فابتسم دارتانيان ، وعاد بذهنه الى المسيو فوكيه وما كان فيه من عز وبذخ ، وما ينتظره من ميتة محزنة . ثم سال حارس الصقور : « هل الملك سيأتي قريبا ؟ »

فأجاب : « عند الساعة السابعة أطلق الصقور ! »

فسأله : « من سيأتي مع الملك ؟ وكيف حال الاميرة هنريتا ؟ وكيف

حال الملكة ؟ »

فقال : « ان الملكة أحسن حالا من قبل ، وقد تحسنت صحتها بعد أن ساءت منذ حزنها الأخير ! »

فتساءل دارتانيان متعجبا : « أي حزن ؟ ان هذا النبأ جديد على لانتي لم أعد الا أخيرا ! »

فقال الفارس : « لقد ساء ما اجمال الملك اياها بعد موت الملكة الوالدة ، وزاد في حزنها أنها شكت اليه فأجابها بقوله : (حسبك أني أنام عندك كل ليلة !) . »

فقال دارتانيان : « يا لها من امرأة مسكينة . لابد أنها تكره الآنسة دي لافالير من أعماق قلبها ! »

فقال الفارس : « ان منافستها الآن ليست الآنسة دي لافالير ! »

وفي تلك اللحظة سمع صوت نغير يدعو الكلاب والصقور ، فمضى الضابطان توا دون أن يتم ذلك الحوار ، وظهر الملك قادما تحيط به السيدات والفارسان . وتقدم الجميع في نظام ، وتبين دارتانيان وراء ذلك الجمع ثلاث عربات ، كانت الاولى للملكة ولكنها كانت خالية . ورأى دارتانيان الآنسة دي لافالير في العربة الثانية وكانت وحدها مع اثنتين من الوصيفات . وكان الى يسار الملك سيدة بارعة الجمال ، والملك يبتسم لها وهي تبتسم له ، وكان يضحك لكل كلمة تقولها !

فقال دارتانيان لنفسه : « يجب أن أعرف من هذه المرأة » . ثم انطلق فلحق بحافظ الصقور ليسأله ، ولكن الملك لمح فناداه قائلا : « لقد عدت يا كونت . لماذا لم أرك اذن ؟ »

فقال لها الملك : « اصغى الى .. اذا كان أصدقاؤك يسيئون الى سمعتك فليست هذه غلطة الأمير ! »

وقد نطق هذه الكلمات برقة جعلتها توشك أن تفضى اليه بأشجانها ، ثم قال لها : « هيا بشيني شكواك . انى كصهر ساشفق عليها . وكمملك سآزىل أسبابها ! »

فرفعت عينها النجلاوين وقالت برنة حزن : « ان أصدقائى لا يسيئون الى سمعتى ، فانهم اما غائبون واما مختفون . لقد حل بهم غضب جلالتك برغم اخلاصهم وولائهم ! »

فقال لها : « أنت تقصدين دى جيش الذى نفيته الى الخارج بناء على رغبة أخى الأمير ؟ »

فقالت : « قد حاول كل يوم أن يلقي حتفه ! »

فقال لها : « أتحسبين ذلك ظلما منى يا أختاه ؟ »

فقالت : « انه لظلم عظيم ، ولولا انى آكن لك الاحترام ممزوجا بالمودة للجات فى ذلك الى أخى تشارلس الذى يمكننى دائما أن أعتمد عليه ! »

فقال لها الملك : « ماذا كنت تطلين اليه ؟ »

فأجابت : « كنت أطلب اليه أن يبين لك أن زوجى الامير وصديقه الفارس دى لورين لا ينبغى لهما أن يكونا جلادى شرفى وسعادتى ! »

فسألها : « أتعنين الفارس دى لورين ، ذا الوجه الذى يقبض الصدر ؟ »

فقالت : « أجل ! انه عسدى الألد طالما بقى فى قصرى يقربه الامير منه ويخوله سلطته ، ليجعلنى أتعس امرأة فى المملكة ! »

فقال الملك بتؤدة : « وهكذا تحسبين أخاك ملك انجلترا صديقا أخلص لك منى ؟ »

فقالت : « ان الاعمال هى التى تتحدث يا مولاي ! »

فقال : « وأنت تؤثرين أن تطلبى المعونة هناك ؟ »

فقالت بكبرياء : « انها بلادى . أجل يا مولاي ! »

فقال الملك : « انك حفيدة هنرى الرابع كما أنا حفيده ، فانا ابن عمك وأخو زوجك فى آن واحد ! »

فقالت : « اذن اعمل ما يحقق صالحى ! »

فقال : « هيا بنا نعقد محالفة .. أنت تقولين انى نفيت دى جيش ظلما ، وأذن يعود فى أقرب وقت ! »

فقالت : « حسنا » . ومضى هو فقال : « وتقولين ان وجود الفارس دى لورين فى معية أخى الأمير يسىء اليك ، واذن لن يزعجك بعد اليوم ! »

فقالت الأميرة : « هذه يا مولاي مقدمة حسنة لمخالفة بيننا . وأنا أقبلها راضية . ولكن اذا كان هذا نصيبك منها فما هو نصيبى ؟ »

فدخل أراميس بخطى مرتعشة من باب صغير فتحة له دارتانيان . ومضيا الى القبر الذى تطله شجرة السرو . ولكن الملك كان قادما من تلك الناحية اذ كان الطائر المصيد قد وقع هناك . فوقف أراميس واختفى قى الظل . وعندئذ رأى الاثنان - دون أن يريا - وجه دى لافالير الشاحب وقد تركت فى عربتها ، فنظرت أولا ثم دفعتها الغيرة الى النزول من العربة ودخلت الكنيسة واستندت الى عمود فيها وأخذت تتأمل الملك وهو يبتسم لمدام دى مونتسبان ويشير اليها لتقترب منه وانه ليس نمة ما تخشاه ، فأطاعت مدام دى مونتسبان ، وتناولت يد الملك التى مدها اليها ، ثم جذب ريشة من الطائر الذى خفه البازى ووضعها فى قبعتها ، فابتسمت له وقبلت يده بحنو ، وعندئذ احمر وجهه من السرور ونظر اليها نظرة حب ووله ، وقال لها : « ماذا تعطينى فى ابل هذه الريشة ؟ »

فاقتطعت غصنا صغيرا من شجرة السرو الصغيرة وأعطته الى الملك . وهنا قال أراميس لدارتانيان : « انها هدية حزينة لانها مقطوعة من شجرة تظلل قبرا ! »

وسمعا خلفهما أنينا ، ونظرا فرأيا امرأة تسقط على الارض مغمى عليها . وكانت هى دى لافالير وقد رأت كل شىء وسمعت كل شىء !

فتمتم دارتانيان وهو يساعد بعض رجال المعية على حملها الى عربتها : « يا لها من امرأة مسكينة ! »

وفى مساء ذلك اليوم كان دارتانيان جالسا الى مائدة الملك على مقربة من المسيو كولبير ودوق أليدا ، وكان الملك بادى السرور ، وقد خاطب دوق أليدا مرتين أو ثلاثا بلقب (سعادة السفير) ، فزاد ذلك فى دهشة صديقه دارتانيان !

ولما قام الملك من المائدة مد يده للملكة ، وأشار الى المسيو كولبير ، فأخذ هذا دارتانيان وأراميس جانبا ، ثم أخذ الملك يتحدث مع زوجة أخيه الأميرة هنريتا ، بينما كان زوجها الأمير يتحدث مع الملكة وهو لا يحيد ببصره عن زوجته . ودار الحديث بين أراميس ودارتانيان وكولبير حول شؤون شتى ، فتحدثوا مثلا عن الوزراء السابقين ، وذكر كولبير أعمال مازارين وسأل عن أعمال ريشيليو . وقد عجب دارتانيان اذ وجد هذا الرجل سليم الحكم على الأمور

وكان واضحا من ملامح الأمير أن تحدث الملك مع زوجته يزعجه ، وكانت عينها الأميرة قد احمرتا تقريبا ، أنراها ستشكو وتثير فضيحة فى البلاط ؟

وأخذها الملك جانبا وقال لها بلطف ذكرها بالوقت الذى كانت فيه محبوبا له : « أختاه .. لماذا أرى الدمع فى عينيك الجميلتين ؟ ان زوجك يشع

بالغيرة . أليس كذلك ؟ »

فنظرت صوب زوجها وكان هذا برهانها على أن الحديث يدور حوله ثم

قالت : « نعم ! »

فقال لها : « بدل أن توقى بينى وبين أخيك تشارلس ، اجعليه أكثر مودة لى ! »

فقال : « هذا أمر يسير يا مولاي »

فقال : « كلا ! انه ليس يسيرا كما تتصورين ، لان الصداقة العادية بين الناس يكفى فيها العناق أو الكرم أما الصداقة السياسية ... »

فقالت الاميرة : « أهى صداقة سياسية اذن ؟ ! »

فقال الملك : « أجل يا أختاه ! وفيها لا يوجد عناق ولا مآذب ، ولكن جنود وذخيرة وعتاد ، يخدم بها الصديق صديقه ... وسفن تقدم بما فيها من مدافع ومؤونة . ان خزائنا لم تكن دائما مستعدة لتوطيد صداقات من هذا القبيل ! »

فقالت الاميرة : « أنت على حق . ان خزائن ملك انجلترا ظلت طنانة رنانة وقتنا غير قصير ! »

فاستطرد الملك قائلا : « أنت يا أختاه لك نفوذ على أخيك ملك انجلترا وتقدرين أن تحصلى منه على أكثر مما يحصل عليه أى سفير ! »

فقال : « هذا يتطلب أن أسافر الى انجلترا ، أليس كذلك يا أخى العزيز ؟ »

فقال لويس الرابع عشر : « أحسب ذلك ، وأرى أن مثل هذه الرحلة تصلح من حالتك النفسية »

فقالت الاميرة : « ولكن ربما أفضل فى مهمتى هذه . فان ملك انجلترا له مستشارون يحسب حسابهم فى المحالفات ولاسيما اذا كانت مخالفة حربية تكلف أموالا ورجالا وسفنا . وليس يخفى على جلالتك أن مستشارى ملك انجلترا سبعة هم - أو بالأحرى - هن الأنسات : ستيوارت وويلز وجوين وأورشى وزونجا وديفيز والكونتس المتكبرة كاستلمين ! »

فقال الملك : « أتخشين فى مثل هذه الحالة أن تفشل مفاوضاتك ؟ »

فقالت الاميرة : « ان أولئك السيدات يسببن فشل كل مفاوضة لا يقمن بها بأنفسهن ! »

فقال : « لقد خطرت لى فكرة هى أن تأخذى معك مستشارة لها من الفصاحة ما يسكت مستشارات أخيك ! »

فقال : « هذه فكرة صائبة يا مولاي ، وسأبحث عن مستشارة من هذا القبيل »

فقال الملك : « ويجب أن تكون تلك المستشارة جميلة . فان الوجه الحسن خير من الوجه القبيح ! أليس كذلك ؟ »

فقال : « نعم ، وأن تكون ذات جراءة وحيوية . وأن تكون نبيلة وتعرف اللغة الانجليزية بحيث تخاطب الملك دون أدنى ارتباك ! »

فاوماً الملك لويس الرابع عشر موافقا ، بينما واصلت الاميرة كلامها

فقال : « ان كل هذه الصفات تنطبق على الأنسة دى كيروال ! »

فقال الملك : « لقد أحسنت الاختيار يا أختاه . وأنا أتصورك الآن فى طريقك الى انجلترا ! »

فقال : « سأذهب حالما اعرف مهمتى التى سأتفاوض بشأنها ! »

فقال الملك : « ان الهولنديين كما تعلمين يهينوننى كل يوم فى صحفهم ، وهذا عدا ان نظامهم جمهورى وأنا لا أحب الجمهوريات ! »

فقالت الاميرة : « هذا أمر سهل فهمه يا مولاي . ومضى الملك فقال : « انى أرى مع الالم أن ملوك البحر هؤلاء - كما يسمون أنفسهم - يسدون على فرنسا طريق الاتجار مع الهند ، وسفغهم لا تلبث حتى تحتل كل موانئ أوربا . ان مثل هذه القوة البحرية صارت قربة منا أكثر مما يجب ! »

فقال : « لكنهم مع هذا حفاؤك ! »

فقال : « هذا يدل على مدى خطئهم اذ صنعوا وساما يمثل هولندا وهى تصد الشمس . ان هذا لا يدل على مخالفة واء . أليس كذلك ؟ ! »

فقال : « كنت أحسب أنك نسيت هذا الحادث ! »

فقال لها : « انى لا أنسى شيئا يا أختاه ! . واذا كان أصدقائى المخلصون ، كأخيك تشارلس مثلا ، يؤيدوننى ... »

وسكنت الاميرة ولم تتكلم ، فاستطرد لويس الرابع عشر قائلا : « ان مملكة الحار مقسمة ، وانجلترا خاضعة لهذا التقسيم ، فلماذا لا أمثل أنا الشرط الثانى بدلا من الهولنديين ؟ »

فقالت الاميرة : « ان الأنسة دى كيروال ستعالج هذا الموضوع وهنا سألها الملك : « الا تشترطين شيئا آخر للموافقة على السفر ؟ »

فقال : « لا شىء الا موافقة الأمير زوجى » . فقال الملك : « انى أضمن موافقتك . ثم أشار الى كولبير فقطع هذا حديثه مع أراميس ودارتانيان ، والتفت الى أولهما قائلا : « يا سعادة السفير . أنتحدث عن الاعمال ؟ »

فانسحب دارتانيان بأدب ، ومضى الى المدفأة بحيث يسمع الحديث الذى سيدور بين الملك وأخيه الأمير ، وكان هذا ظاهر القلق بينما الاهتمام يبدو فى وجه الملك بعد أن تخلص من كل معارضة فى فرنسا ، وأوشك أن يقضى على كل مناوأة فى أوربا ، ثم قال لأخيه الأمير : « انى غير راض عن الفارس دى لورين ، وأنت الذى تشرفه بحمايتك ، فينبغى لك أن تنصح له بالسفر بضعة أشهر ! »

فانقضت هذه الكلمات على الأمير كالصاعقة اذ كان يحب دى لورين ويثق به . وسأل الملك قائلا : « وكيف استطاع الفارس دى لورين أن يثير غضب جلالتك ؟ »

فأجاب الملك : « سأقول لك ذلك بعد أن يرحل ... وايضا بعد أن تكون الاميرة زوجتك قد سافرت الى انجلترا »

فتمتم الامير مندهشا : « الى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل الملك كلامه قائلا : « أجل يا أخي العزيز ، وسنذهب نحن كلانا الى حيث أخبرك فيما بعد ! »

واستدار الملك على عقبه وهو يتسم لآخيه ليخفف من مرارة الجرعة التي جرعه اياها . وفي خلال ذلك كان كولبير يتحدث مع دوق الميدا ويقول له : « لقد حان الوقت لكي نصل الى تفاهم . لقد أصلحت بينك وبين الملك وكان هذا واجبا على نحو رجل في مثل مقدرتك . ولكن لما كنت قد عبرت مرارا عن صداقتك لي فقد سنحت فرصة للبرهان عليها . على أنك فرنسي أكثر منك إسبانيا . فأرجو أن تجاوبني بصراحة : انضمن حياذ إسبانيا اذا باشرنا حربا ضد هولندا ؟ »

فقال له أراميس : « يا سيدي ان مصلحة إسبانيا واضحة ، وترمي سياستنا الى بذر بدور الخلاف بين أوروبا وبين هولندا ، غير أن هذه الدولة هي حليفة ملك فرنسا . وأنت تعلم أن مثل تلك الحرب ستكون حربا بحرية ، وإن فرنسا لا تمكثها ظروفها الحالية من الاستفادة من مثل هذه الحرب ! »

فالتفت كولبير الى دارتانيان وناداه ، وقال لأراميس : « يمكننا أن نشرك المسيو دارتانيان في حديثنا ، أليس كذلك ؟ »

فاوماً أراميس موافقا وقال : « بكل تأكيد ! » . ثم قال كولبير لقائد الفرسان : « لقد كنت أتحدث مع دوق الميدا في شأن الحرب مع هولندا ، ومن رأينا أنها ستكون حربا بحرية »

فقال دارتانيان : « هذا أمر واضح ! »

فسأله كولبير : « ما رأيك في مثل هذه الحرب يا مسيو دارتانيان ؟ »

فأجاب : « أعتقد أنه للنجاح في مثل هذه الحرب يجب أن يكون لنا جيش برى ضخم ! »

فظن كولبير أن دارتانيان لم يفهم قصده وعاد يسأله : « ماذا تقول ؟ . »

وسأله أراميس بدوره : « وما الحاجة الى جيش برى ضخم ؟ »

فأجاب قائلا : « لأن قوات الملك ستهزم في البحر اذا لم تكن انجلترا حليفة لنا . واذا هزمتنا بحريا غزيت بلادنا دون ابطاء ، من جانب الهولنديين بحرا ومن جانب الأسبانيين برا ! »

فسأله أراميس : « واذا بقيت إسبانيا على الحياد ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أن إسبانيا ستبقى محايدة طالما كانت كفة فرنسا هي الراجحة »

فأعجب كولبير بفتنة دارتانيان وبعد نظره . وابتسم أراميس إذ كان يعرف أن دارتانيان لا يفوقه أحد في الشؤون الدبلوماسية . ثم استأنف الكلام وسأل دارتانيان : « من الذي أنبأك أن الملك لا يملك أسطولا بحريا ؟ »

فقال دارتانيان : « اني لم أعبا بالتفاصيل ، وليست لي خبرة بحرية . بل أنا ككل رجل عصبى أكره البحر . غير اني أعتقد أنه اذا أصبحت فرنسا تملك سفنا كافية فانها ستجد رجال البحرية الكافين »

فأخرج كولبير من جيبه كراسية صغيرة قسمت صفحاتها الى عمودين ، وفي ناحية منها أسماء السفن ، وفي الناحية الاخرى عدد المدافع والرجال المطلوبين لها . وقال لدارتانيان : « انه احصاء بالسفن الحربية التي تملكها . والمدافع التي بها . . انها خمس وثلاثون سفينة وبها حوالي ألفي مدفع . وهكذا يمكن أن يكون لنا ثلاث مجموعات بحرية . ولكن يجب أن يكون عندنا خمس مجموعات »

فصاح أراميس : « خمس مجموعات ؟ ! »

واستطرد كولبير قائلا : « انها ستنزّل الى البحر قبل نهاية هذه السنة . وسوف يكون لدى الملك خمسون سفينة . وعندئذ يمكننا أن ننازلهم . أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان : « ان تشييد السفن صعب ولكنه ممكن . اما تزويدها بالسلاح فما الذي يمكن عمله ؟ . ان فرنسا لا تملك مصانع ذخيرة ولا أحواض سفن ! »

فقال الوزير : « لقد أنجزت كل ذلك خلال الشهر الثمانية عشرة الاخيرة . ألم تعلم ذلك ؟ ألا تعرف المسيو ايمفريل ؟ »

فقال دارتانيان : « ايمفريل ؟ كلا لست أعرفه ! »

فقال الوزير : « رجل اكتشفته . رجل عبقري يعرف كيف يغري الرجال بالعمل . وهو الذي صنع المدافع وقطع أشجار الغابات في بورجونى . ثم ان عندي فكرة أفضى بها اليك يا سعادة السفير وربما لا تصدقها »

فقال أراميس : « اني دائما أصدقك يا سيدي ! »

فقال كولبير : « لقد قلت لنفسى : ان الهولنديين تجار وهم اصداق الملك ، فيسرههم بلا ريب أن يبيعوه ما يصنعونه لانفسهم . وهكذا زدنا ما نشتره منهم . . . ان عندنا فوران . أتعرف فوران يا دارتانيان ؟ »

وابتسم دارتانيان إذ ناداه الوزير هكذا دون لقب كما يناديه الملك ، ورد عليه قائلا : « لا يا سيدي لست أعرفه ! »

فعاد الوزير يقول : « انه رجل آخر اكتشفته وهو نابغة في الشراء . ان فوران هذا قد اشترى لي ثلاثمائة وخمسين ألف رطل من الحديد ومائتي ألف رطل من البارود ، كما عقد لي اثنتي عشرة صفقة من خشب البلدان الشمالية ، وهذا كله عدا صفقات الكبريت والقنابل والقار وغيرها ، وقد اشتراها لنا أرخص بمقدار سبعة في المائة من تكاليف صنع مثلها في فرنسا ! »

فقال دارتانيان : « انها لفكرة حسنة ان تصنع الذخيرة بأيدي الهولنديين

راتبه مائة ألف ليفر في السنة لتنفقات التمثيل والمآدب وغيرها ! »

فقال له كولبير : « أتظن أن الملك سيساومك ؟ »

فقال له : « أنك يا سيدي لا تفهم قصدي . انى أقول انى بوصفى قائدا للفرسان ، وبوصفى ضابطا أقدم من مارشالات فرنسا ، وجدت نفسى ذات يوم مساويا لقائد الحرس وقائد الحرس السويسرى . فأنأ لن أصبر على ذلك . ان لى عاداتى القديمة وسأصر عليها ! »

فقال له كولبير : « لقد فكرت فى كل ذلك . ألم أحدثك منذ لحظة عن القنوت والبرك فى هولندا وعن خوفى أن تغرق ؟ . حسنا ! أنك اذا غرقت فذلك لانك ينقصك زورق أو لوح من الخشب ... أو ... عصا ... »

فقال دارتانيان : « بل عصا مهما قصرت ! »

وأوما الوزير موافقا وقال : « لذلك لم أسمع قط بأن مارشالا فرنسيسا غرق ! »

فشحب وجه دارتانيان وقال بصوت يعلبه التأثر : « ان الناس فى فرنسا سيفخرون بى اذا صرت مارشالا . ولكن لا بد أن يقود الضابط حملة رئيسية لينال تلك الرتبة ! »

فقال له كولبير : « هنا فى هذه الكراسى خطة لحملة ستتولى أنت قيادتها فى الربيع القادم »

فتناول دارتانيان الكراسى بيد مرتعشة وقال لكولبير : « أرجو أن تخبر الملك بأنه فى أول فرصة تسنح سينال نصرا عظيما أو يرانى جثة هامدة ! »

فقال كولبير : « اذن سأعد لك عصا المارشالية توال ! »

وفى صباح الغد جاء أراميس ليودع دارتانيان فى فندقه قبل أن يعود الى أسبانيا ليقتع ملكها بالحياد ، فقال له دارتانيان : « ليحب أحدنا الآخر حبا يكفى أربعة ، فقد صرنا اثنين فقط ! »

فقال له أراميس : « لعلك يا عزيزى دارتانيان لن ترانى ثانية ! . آه لو عرفت قدر حبى لك ! اننى الآن شيخ فى الهالكين ! »

فقال له دارتانيان : « يا صديقى ، أنك ستعيش بعدى . ان السياسة تتطلب منك أن تعيش . أما أنا فإن الشرف يتطلب منى أن أموت ! »

فقال له أراميس : « ان الرجال أمثالنا ، يا فخامة المارشال ، لا يموتون الا بعد أن يشبعوا فرحا ومجدا ! »

فابتسم دارتانيان ابتسامة حزينة وقال : « أوكد لك يا سيدي الدوق انى صرت لا أشتهى هذا ولا ذاك ؟ »

ثم تعانقا مرة أخرى ، واقتربا !

لتعود اليهم بعد ذلك طلقات تستقر فى صدورهم ! »

فقال الوزير : « ليس هذا فقط بل بخسارة لهم كذلك ! » . ثم ضحك وواصل كلامه فقال : « ان الهولنديين أيضا يبنون للملك الآن ست سفن على طراز أحسن سفنهم الحربية . ويتضح من ذلك كله ان ملك فرنسا اذا أراد أن يحارب الهولنديين فسيكون له أسطول قوى . أما الجيش البرى فانت أدرى به من كل انسان »

فتبادل دارتانيان وأراميس نظرة بدت فيها دهشتها مما أنجزه كولبير فى وقت وجيز

وسر كولبير من هذا المديح الصامت . ثم قال له دارتانيان : « اذا كنا ونحن فى فرنسا نجعل كل ذلك فلا شك ان غيرنا أجهل به ! »

وعندئذ قال أراميس : « اذا ساعدتكم انجلترا فانى أضمن لكم حيا أسبانيا »

فسارع كولبير الى القول : « انى أسجل عليك وعذك هذا . وعلى ذكر أسبانيا أراك لا تحيل وسام الفروة الذهبية . ولقد سمعت الملك منذ أيام يقول أنه يود أن يراك متقلدا وشاح الوسام الأكبر لسان ميشيل ! »

فانحنى أراميس شاكرا ، وقال دارتانيان لنفسه : « لو كان بورتوس حيا لسعد بعدد من هذه الاوسمة ! رحمة الله على بورتوس ! »

ثم قال كولبير : « يا مسيو دارتانيان . . انى أراهن أنك تتمنى لو تغزو هولندا بفرسانك ، أتتقن السباحة ؟ »

وضحك كولبير ثانية لئكتته هذه ، فقال له دارتانيان : « اتى أسبح كالسمك ! » . فقال كولبير : « ولكن فى هولندا عددا من القنوت والمستنقعات وقد يفرق فيها أحسن السباحين ! »

فقال دارتانيان : « ان مهنتى هى أن أموت فى خدمة صاحب الجلالة . ولكن فى الحروب يقابل الماء الكثير نيران كثيرة ، وسأبدل قصارى جهدى لاختيار النيران . انى أوغل فى الكبير . والماء يبرد أطراف جسمى . أما النار فتدفئنى ! »

وبدا كأنه عاد الى شبابه وهو يقول هذه الكلمات بحفاضة وعزم ، فلم يسع كولبير الا أن يعجب به . وتذكر أن أحسن التجار هو الذى يفرض ثمنا غالبا لسلعته فاستعد لدفع هذا الثمن سلفا . وقال له : « وعلى ذلك تذهب الى هولندا ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل : ولكن ... »

فسأله كولبير : « ولكن ماذا ؟ »

فأتم كلامه قائلا : « فى كل أمر يوجد أيضا الصالح الشخصى ... ان لقب قائد الفرسان لقب جميل . ولكن لدينا الآن حرس الملك ، وقوة القصور . فقائد الفرسان يجب أن يراس جميع هذه القوات ، وعندئذ ينبغى أن يكون

بارعة فقتلوا من جنود دارتانيان سبعة وسبعين رجلا وحطموا بعض منشاتهم ، وقد أزعج ذلك دارتانيان وخرج مع عدد من قاذفي القنابل ليصلحوا ما تهدم !

وكان رسول المسيو كولبير قد أمر بأن يقابل المسيو دارتانيان حيث يكون ، لذا اتجه صوب الخنادق ووراءه الحرس الذي يصحبه وكلهم على ظهور الجياد . وقد رأوا دارتانيان في السهل المنبسط وعرفوه بقبعته ذات المخرم الذهبى وعصاه الطويلة وكان بعض على طرفي شاربه ويزيح عن ملابسه التراب الذى يثيره الرصاص الذى يصيب الارض على مقربة منه . ورأوا كذلك جنودا وضابطا يصلحون الخنادق . وبعد ثلاث ساعات تمت هذه المهمة وبدأ على دارتانيان الارتياح والهدوء . ولم يكد رسول كولبير يحدث دارتانيان حتى أصابته برصاصة فى احدى قدميه فذهبت بها وسقط بين يدي القائد ، فرفعه هذا وحمله الى الخندق بين هتاف رجال فرقتين من الجيش ، ومن تلك اللحظة صار القتال أقرب الى الجنون ، وتقدمت الفرقتان الى المواقع الامامية فدكتها دكا واندفع رفاقهم وراءهم فى هجوم عنيف

وبينما كان دارتانيان يهتف بنفسه بهذا الانتصار، سمع وراءه صوتا يناديه فالتفت وراءه وتناول خطاب كولبير وقرا فيه ما يلى :

« عزيزى المسيو دارتانيان . . أن الملك قد أمرنى بأن أخبرك بأنه قد عينك مارشالا لفرنسا جزاء لك على خدماتك الجليلة وعلى المجد الذى كسبته لجيوشه . والملك شديد السرور بالانتصارات التى حزتها . والصندوق المرافق هو هديتى الخاصة ، وأنتم يا رجال الحرب بينما تشهرون سيوفكم للدفاع عن البلاد ، أعنى انا بحث رجال السفن على ابداع الهدايا التى تستحقونها . وانى فخور بصدافتك يا سيدى المارشال . . . كولبير »

فتملك دارتانيان الفرح ، وأشار الى الرسول فاقترب بالصندوق، ومد دارتانيان يده ليفتح الصندوق واذا برصاصة من قبل البلدة قد حطمت لصندوق بين يدي الضابط وأصاب دارتانيان فى صدره فوقع على الارض لتوه ، وسقطت عصا المارشالية من الصندوق المحطم تحت يد المارشال . وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع ، وظن رجاله أنه لم يجرح ولكن اذا به قد لون الدم ثيابه بلون أحمر قان ، وشحب وجهه شحوب الموت !

وصاح ضباط دارتانيان فرحا . ثم اتكأ على أذرعهم التى امتدت له من بل جانب ، فاستطاع أن يلقى نظرة أخيرة على المكان وأن يرى علم ملك فرنسا مرفوعا على الحصن الرئيسى ، وسمع بأذنيه اللتين بدأتا تصمان عن سماع أصوات الحياة ، صوتا ضعيفا لطول تعلن النصر . ثم أمسك بيده الواهنة عصا المارشالية ونظر إليها، وبعدئذ تراجع الى الوراء وهو يتمتم هذه الكلمات التى لم يفهمها ضابطه : « يا آتوس ، يا بورتوس ، الى اللقاء . يا أراميس وداعا الى الأبد ! »

وهكذا لم يبق من الفرسان الأربعة سوى جسم واحد ، أما الارواح فقد قبضها الله اليه !

نهاية الفرسان الأربعة

وفى الملك لويس الرابع عشر بعده . فاستقدم المسيو دى جيش من منفاه، ونفى الفارس دى لورين من خدمة الامير شقيقه ، وعلى هذا سافرت الاميرة هنريتا الى لندن حيث بذلت جهدها لتغرى أخاها تشارلس الثانى بأن يصغى الى نصائح الأنسة دى كيروال ، وهكذا عقدت محالفة بين إنجلترا وفرنسا ، وعاونت بضعة ملايين من الذهب الفرنسى سفن إنجلترا على القيام بحملة ذريعة ضد أسطول هولندا . وكافا تشارلس الثانى الأنسة دى كيروال على نصائحها الطيبة فجعلها دوقة بورتسموث . وكان كولبير قد وعد ملك فرنسا بالسفن والذخائر والانتصارات ، وقد وفى بوعده كما هو معروف . وكذلك أراميس الذى كان أكثر الاعتماد على المفاوضات التى قام بها فى مدريد .

وفى الربيع التالى بدأ الجيش البرى حملته ، وكان دارتانيان يقود اثنى عشر الفا من الفرسان والمشاة ، وعهد اليه فى الاستحواذ على النقط الاستراتيجية الهامة . وكان الضباط يعرفون بسالة قائدهم وبراعته ، وانه لن يضحي رجلا واحدا ولن ينزل عن شبر أرض الا عند الضرورة . وقد استولى خلال شهر على اثنى عشر موقعا صغيرا . ثم شرع يحاصر الموقع الثالث عشر ومكث فى ذلك خمسة أيام أمر فيها بحفر الخنادق دون أن تبدو من جانب العدو نية التسليم !

وبعث دارتانيان رسولا الى الملك ليخبره بما تم ، فسر الملك بالانباء وزاد ميلا لمداعبة السيدات اللاتى حوله، وقد زادت الانتصارات جلالا حتى صارت مدام دى مونتسبان لا تسميه الا باسم « لويس المظفر » . وفقدت الأنسة دى لافالير كثيرا من حظوتها لديه وصارت عينها دائمى الاحمرار من البكاء، وهو أمر لا يلائم ملكا منتصرا يتسم له العالم . . . وبينما أفل نجم لافالير وسط السحب والدموع ، سطع نجم مدام دى مونتسبان التى تضاعف مرحها مع انتصارات الملك . وكان لويس الرابع عشر يعرف أن الفضل فى ذلك يرجع الى دارتانيان ، فكتب الى المسيو كولبير ما يلى :

« يا مسيو كولبير . . ان علينا وعدا للمسيو دارتانيان يجب أن نوفى به ، وقد حان الوقت لذلك . . لويس »

وعلى أثر هذا ارسل كولبير الى دارتانيان خطابا ، وصندوقا من الآبنوس المرصع بالذهب ، حملهما اليه رسول خاص زود بحرس مؤلف من خمسة رجال . وقد وصلوا قبيل الفجر الى الموقع الذى يحاصره دارتانيان ، وكان محافظ تلك البلدة قد استطاع أن يهجم مع بعض المحاصرين بحيلة